رسمت خطاً في الرمال
هاني الراهب
الطبعة الاولى ٥ حزيران ١٩٩٩
الغلاف من تصميم:د. محمد نعيم الجابي

دار الكنوز الادبية - بيروت / لبنان
ص. ب/ ٧٢٢٦ - ١١ هاتف / فاكس ٧٣٩٦٩٦

١ . سيدنا الدولار

كانت شهرزاد تكسب يوم حياة آخر بسرد القصص. استطاعت أن تسجن الملك في الزمن والزمن في الفن، وأن ترمم وطنا للمبدعين. أما أنا وأبو الفتح فنراوغ ألف شهريار كل طالع نهار. هنا، في مدينة لماذا، إذا كتبت هلكت. واذا عطست فطست. وأنا وأبو الفتح نفضل الموت في القصص على العيش في قفص.

ورغم علمي المكنون بأني جزء من تاريخ ملعون فقد عشت على انتظار أن يطرق بابي يوماً سيدنا الدولار.

قال ياسر: "بابا، بودي ربع دولار".

قلت: "يا ولد! تعرف أن الدولار عملة أمريكية وتطلبه مني؟ نحن لسنا أمريكيين".

قال: "اذا طلبت قروشاً فربما نزلت قيمتها قبل أن أصل الى بائع الشوكولاته".

كان قد مضى علي ثلاثة أشهر دون أن أتلقى دولاراً واحداً، وعشرون شهراً وأنا بلا عمل. عندما انقطع رزقي بسبب الطول السياسي للساني، انفض من حولي تسعون بالمئة من أصدقائي ومئة بالمئة من دخلي. وبعد أشهر بدأت أبيع مقتنياتي، وأقترض. الصحف والمجلات التي كنت أكتب لها - أنا عيسى بن هشام - وجدت أن مقاماتي باتت تفتقر إلى

النكهة والنكتة والطعم واللون والرائحة (كلها دفعة واحدة). وتأسف رؤساء التحرير لعدم استطاعتهم نشرها.

وهكذا جثمت على خاطري معضلات الحياة الجاثمة على مدينة لماذا. كنت مسترخياً على الحصيرة في غبش البرودة والتهويم. أسندت ظهري إلى الجدار. نقلت عيني الغافلتين بين المحراب والمنبر وحروف الذهب البديعة على الجدران الأخرى: أنا عيسى بن هشام، الذي تمرد على خالقه بديع الزمان وقال له: "إما أن تجعلني غنيا بالمال أو غنيا بالكرامة ؛ أما لا ذاك ولا تلك، فهذا فراق بيني وبينك".

أبو الفتح الاسكندري طويل اللسان. نحن لم نتكون في رحم أم واحدة. لكننا توأمان في كل شيء. لقد تكونا في رحم آخر هو مخ خالقنا بديع الزمان. كان طبيعياً أن نبقى أسيري لغته الى يوم القيامة. لكن لحظة انفطار واحدة، الانفطار الكبير، غيرت كل شيء. هذا التكرار. تلك النمطية. ذلك السجع. تلك هي لغة بديع الزمان التي اعتبرها فقهاؤنا معجزة. أدخلنا فيها وتركنا هناك. وفي مدينة بخارى اتفقنا أن نغادر وجدان خالقنا وأن نتأبى عليه الى الأبد. وأخذ أبو الفتح ينشد:

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور

لا تلتزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور

ويمم شطر مدينة الاسكندرية.

أما أنا فهوت عن كاهلي قشور الأبدية وشممت روائح الزمن في مدينتي الندية. هناك استقريت، وعزمت أن أكسب لقمتي بكرامتي.

جلست بين شجرة المشمش وشجرة الورد. انتظرت مجيء دنيازاد لنحتفل معا بشرب فنجان قهوة. (تكرمت جارتنا باعارتنا أوقية من البن). الشجرات المثمرات التي زرعتها في الحديقة صارت مجرد عيدان. فأولاد الجيران تربّصوا بكل غصن ينبت فيها أو ورقة، وأسعدهم اقتطاعها. بقيت فقط صنوبرة ودفلى وزيتونة.

تأخرت دنيازاد. طفر بي حزن أصفر. أصوات الأطفال وصلتني من الملعب الترابي وراء الحارة، وكان بينها أصوات ياسر ويسرى، بالطبع. انفلت شعوري بالذنب، وأطلق أدخنته في عقلي وعيني، وبكيت.

نظرت إلى أعالي شجرة الحور ومرة أخرى انسحرت بلألاء أوراقها. لكن ورقة منها أخذت تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار، وتعلو وتهبط مثل فكرة أو حلم. غير أنها لم تكن غريبة تماما. وقد تضاعف مفعولها في نفسي بسبب اتخاذها سمتا عموديا فوقي.

توقف هبوط الورقة الهلالي عند مسافة مستحيلة. كل شيء كان هادئا وساكنا عند ذلك العصر. رأيت ابتسامة بنجامين فرانكلين الجيوكوندية إلى يمين الرقم ١٠٠، وتأبى على يدي الوصول إلى الورقة. رأيتني في وضع استفزازي مرفوض. فالذي أمام عيني استعادة لتاريخ من المعجزات بأسلوب أمريكي. ولكن .. ألم تنزل لجدي قصعة من السماء عندما تنسّك في القرن الثامن عشر، وترك زوجاته الأربع وأحفاده وقراريطه؟ لماذا لا تهبط علي أنا ورقة من فئة المئة دولار؟ فقط مئة دولار.

غافلت الورقة الهاجعة ووثبتُ صُعُداً نحوها. ارتفعت هي بمقدار ما ارتفعت أنا. وثبت من جديد، فارتفعت الورقة من جديد.

هبطتُ فهبطتْ. تصنعت الوثوب، فارتفعت هي ثم هبطت، فوثبت أنا، وبالوسطى والسبابة من يمناي أمسكت بطرفها.

ارتفعتْ ورقة المئة دولار، ارتفعتُ أنا. بجهد اضافي جعلت إبهامي يمسك بطرفها مع إصبعيّ الآخرَين. وعبثا حاولتْ الافلات من أصابعي. كل حركاتها الهلالية والقمرية لم تفلح في فك مسامير يدي عنها.

وجدتني أعلو. تبع جسمي خط حركاتها. مررنا بحذاء درج البناية. شاهدتنا دنيازاد، فسقط حنكها عن حنكها وصينية القهوة عن يدها. صحت بها صيحة ظافرة ثاقبة: "مئة دولار-! مئة دولار! اعملي قهوة جديدة وانتظريني!"

لم أعرف الى أي علو صعدت. فقط، أخذ قلبي يضخ مزيدا من الدم. من الطبيعي أن يعلو امرؤ ممسك بالدولار. ليس ثمة عجب في ذلك. إنما: الى متى سأظل أطير؟ ثم: كيف سأهتدي إلى بيتي وحديقتي ومقاماتي؟ هل سأهبط أم سأسقط؟

طمأنني أنني لن أسقط أبدا ما دمت ممسكا بمئة دولار. لكنني كرهت أن أبدو خفيفا هكذا، ترفعني في الفضاء ورقة بمئة دولار. يا للعار ! مع أنني أنا الذي أمسك بالورقة، وليست هي التي تمسك بي.

توقفت عن الارتفاع معها. ليكن ما يكون. ونظرت إلى الورقة. ظلت تطير ! استطالت يدي وراءها. وطال ساعدي، وطال زندي. صارت أطول يد عرفها التاريخ. كنت واقفا على علو مئتي متر من بنايتنا. لكن يدي طالت وطالت. ولم تعد أصابعي في متناول عيني. مئة متر. ألف متر. عندها شلّ الذعر إرادتي وعزمي، فهويت من حالق.

تلقاني التراب، ويميني ما تزال غائبة في علو الفضاء. وقبل أن تصل دنيازاد إلي، حاملة صينية القهوة الثانية، أخذت يميني تنكمش وتهبط نحوي. وفي ثوان كنت على وشك أن أطير مرة أخرى: يا الهي ما أروعك أيها الرئيس الأمريكي! وأيضا معك برقية من أبي الفتح الاسكندري : "اليك أخباري أيها النصب التذكاري، شد الرحال بلا إمهال، فأنت أيها الرجيم مطلوب للتعليم في جامعة نفيطية جيم".

وضعت دنيازاد صينية القهوة على التراب ومسحت جبيني بورقة كلينكس. هتفت بها محنقا من تبذيرها: "أنا لا أعرف في العالم كله متسولين يمسحون عرقهم بورق الكلينكسَ غيرنا نحن !"

قالت وعيناها تتفحصانني كسماعة طبيب: "آتيك بالشيخ متولي أم بالدكتور مصطفى؟"

قلت: "بماذا تخرفين؟ لماذا الشيخ ولماذا الدكتور؟"

أجابت وهي تصب القهوة في الفنجان: "رفعك جني في الفضاء ثلاثمئة قامة. ضروري نتأكد أنه خرج منك."

هتفت: "أي جني يا بنت الحلال؟ بعمرك رأيت جنيا يدخل في جني؟ جاءنا الفرج، جاءنا الفرج ! أنا مطلوب للتدريس في جامعة نفيطية سين. وهذه مئة دولار عربون، نزل علي من السماء !"

تمتمت هي بهدوء ارتيابي: "من السماء؟ لكن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، كما يقول سيدنا عمر."

قلت بثقة مطلقة: "يبدو أنها تمطر في عصر النفط".

أمضينا ثلاثة أيام ونحن نحاول أن نحلّ النبأ في نظامنا العقلي دون مضاعفات فظيعة. بالطبع رقصت يسرى وياسر (كم يسخر بي هذا الاسمان) فقلت: لا بأس. ودعونا أنفسنا إلى وجبة في مطعم، فدفعت ثلاثين دولارا، وقلت: لا بأس. واشترى ياسر كرة سلة ويسرى نظارة بوليسية، وقلت: لا بأس. وتلاشت ورقة بنجامين فرانكلين، فقلت: لا بأس. يسرى هي التي أوجزت الموقف كله. نظرت إلي وأهدابها الكحلاء ترف بهدوء ووداعة، وقالت: "بابا، يعني في نفيطيةدال ستضب لسانك، وما دمنا نقبض دولارات فلن تحكي في السياسة". وقبل أن أجيبها أني لن أتكلم في السياسة ولا الجنس ولا الدين، قرأت في عينيها الكبيرتين الحبيبتين قلقا مبهما وشبه وصول إلى ساحل الدموع.

كان قد بقي أمامنا أربعة أشهر قبل أن ننطلق إلى نفيطية. مدة قصيرة اذا ما قيست بالدهور التي عشتها. ومدة طويلة إذا ما صففت أيامها على ورقة سيدنا الدولار. الحقيقة أننا كنا على شفير هاوية مالية مذلة.

قوة الواقع قوة الحلم. وقد حلمت بالدولار، بالعدو الذي سيخلصني من أصدقائي: الفقر والقلق والتعب. حلمت به يقول لي: لك ولنسلك أعطي هذه المبالغ العظيمة وحسابا في البنوك.

أخيرا تناولت تذكرة السفر. طبق من الفرح والكدر. من خبز التوقعات المرتعشة ولحم التذكرات المرة ورائحة أسلاك عفنة خضراء. وحقا فلست حتى الآن أدري أيها كانت أكثر: دموع الفراق أم دموع

الأمل. وقفنا في صالة المطار، ورحنا نكرر قُبل الوداع وعناقاته حتى شك الموظفون في أني سأنفك عنهم وأمضي.

فقط بعد أن ألصق رجل الأمن ختمه على جواز السفر ورفعه بين إصبعيه إلي، أحسست أنه قد آن الأوان لكي أصير شمشونا. وفعلا لم أتباطأ. قلبت عالي المكان سافله. نفخت على المنصات فانتفضت من أمكنتها وولّت الأدبار عبر جدران المطار. نفخت على الجدران فتصدعت، وهوت السقوف وتداعت الأعمدة. نفخت فقط. ووقفت هناك: صلباً منيعا منتقماً، دون أن ينال مني هطول الأنقاض وكتل الاسمنت. كنت أعظم بكثير من الأمريكي الذي لا يقهر في التلفزيون والسينما.

ترى لو تحققت أحلام المقهورين المدمرة، فكم سيبقى من هذا العالم؟

وها هو ذا. أبو الفتح بلحمه وشحمه! متمديا في مقعده ببدلة (لانفان) ويقرأ مقامات خالقه بديع الزمان ثم يدندن لنفسه:

لا يغرنــــك الـــــذي أنـــا فيـــه مـــن الطلـــب
أنـــا لـــو شـــئت لاتخـــذت ناطحـــات مـــن الذهـــب

فككت حزامي وجئت إليه: "كيف أفلتوك من متاهات الاسكندرية؟ ألم يكفك هناك ما أوقعته في الناس من بلية؟"

لم يشأ التعرف علي. وأخذ يترنم:

أنـــا مـــن ذوي الاســـكندريه مـــن نبعـــة فيهـــم زكيـــه
ســـفه الزمـــان وأهلـــه فقصـــدت أرض النفطويـــه

دخلت في تهويمات النوم حتى دخلت خياشيمي رائحة الطعام. أكلت وأنا أسترق النظر الى أبي الفتح، الذي لم يشأ التعرف علي. ثم نمت.

ذلك المطار الآخر. كل شيء فيه أكبر مني. دهليزه الكتيم يعلبني. أمشي فيه كأني انضغطت داخل رحم من التنك. دودة وجلة حائرة أنا، أحبّ بعضلات بطني على المرمر الصقيل العاكس وأرتعش من البرد والصغر. إعلانات المصارف على الجدران الصلدة العارمة. الشارات

والأسهم واللغة الانكليزية وسيارات الأجرة. الممرات والسلالم الكهربائية والاستطالات الغامضة. تماما مثل أوروبا. ديدان تهرع هنا وهناك وتنعم بالبرودة وإعلانات التكنولوجيا والدولار والمطاعم. تماما مثل الولايات المتحدة. تموجات من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. والدعوات الى الزكاة والتبرعات كرمى للأخوة المسلمين المنكوبين بالشيوعية في أفغانستان. تماماً مثل مكة المكرمة.

ثم ذلك السلم المعدني الكهربائي. هابط إلى قرارة وقاع. وضعت قدمي على الدرجة العليا فسحبتني نزولا إلى بوابة حشر. إلى الوجه المضفور المتكنج داخل صندوق من الزجاج والخشب.

سألني: "أنت عيسى بن هشام؟" ورمقني بنظرة معدنية.

ابتسمت بأريحية: "الأديب المعروف"!

صارت نظرته المعدنية مخلبا: "أديب وتجيء إلى نفيطية بدون فيزا؟"

هممت أصيح: تسقط الفيزات! هممت أقول: كان النبي يرتحل رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام بدون فيزا. هممت أتمتم: كتبي ومؤلفاتي هي تأشيرتي.

معدن عينيه وضفائر وجهه لم تكن بالتأكيد لتفهم لغة ركيكة من هذا النوع. بحبشت في حقيبة يدي واستخرجت البرقية. أدخلتها إليه من تحت الزجاج بابتسامة حاسمة.

عادت البرقية الي بأسرع مما دخلت. وجاء صوته المسْلولك: "فيزا، يا دكتور، مو برقية. يعني بالعربي تأشيرة."

وقفت حائرا وعاجزا. برقية رسمية تدعوني أستاذا زائرا، وتذكرة طائرة مجانية ودرجة أولى ؛ وغير مسموح لي بالدخول! وصاح المضفور: "الذي بعده". فتقدم الذي ورائي. ثم الذي وراءه، فالذي وراءه.

تقدم الوقت. وخلا المكان الا مني - ومن العسس. ثم امتلأ. طائرات جديدة وتأشيرات جديدة. وخلا المكان مرة أخرى. ثم امتلأ. تقدم الليل.

جلست على مقعد خشبي كريم. طائرات جديدة وتأشيرات جديدة. وأذان الفجر. صليت صلاة المسافر. والثامنة صباحا.

وصوت يصيح: "عيسى! يا عيسى!" وختم بالدخول على جواز السفر.

مفتش الجمارك. حارس المكس. أمضى قرونا وهو يفترش الرمال، يمشي على الرمال، يأكل ويقتل ويضاجع ويبول... على الرمال. فوقه السماء الرمادية وجحافل النجوم وجحافل الغبار. وذات ضحى قال له وجه مضفور: "تعال كن حارسا للمكس"، فكان. خلال ستة أيام علّموه ما يكفي من الانكليزية لتفتيش التأشيرات والحقائب، وفي اليوم السابع استوى على منصة اسمنتية وصار رب الحدود .علّموه أن يعبأ بالتفاصيل. إنه متأطر داخل لباسه الرسمي. عيناه الباردتان الحانقتان تزدريان الخليط النافر من تفاصيل الوجوه ومحتويات الحقائب. كلها مجهول بالنسبة له. كلها ريبة واحتمالات شر وعهر. إنه ينظر إليها بازدراء. هو رب الحدود. لو كان في هؤلاء الناس كرامة لما أقبلت من أقاصي المعمورة لتخدمه بعلمها ولحم عقولها وأثدائها.

اليدان المعدنيتان المضفورتان تهيمنان على الحقيبة مثلما هيمنتا على جواز السفر. تغوصان في الملابس المكوية وتذكارات الأحبة وطوايا القماش. تغوصان من أقصى اليمين وأقصى اليسار. وتلتقيان في الوسط. خير اللقاء الوسط. ترتفع اليدان. ترتفع الملابس والتذكارات والطوايا. تتبعثر على الرمال. يتغلغل فيها النسيم العليل. أصابعه مرة أخرى: هل هذه القارورة عطر أم ويسكي؟ هل هذه المعلبات ضأن أم خنزير؟ هل هذه لغة أم ديناميت؟

وأخيرا صرخة الازدراء: "ادخلوها بجحيم صاغرين ! هذه البلاد!"

٢ ـ أبو الفتح الإسكندري يبحث عن عمر بن الخطاب

أفق أبلق. أرض تركض. وعينه تستجير من الهجير. باع التمر لسومر. لآشور دفع غرامة السلامة. وانكفأ ليعبدبعلا سماه هُبَلا. أشواقه تتنزى عشقا للات والعزّى. خلاياه مصنوعة من الرمال ووبر الجمال. كذلك بيته وتخته وبخته. تعلم من البعير الصبر ومن الصحراء الغدر. أقام بختنصّر امبراطورية الجغرافيا ، فأقام هو امبراطورية اللغة. صوّحت أشجار جزيرته وظل هو غضا ؛ غارت في باطن النجاد وغار هو في حرف الضاد. صار التراب رمالا، وصار هو حروفا. بعد آلاف السنين، صارت الاشجار بحار النفط، وصارت الحروف لغة القرآن. وعندما اكتملت لديه عشرة ملايين كلمة حضر إلى التاريخ حاملا كتابه بيمينه. ذلك هو العربي .

منذ القرن السابع وأنا أتقاسم معه ذل المرابع – أنا أبو الفتح الإسكندري. قتل عمر وعلي فأمسى الناس وأمهاتهم تلدهم عبيدا. منجنيق الحجاج بن يوسف ضرب الكعبة فهللنا لجاذبية اللعبة. سطع السيف في قبضة مسرور فأدلينا بشهادات الزور. صرخنا والإسلام الشيخين عندما احتل الصليبيون ثالث الحرمين الشريفين. صرخنا يا للهول عندما سقطت بغداد تحت سنابك المغول.

حتى ذلك الأوان كنت ما أزال أتهجد لخالقي ومولاي بديع الزمان. وفيما أتهيّأ للقيام بدوري في المقامة القيروانية تبادلت السلام وابن خلدون عند شاطىء الاسكندرية. وقال لي إن بديع الزمان لا يعرف سر خلق الانسان. إن رائحتنا الأولى هي رائحة البحر والهيولى. نقلت هذا العلم الى

عيسى بن هشام فقبله بلا استفهام. قلت إني معتزم ترك المقامات. قال إنه معتزم ترك أعتاب الخلفاء والعيش بكرامته. ورحت أترنم:

أنـــــا جوّالـــــة البـــــلاد وجوّابـــــة الأفـــــق

أنـــــا روزنامـــــة الزمـــــان وعمّـــــارة الطـــــرق

التحقت بالأعرابي فور أن أطلق النداء في القرن الثامن عشر .إنه يريد استعادة عهد الشيخين أبي بكر وعمر. قال إنه سمع الصيحة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ويريد أن يزرع الحرية في الصحراء. هززت قبضتي بوجه الريح وصعدت الأجواء السماوية مثل سفينة فضائية. كان الانكليز على الشاطىء وبيدهم منظار غاليليو. في سفنهم بواريد ومسدسات. إنهم ينظرون إليه. النجم الصاعد في فضاء ات الرمل. يريد أن يصير خليفة. الانكليز يحبون الخلفاء. منظار غاليليو يريهم نجما ونجمين وثلاثة. من مكمني في السماء الثالثة أراهم. يرسلون إلى كل نجم بارودة وصندوق ذخيرة.

بعد صلاة العشاء مرت ساعة تقاس بالدهر. ثلاث مرات صلى العشاء. وبعدها تقدم ولديه وعبيده وغلمانه. بأيديهم بواريد وفي جلابيبهم رصاص. تقدموا نحو قصر أخويه في ظاهر البلد.

أثبت فوهة بارودته في صدغي أخويه. وسمح للنار بالانفجار في الدماغين النائمين. إن عليه أن يشكر الخالق الذي جعل عشيرة الميجر فكس شاطرة في صنع المسدسات. فلولا بعض كتل صغيرة تناثرت من الدماغ لكان منظرا مؤثرا في كماله وسلامه.

كان ذلك اليوم خميسا. عند ظهيرة الجمعة كانت الصحراء شمعة. ولكن في سبيل الله يهون غليان الهواء. توافد الجميع إلى المسجد. تحلقوا حول الشيخ أبي يوسف. وقال فضيلته إنه يدعوهم إلى التفكير والتدبر في حكمة الخالق وعظمته. نظر إليهم وجها وجها. سألهم إن كان بينهم من يشرح لماذا شاء سبحانه وتعالى أن يجعل في الأرض خليفة. سألهم وعيناه

المتربصتان تطبقان على أفواههم. تهزهز أمام وراء أمام وراء. أمسك بالكتاب وقرأ: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون.﴾ صدق الله العلي العظيم.

سألهم: خليفة يعني إيه؟ وتهزهز أمام وراء أمام وراء.

خلايا الرمل تختلط في جسد الخليفة. إنه هناك. بيده كتاب الله، وبيده بارودة. بدأ بآل غنمان فأردى أكباد شيوخهم. مرة أخرى اكتشف أن القتل منظر بهيج في كماله وسلامه. أزّة صغيرة وتنتهي حياة. ياللبساطة الرائعة. وتابع بآل نويران. وآل رشيدان. وبكل آل. والمآل نفسه المآل. لم تخب أية من ساعات الصفر. صار آمنا. من الشرق الى الغرب. الرضا والرقاب ملك يديه , أي تاج أعز من تاجيه؟ بوسعه إطلاق الازّات عشرين عاماً آخر. دهراً.

ثم ضجر قلبه من هذا القتل النظيف. أسلحة الانكليز خالية من الشهوة. تقتل على الناشف. وهو يحب رؤية الأشلاء. يجب أن تنغمس يداه في قنوات الدم. يجب أن يضرب عنقا بسيف. ذلك مجد وبطولة. أواه ما أحلى الرجوع إلى القرن الثامن.

منذ الصباح أرسل رجاله إلى المضارب. هذه الصحراء واسعة واسعة. لذلك تكثر فيها الاحتمالات. كلما اتسعت الجغرافيا تفضفضت الحقيقة. يومئون بالقبول وهم يضمرون الغدر والغيلة. وكلمة لا تعني القبول مشروطا بالهدايا والهبات والمركز. الصحراء واللغة مخلوقان يضمران عكس ما يقولان. كثيب يسلمك إلى كثيب. وكلمة تسلمك إلى كلمة.

بوسعه هو البدوي الأمّيّ أن يفخر بإضافته كلمة جديدة إلى ملايين الكلمات التليدة: المطوّع. المطوع رجل الله. إذا أُذّن للصلاة يخرج هو الى الطرقات. المتلكئون عن دخول المساجد أعداء الله. بيده سيف مسلول. في صدره إيمان نابض. وهو يحب الرجوع إلى القرن العاشر.

دحرج رأسين أو ثلاثة هنا. دحرج رأسين أو ثلاثة هناك. بعض الأعناق كان رخصا طريا كالدراق. بلمسة حانية هوت مثل قطوف دانية. بعضها أوقف حركة السيف عند الرغامى فأعطى دروسا للنشامى. هناك رعب ماحق في رؤية رأس مقطوع. رعب ونشوة لا يوصفان. في رؤية جسد توازنت ساقاه ولم يعد يدري ماذا يفعل بعد أن انفصلت عنه رأسه المدبرة. في هذه الحالة كان المطوع يدفع الكتف برفق لأنه لو بقي لأخاف الأطفال. وهكذا صار الأعراب كلهم يؤدون الصلاة.

استمع الخليفة إلى التفاصيل واشتعل صدره رضا وحسدا. منذ أن أعطاه الميجر فكس هذه البواريد فاتته هذه الأغاريد.

قال الشيخ أبو يوسف إن العقل المنشغل بالعنف وسفك الدماء تفوته حالة اللطف في إدراك سر الأشياء. وقد قال تعالى في محكم كتابه العزيز: وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله. صدق الله العظيم. الخليفة ورعاياه يجب أن يجنحوا إلى السلم تقيدا بكتاب الله. لكي يعوا لماذا شاء الله أن يجعل في الأرض خليفة.

كنت أقيم في العقد العاشر من القرن العاشر: ذريرة متكئة على كتف نجمة صغيرة في السماء الرابعة. توغلت في الفضاءات الطليقة للسماء الرابعة. وفي سرحة من سرحات الجنان رأيت أمام عيني ذلك الطيف العاطر. امرأة من الألق حيث الليل والنهار منتفيان من هذا الفلك. وجهها هيولى تشع. ومع ذلك فهي بيّنة الملامح. رأتها عيناي ممتدة في الفضاء وأيضا مقتصرة على شكل امرأة من الأرض. وليس لجسمها طرف واضح. محجبة بخمار أسود شفاف مثل مليحة مسكين الدارمي التي خطرت بباب المسجد. قالت لا تحزن ولا تيأس. كل شيء في الكون جميل إلا الزمن في أرضكم فقد خلقه الله عليلا. ثم تفحصتني ملياً وبان استغراب طروب على وجهها. ألف ومئة عام عمرك ومع ذلك لم ينحن ظهرك ولا شاب شعرك. هذه الكيمياء ليست معروفة بين البشر. ومدت أناملها الضوئية فمسحت على وجهي وعثنوني.

كان دمي قدتجمد في قلبي. أنا في العادة لاألتقي بسكان السماء. لا أعلم أن فيها سكانا أصلا. اقتربت المرأة النورانية مني. قلت لنفسي جاءك الموت يا تارك الصلاة. هذه الجنية ستجيء بأجلي. اقتربت المرأة النورانية. وجهها يفيض حنانا. عيناها تردان عني وهج الشموس. جسدها يراودني عن فلكه. لؤلؤ ابتسامتها أنزل في قلبي بردا وسلاما. لبسني فيض جسمها من كل ناحية. لفلفني وأنا متمدد على بركة من غاز الهيليوم. كانت ترتدي كومبليزون شفافا موشى بالدانتيل متسامحا عند الزندين والظهر مفترّا حتى نجوم السرة والنهدين .أما شعرها الخافق وراءها كيلومترات فكان خمسين ضفيرة. أحاطني مئزرها كإطار ودثار. واستقر حوضها على حوضي. وبدأ بنانها يفك أزرار قميصي. هلعت وهرعت.

ظل رعبي أقوى من الشهوة التي التهبت في أحشائي. لم أكن أدري أن السماء الرابعة مسكونة. صار الرعب قرميدا في دمي. كياني كله تجمع في صدغيّ وعينيّ. وصرت بلا زمن.

قالت: شكرا لله أنك تمددت على هذا البساط النيوتروني فهو الوحيد القادر على نقل ترددات العضوية البشرية.

كيف نجوت؟ الله وحده هو العليم. أعرف فقط أني وجدت نفسي في جون من شواطيء سومر الجنوبية. وعلمت أني نجوت من الجنية وهبطت إلى الكرة الأرضية. وعندها فقط رحت أبكي. شهقت شهقت حتى صار صدري كالصيوان. ثم قصدت الشيخ أبا يوسف.

أخبرني فضيلته أنه قد كتب لي عمر جديد. أني أحسن حظا من خالقي بديع الزمان. قال إني نجوت بقدرة قادر من: اللمس واللبس والصرع والخرع والصدع وجميع حالات الجنون التي تصيب الجن بها أمة محمد. قال إني لو حملقت في الجنية لأصابني النظر بسهم من سهام الجنس الإبليسية. وهنأني على قوة ايماني. سألني في أي يوم حدث الحادث فقلت إنه الأربعاء. قال لكل يوم حرفه وإنه يريد أن يعالجني بعلوم الحرف القرآني. وإن شيطان يوم الأربعاء هو الملك برقان أحد ملوك الجن السفلى. قال إني مررت على

ماء غير طهور أو على نجاسة تتبخر أو على عظم ميت في الظلام. قلت إني كنت مضطجعا على غاز الهيليوم ثم على النيوترونات. قال أعوذ با لله من شر الشيطان الرجيم هذه غازات نجسة وإبليسية وعدوّة للإسلام .سوف تشكو من صداع وآلام مفاصل وقدمين. علاجك يكون بكتابة سورة التكوير وكذلك قل هو ا لله أحد ثلاث مرات في إناء صيني. ثم تمحى الكتابة بماء الورد والمسك والزعفران وحبة البركة. وتسقي منها أربعة أيام على الريق حتى نطرد الجن والنجاسة. وفي اليوم الثالث تبَخر بعد العشاء بالورد والحرمل. وتقرأ عليك آية الكرسي وسورة ياسين. لأن ياسين هي قلب القرآن الكريم وآية الكرسي طاردة الشيطان الرجيم.

تابعت علاجي بدقة حتى منّ ا لله عليّ بالعافية. وعلمت أثناءها أن جزيرة العرب قد قسمت أقساماً وسميت أسماء فقلت يا سبحان ا لله كم بقيت إذن في السماء الرابعة! كان الخلفاء قد اختلفوا على الحدود. لكن الميجر فكس وبّخهم في يوم مشهود. امتشق قلماً وفتق ورقة. رسم خطاً من البحر إلى الصحراء فإلى البحر. قال لتكن هذه نفيطية سين فكانت. وقال لتكن هذه نفيطية جيم فكانت. قال لتكن النفيطيات فكانت. ذلك هو الميجر فكس صانع الدول .

مضيت قدما نحو كائن اسمه الصحراء. له قوام وامتدادات. كائن مخاتل. أهم شيء فيه أنه مخاتل. تغويك تلاميح الخضرة. وترديك أسنان الأفاعي. مشيت بين البحر والجمر. رأيت أجسادا امتصت الشمس ماءها والرمل دماءها. صارت قفصا من العظام.

أنا لا أحب الفقراء. لا أحب عيشهم ولا عقلهم. وهذا أحد أسباب ابتعادي عن عيسى بن هشام المتعشق للأيتام. لولا العامة لتقدمت البشرية بسرعة أكبر. قارنوا بين عقل الخليفة المأمون وعقل العامة في عصره. لو تقدّمنا بموجب عقله لحللنا على سطح القمر قبل الأمريكيين. لكن المأمون خذلنا كلنا ومات. وبقي العامة أحياء. شدوا الدين والتاريخ إلى عقولهم

الضيقة. ربطوهما برحى تفكيرهم وتركوهما يدوران ويدوران. لم يتقدموا خطوة واحدة في ألف سنة .

يممت نحو قصر الخليفة. طرقت بابا ودخلت. وللتوّ هجمت عليّ الدبابير. اللبط والقفط والعفط والزقط. عشرة خصيان حسبتهم مئة. انهالوا عليّ بالعصيّ والقسيّ والأيدي والأسنان. جرجروني خارج القصر وظلوا يكرمونني حتى العصر.

لقد دخلت خطأ باب الحريم .

لم تثنني الغلطة عن مقابلة الخليفة. أنا أحب الخلفاء. أحب هارون الرشيد وعيشه الطليق. أحب لياليه الحمراء والبيضاء والخضراء والسوداء. فسقه ومجونه وتقواه وحروبه وخوفه وتسللاته الليلية. أحب تخلصه من سفاسف القيم وهلوسات المُثُل. أحب حريته .

رأيت الخليفة في الوسط من مجلس شبيه بحدوة حصان. أمامه وقف رجل أجرد مضمحل الحجوم والابعاد إلا من منكبين عريضين. وجاء شهود فأقسموا وأيديهم على الكتاب أن هذا الرجل تزوج قبل أربع سنوات غلاما في الرابعة عشرة. وبعدئذ نهض السياف. وبضربتين على العنق أردى الرجل الذي ظل مندهشا حتى سقط رأسه على الأرض .

لقد خلا إعدام الرجل من كل فن وابتكار. كان هناك إبداع أعظم يوم شاهدت كيف قطعوا جسد الحسين بن علي ثم جسد عبد ا لله بن الزبير أربعين قطعة. كل منهما كان قتيلا واحداً فصار أربعين. هذا دون أن نضيف رأسه إلى العدد. شاهدت كيف حمل الرأس إلى دمشق لكي لا تفوت الخليفة نشوة تأمل ذلك المنظر. وقد ظل السيف يهوي ويهوي، والجسد يصغر ويصغر حتى استغاث البراز في أمعائه. وأغمي على الحجاج من فرط الوجد .

الخليفة. أفق أبلق. أرض تركض. سيف يعلو. لم يكن هذا ليناسب مقامي العمرية. خرجت من جورة المشرق وغصت في مثاني الصحراء. هذه النجوم التي تتلألأ منذ مليار مليار عام. هذه الرمال التي انبثقت من

قبور الغابات. تعبت قدماي من الرمل. علوت فوقه قليلا ومشيت الهوينى. ثم هأنذا بين أيدي الخصيان الذين لحقوا بي أخيرا .

ربطوا يديّ وراء ظهري. وقيدوا قدمي بجنزير قصير. اختلفوا هل يحملني واحد فقط إلى ظهر البغل أم اثنان. تقدم رابع ورفعني ثم طرحني على ظهر البغل. نجوم السماء كلها صارت فوق ظهري. وكان البغل مرتفعا فلم يلامس أنفي أية دويبة أو زاحفة.

رموني في فِناء الدار. سمعت صوتا نسويا يقول ادخلوه. قلت الحمد لله أنه موت على أيدي النساء. حملتني اصبعان ورمتاني في بهو مغطى بالسجاد العجمي. سمعت وأنا مبطوح على بطني صوتا نسويا يقول هاتوا السياط واخرجوا فسدّوا منافذ القصر. تزايدت الأصوات النسوية. سقطت حزمة من السياط أمام عيني وانفلشت. خيزران وخشب ومعدن. برمت وجهي يسارا ورأيت حزمة ثانية. فرشت راحتيّ على إليتيّ متحسّبا .

مثل هذا لم يحدث حتى للسندباد البحري. امتدت يدان بمدية إلى الحبل وقدماتاه. تحررت يداي. مرت دقيقة أو أكثر. أنزلت يديّ ببطء. جلست. رأيتني في المركز من حدوة حصان شكّلتها عشر نساء. انقلب العالم في عيني. قلت جاءتك النعمة يا أبا الفتح فاعرف كيف تضاجع هذا القطيع من المهى والغزلان. أقرب النساء إليّ كانت حاملة المدية. فتاة قصيرة ساحرة العينين. عيناها والمدية لمعت في عتمة البهو فاقشعر بدني. قلت لنفسي جاءك الموت يا تارك الصلاة. تأملت الباقيات. عيونهن جميلة بلا استثناء. عيون المها. هؤلاء هن البدويات الرعابيب اللواتي وصفهن أبو الطيب وافتداهن بمهجته .

انحنت فتاة والتقطت سوطا ذا قبضة خيزرانية. وانحنت امرأة والتقطت سوطا معدني القبضة. كلهن التقطن سياطا. وجمدن. يردن إقامة طقوس لقتلي. جمد المكان. إلا تلك النظرة المتمعنة المترقبة. واحدة منهن في حوالي الثلاثين انسلت من الحدوة وأرتجت جميع أبواب الليوان. جعلت السياط تتهزهز بحركات خفيفة من أياديهن. كنّ لبوات حقيقيات.

لم أتوقع من تهديدهن المتربص أن يطلق بي هذا الحجم من الإثارة الجنسية. تلك السياط. انسدلت إلى جانب أفخاذهن وتهزهزت. مثل أفاعي غرزت ذيولها في الرمل وانتصبت على الأفق الأبلق. أزاحت الشهوة شيئا من خوفي فانتبهت إلى ملابسهن الشفافة الهفهافة. لاشيء يثير الشهوة مثل الجسد المتلامح المحجب. لحمه يدعوك وملابسه تستفزك .

لا أذكر الدهاليز التي مررت بها قبل أن توصلني النساء إلى الحمام. في كل عطفة كنّ يأمرنني أن أنضو عني قطعة من ثيابي .وواحدة منهن كانت تعلق القطعة على حامل في خشب الجدران. كنّ يلسعنني بالسوط فأمشي القهقرى. ومع آخر دفعة وجدت نفسي عاريا في الحمام .

الإنسان جملة من التضاريس في المخ والبدن. صحيح أن الشاة المذبوحة لا يضيرها السلخ مثلما قالت أم عبدا لله بن الزبير .لكن هذه النسوة كنّ عازمات على سلخي قبل ذبحي. وبالسياط أيضا. سوى أن ذكري كان الجزء الوحيد مني الذي لم يخف. انتصب وكأنه في حفلة إخصاب. وأعترف أني للوهلة الأولى غمرني الحياء وجعلت يدي ورقة تين. سمعت صليل ضحكاتهن. خجلت من حيائي. اطمأن قلبي. أبعدت يدي .

منذ تلك اللحظة وإلى أن أدخلوني مهجع النوم مر وقت مجهول لا علاقة له بالساعات السويسرية. الماء الحار والسياط الحارة والأظافر الخامشة والأصابع القارصة والصهيل المنغرز في جسدي. والصابون والليفة والمشط. انتعظت ووغفت معهن مرتين سوى أنهن لم يتركنني. كنّ قد تعرين بالكامل. ولبستني أجسادهن وأنا في اللحظات الطافرة. أحسست أني قد دخلت ذلك الدخول. النساء العشر صرن هنا جسدا واحداً وصرت أنا السوط الصلب. كم مرة تلاطمت أجسادنا وسقطنا، فعلا الماء من حولنا. كم مرة أحسست أن ذكري انقطع. كم مرة أيقنت أن أردافهن انفلقت. كم مرة غابت أسناني في النجود بعد أن غاب ذكري في المهود. عمي الانتباه. انفجرت الحدوس. امّحت الذكورة والأنوثة. بقي الشبق الوحشي. بقي أبو الفتح الإسكندري .

الوقت الذي انقضى كان مشبعا بروح الأبدية. أنا الذي أتجول بين الأمصار وأدخل أزمنة الأفلاك فلا أعرف الهلاك .. تطوّحت يومها بين الدقيقة والدقيقة على جسد عشيقة وعشيقة. ثلاثة كواكب فقط كانت مجرتنا: الحمام والمهجع وغرفة الطعام .

كيف تدبرن كلّ هذه الخلوة؟ ألم يطلبهن الخليفة إلى مخدعه؟

ثم جاء يوم وألبسني ثيابي في حالة ذعر وهياج. أعدن تقييدي وربط يديّ. وظهر الخصيان. جرجروني إلى الرمال. لو فقط أطعموني وجبة أخيرة. جرجروني حتى هزيع من الصحراء ورموني. ووقفت الشمس فوقي كفوهة من جهنم .

لم أعبأ بقيودي. كنت ضعيفا ولا قدرة لي على الحركة. ماذا ستفيدني الحرية وأنا ضعيف. انبطحت على غاز الرمل وأسلمت نفسي لرحمة الرحمن .

خرج زولان من الوهج وتجسدا أمامي. انحنيا فوقي وفكّا قيودي. جلست. فركت معصمي وكاحلي. شكرت الخصيين وصافحتهما كانا شمسين منيرتين سوداوين من زنجبار. أحدهما قدّم لي لفافة وأشار لي أن آكل. ثم وضع اصبعه على فمه المطبق ثم رسم إشارة نهدين على صدره ثم رسم إشارة السيف على الرقبة. أقسمت له أنني لن أفشي سر إنسانيته. فتحت اللفافة .

انزلقت الشمس عن فروة رأسي. وكذلك انزلق كل اكتراث لي بالعالم. أين أنت يا أميري يا عمر بن الخطاب؟ لماذا لا ألتقي بك في أي مكان من هذا الكون؟ إلى متى سأظل أطوف العالم بحثا عنك؟

رجعت من غيبوبتي وجلست. فراسخ تتلو فراسخ من العتمة والفضاء. حولي تداغل سديم من الأبخرة والنثاثات الغازية. شهقت فاندفع السديم داخل رئتي. أحسستني أخف وزنا بكثير. لفحتني نفحة أكسيجين. إنها إذن السماء الثالثة .

ثم نسمت عليّ تلك الكائنة. كيف شقّت طريقها إلى السماء الثالثة؟ وكيف عثرت عليّ؟ قالت أنت لم تغب عن نظري مترا واحدا. وأنا رفعتك من عفار الرمل إلى هذا الفلك لأجلو من عروقك نفاثات النساء الأنسيات. بلسمُك هذا السديم فلا تخف منه. استنشقه وسيصير في رئتيك هواء .

تنفست السديم فتكمْيأ في رئتي هواء. تنفست فصار السديم دبيبا في بدني ثم انتفضت فزال الضعف والوهن. قالت ارم ثيابك لأمسحك بهذه المسيحة فإني أخاف عليك نيازك المجرة الصهباء. ولم تنتظر. بلمسة واحدة منها انقلعت عني ثيابي وغارت .

هذه المرة لم أشعر بحاجتي إلى ورقة توت. انفلتت في السديم رهجة وزوبعة. وبانت الجنية بأكملها لناظري. كان لها أبعاد تقريبا. لم تكن عليها ملابس وكذلك لم تكن عارية. رأيت لها شكلا ومسافات. أما الحجم فلم أتيقن منه. الشكل أنسي بديع خال من الأخطاء والزيادات والنقص. أما المسافات والأبعاد فلا ثبات فيها ولا تحول. وما إن بدأت مسحها لي وهي في الحجم مثل حجمي حتى انفرشت واتسع قوامها بلمح البصر. وصار لي مثل حجمها ومثل ثباتها وتحولها. وفي لحظة اكتمال تشرنقها حولي لطم بها نيزك بحجم طور سينين وتشظى في الفضاء نتفا متناثرة غلساء.

انفصلنا. ضؤل حجمانا. وبرق في خاطري خوف مباغت فسألتها إن كانت جنية كافرة. قالت أشهد أن لا إله إلا الله وأنا الآن ... صرخت بها يجب أن تكملي الشهادتين وتقولي وأن محمدا رسول الله. ابتسمت بصبر وقالت أنا لست من جن الأرض ومحمد أرسل لكم أنتم العرب وليس لنا. صرخت بها حاذري من أن تكفري. قالت ليس في الكون كله خليقة تحتاج إلى رسل وأنبياء إلا أنتم البشر. نظرت إليها بارتياع وأعيا لساني القول. ثم تمتمتُ ولكن ﴿يسبح لله من في السماوات والأرض﴾ تعني أن السماوات فيها بشر مسلمون مؤمنون. قالت نعم لكننا مرتاحون من مشكلات الخير والشر التي عندكم وليس في حياتنا حاجة إلى الأنبياء. نبرت بسخرية: يعني أنتم لا تعرفون خاتم الأنبياء والمرسلين. قالت: حتى

بشر الأرض لا يعرفه منهم إلا الخمس فعندكم مليار صيني لم يأتهم أي نبي مع أنهم يستحقون اثنين أو ثلاثة ومثلهم من الهنود ومن الأمريكيين كلهم لا يعرفونه وأنا لاأعرف لماذا لم يرسل الله لهم أي نبي مع أنه أرسل للعرب واليهود خمسة وعشرين نبياً. يا لهذه الأجوبة! قلت بثقة سيعرفونه يوما ما إن شاء الله عندما يملك على المسلمين خليفة من تراث عمر بن الخطاب ويدخل جميع الصينيين والهنود والأمريكيين في دين الاسلام أفواجا وهؤلاء سيرسلون سفنا فضائية تنشر الاسلام بينكم. قالت مهما يكن فنحن مؤمنون بالفطرة وليس في حياتنا مشاكل تستدعي إرسال الرسل. نبرت بسخرية: وماذا في حياتكم إذن؟ قالت كما ترى: الحب والفرح والجمال والتواصل والسلام. نبرت بسخرية ولماذا ليس في حياتكم مشاكل الخير والشر؟ الخير والشر فطرة. قالت كلا الخير والشر ليسا فطرة ولكن سببهما أنكم محتاجون للمأكل و للملبس والمسكن. ألا ترى أنني بلا جهاز هضم وجهاز بول وألبس ملابس لأجل الجمال فقط؟

انفلتّ بعيدا عن الجنية مليون ميل فوجدتها مقابل عيني. قالت أنا الآن زوجتك فقد أحببتك و لم يبق إلا أن تكون زوجي. قلت أصير زوجك وأنا لا أعرف حتى اسمك؟

نظرت إلي بدهشة عاقلة وتمعن عميق. جعلتني أضطرب. قالت سامحني نسيت أنكم أنتم الأنسيين تعيشون تحت رحمة اللغة. أنا اسمي أُفْقْزاد. ضحكتُ. قالت شفت؟ أنت أعدت النظر في شخصيتي بمجرد سماعك اسمي. لكني أريدك أن تحبني وتصير زوجي. قلت قد أحترق بك ما دمت أنت نارا. قالت أنا لست ناراً أنا أمواج وأنت ستصير خالدا وتتحرر من عضويتك وضروراتها. قلت الخلود بيد الله وليس بيدك والله يعطيه يوم القيامة. قالت كلنا بيد الله ولكن يوم القيامة خاص بكم أنتم البشر والكون هذا لا تقوم قيامته فهو الأبدية ونحن هنا نعيش في جنة عرضها السماوات والأرض. قلت لكنه سبحانه وتعالى جعل الأنسان خليفة في الأرض. قالت نعم ليظهر للملائكة من خلال نقصكم الكمال والجمال في

مخلوقات الله الأخرى. أنتم وسيلة إيضاح فقط. وما إن تقوم قيامتكم حتى يخلص الكون من الخليقة الناقصة. يصير مثالياً.

في السماء الثالثة لا تحدث أحداث. وإنما تأتي حالات وتروح حالات. فبعد تحطم النيزك وحديثي مع أفقزاد وجدت بشريتي تتوهّج بالمسيحة. أحسست الثقل يخرج من بدني ويتبدد. طربت فرحا بخفتي الجديدة. رأيتني أسري في السديم وأفقزاد تنساب إلى جانبي في أبهى ألقها وسماويتها. قالت إذا اتخذت الكون وطنا لك فستخلص من أجهزتك العضوية التي لا لزوم لها خارج الكرة الأرضية. تأملت مفاتنها وهززت بدني قليلا فابتعدت ملايين الفراسخ. ووجدتها أمامي.

ليس في السماء جهات. ليس فيها شرق ولا غرب ولا فوق ولا تحت. وفي هذه الحالة من الحرية والنشوة خطر لي أن أمارس الحب مع أفقزاد. ولكن قبل أن يتسنى لي الوقت لأجد سبيلا لمقاربتها لبسني جسدها الجميل الصلب وتعمشق ذراعاها على ظهري وقحفي. قلت كيف عرفت برغبتي؟ قالت أنت الآن في حالة من الوحدانية فلا ظاهر عندك ولا باطن. وأقبلت علي وهي تغمغم بحنان أصواتا عذبة ولكن غير مفهومة.

غادرني التفكير في أسراري وسرائري. أتتني الحالة ودخلت طور الحب. برئ خاطري من مئة سؤال كنت هممت أن أفصّل لها ما يناسبها من اللغة. لبست أفقزاد ولبستني. دخلت فيها ودخلت فيّ .ليس بأي معنى مجازي. فحيثما لمستها توغلت أصابعي في قوامها. لم يكن في جسدينا مكان للوقوف أو الاصطدام. حيثما تلامسنا توغلنا بعضنا في بعض. تعانقنا فدخل الصدر في الصدر والأضلاع في الأضلاع فكأن عضويتي صارت تيارات لا أنسجة. تنفست رئتي أوكسيجين رئتيها واتصل الأبهران. قبلتها فصارت كلها فما وشفتين. كل شطر من الجسد دخل في حالة صار الجسد كله. وصار الجسد حالات تتلو حالات و لم يعد جسدا. خلال ما يستحيل تحققه على الأرض بأي زمن أضحت كلها ملمسا وكلها شفتين وكلها فرجا وكلها ردفين وكلها نهدين وكلها الدنيا. وكان لي أن أتلقى

هذا كله. أنا المخلوق ضمن أبعاد المتحرك ضمن أبعاد والمتحير حقا أين هو طرف العالم. لم يعد لنا شكل. لم تعد لنا أبعاد. كلما تعاظم الشبق اتسع الجسد. كلما علا الشبق تنوّرَن الجسد .امتد وانتشر وشف. صرنا مساحات والمساحات ماء والماء لطفا .

كانت متينة وبيضاء كجوزة هند. أحسست بلحمها الصلب السائل الباخر كما لم أحس بلحم نساء الخليفة وكما لم أحس بلحم النساء. ولكن لولا قوة الحب واندفاعة الشبق لأحبط عقلي الأرضي لقاءنا المستحيل. فقد رأيت بعيني عقلي أننا لنا في وقت واحد حالات الفيزياء الثلاث .

أخيراً فاض جسدانا من رأس جبل الشبق. ووقتها صرنا بأكملنا بياضا أنور لزجا. انسكبنا في تلافيف سديم السماء الثالثة وتشكلنا من جديد. هكذا كانت سعة لقائنا وعمقه. رأيتني مجرة ورأيت أفقزاد فلكا.

جاءني صوتها الحنون يغزل في الفضاء. رباه! وتعرف أني يستبيحني الصوت الحنون. التفت إليها باثنتين من نجومي لأقرأ في محياها سؤالا. ومن شريط ضوئي فيّ خرج نيزك متمهل فقال أنا الذي عشت ألف عام رافضا أن أكون أبا في عالم خلا من مولاي أمير المؤمنين تريدينني الآن أن أتزوج وأصير رب عائلة؟ هذه المرة جاءني صوتها من طرف الدرجة 259 يهتف يا مجنون عمر بن الخطاب في الجنة الآن وهو كاره أن يراكم. هات أولادا واتركهم. الأطفال في الفلك يولدون مكتملين لا يحتاجون إلى رضّاعة ولا إلى حفّاضة لأنهم لا يحتاجون إلى الأكل .ثم زجر صوتها وجاءني أمواجا أنت مستحيل كل هذه الحرية وتظل أرضيا تظل أسيرا لعقلية الضرورة.

من السديم تبلورت إلى جانبي مجرة. كان لها شفتان مصنوعتان من سبعة أنجم ويدان مصنوعتان من ألف نيزك ذي حالات ثلاث. فتحت النيزك دفترا. وسألني نجم أن أضع على الدفتر ذاكرتي وحنيني وديعة مصونة وأنطلق في رحاب الكون الخالد .

ألف نجمة ونجمة مني هتفت اسمعي يا أفقزاد. أنا يمكن أن أتخلى عن وزني النوعي وشكلي وأبعادي. في الحقيقة أنا سعيد جدا جدا لكوني لا

أبول ولا أتبرز ولا أحتاج للباس أو طعام أو مسكن. ولكن لا أقدر أن أتخلى عن ذكرياتي. ولا عن ملايين الناس الذين أعرفهم .أنا أنتظر استيقاظ شهريار من نومه لكي أعود وأستمع إلى قصص شهرزاد التي ستحكيها له. وأنا أزور هارون الرشيد وأحب صحبة الخلفاء. وأزور الخنساء وأقدم ولائي لفاطمة. وأحلم. أحلم. قالت شهرزاد أختي لكن شهريار ليس أخي.

كانت مجرتي قد تفككت ونجومها وأقمارها شردت في تلافيف السديم. نظرت إلى نفسي بذعر وصحت أفقزاد ماذا يجري لي؟ لم أر أحدا ولا شيئا. وجاءني من آفاق الفلك الثلاثمئة والستين هاتف يقول أنت صرت مجرة بقوة الحب ثم تفككت بقوة نقص البشر.

٣ - تحولات محمد عربي محمدين

بأم عيني زأيتُ جيوش إسرائيل تحاصر ثالث الحرمين الشريفين. التفتّ حولي واجف الفؤاد. يابلادي لماذا يحبك الغزاة كل هذا الحب؟ صممت أن أعدو المسافة بين مسجد عمر وحطين. هذه التلال والجبال والوديان والبساتين ... بشكل خاص هذه الشجرة التي صارت رمزا لسلام العالم ... يجب أن أحميها من النار .

لكنني في حطين لم أشاهد أحدا. تساءلت بين حجارة الخرائب: ألم يخلف صلاح الدين وراءه أحدا؟ فهب نسيم قوي في تلك اللحظة وبدد الصوت. عدت وهمهمت: أريد أن أخبره بغزوة صليبية عاشرة يقوم بها هذه المرة ... وعاد النسيم القوي وبدد الصوت. جلست كاسف البال . أين أيام صلاح الدين؟ من تحت الحجر خرجت سعلاة وزحفت بين قدمي. انتفضت واثبا في الجو وشهقت جزعا.

لحظة استقرت قدماي على الأرض، استدارت السعلاة نحوي بحركة رشيقة تشبه حركات عارضات الأزياء. كان لها ردفان جميلان. "ماذا جئت تفعل في هذه الخرائب؟" سألتني بلغة عربية فصيحة. حدقت إليها لأتأكد أن ما سمعته هو صوتها. وجدت وجهها ناطقا بما تفوهته شفتاها .

قلت: "جيوش إسرائيل تحاصر ثالث الحرمين الشريفين. جئت أخبر صلاح الدين .. وجماعته".

عندها رأيتني أتهزهز وأترنح تحت ضغط الأمواج الداهمة لقهقهة خرجت كالإعصار من عنق السعلاة الرخو المبقبق. وللحال جاءني كلامها المؤنب الصارم: "غباء أم جنون؟ أنت يا ولد في القرن العشرين، وصلاح الدين مات في القرن الثاني عشر! ألا تفيقون أنتم العرب من ماضيكم؟"

طأطأت واقتلعت حجراً. بكلتا يدي رميته على رأس السعلاة المغيظ المقزز. انسلت السعلاة بخفة وتلوّت بين النباتات. وفيما هي هاربة شتمتني شتيمة مريرة ودمدمت: "متوحش ! جربان ! ذات يوم ستصير ذئبا وكلبا وخنزيرا."

عدت واسترخيت بين الخرائب. من ورائي سمعتها تفح: "كأن صلاح الدين فجل أو خس، يظهر كل موسم. عشر مرات حاصرت جيوش الغزاة مسجد عمر؛ مرة واحدة ظهر صلاح الدين".

لا أدري كم طالت سهوتي. إنما أفقت على أصوات صاخبة لعسس وشرطة يأمرونني بإخلاء الطريق. تدحرجت جانبا لتلبية الأوامر. وأثناء تدحرجي هوى على عنقي وساعدي سوطان لسعا لحمي بنار سافعة .

قبعت في مكمن قصي. إن كان العسس ضربوني وأذلوني لأن صلاح الدين قادم فلا بأس. سمعت لهاثا قرب كاحلي. التفتّ ورأيت غلصمة تنتفخ وتنتفث، وفماً فاغراً. أدارت بؤبؤيها نحوي وقالت: "هذا موكب الحجاج بن يوسف. كل سنة يمر من هنا في طريقه إلى زيارة الحرمين الشريفين".

لم أطق النظر إلى السعلاة. هذه الطفولة يجب أن أتخلى عنها. صلاح الدين، قال !

قالت هي: "معك حق .." فالتفت إليها مستغربا. أضافت: "أنتم العرب جنس غريب. واحد يبحث عن عمر بن الخطاب. واحد يبحث عن صلاح الدين. واحد ينتظر المهدي. ولا أحد يفعل شيئا للمستقبل."

قرفت من غلصمتها. لكنها لم تكترث بأحاسيسي. تابعت كما لو أنها امرأة تناجي نفسها: "جعلته يعبر الأفلاك بسرعة الضوء ففضل علي صحبة الخليفة."

وبغتة خفقت بجناحين نبتا لها في التو واللحظة، ورفرفت إلى أن حاذت وجهي. لم أر سعلاة وإنما سديما له شكل غامض وقوام كالزبد. بدت لي حائرة ومترددة، تريد أن تسأل سؤالا لكن الحزن منعها. أدركت أني بإزاء مخلوقة خارقة للطبيعة، وأنها يمكن أن تصيبني بلوثة في عقلي. أطلقت ساقي للريح وطرت بين خرائب حطين.

طارت ورائي وصاحت: "لا تخف مني! نحن لا نعرف الشر! لا تخف مني ! أنا جئت من الأفلاك، واسمي أُفْقْزاد".

أيقنت أنها مجنونة بدرجة امتياز. إذ يستحيل أن يوجد في العالم مخلوق لا يعرف الشر.

عدوت من حطين إلى مسجد عمر فوجدته مطوقا بالأسلاك الشائكة. سياج يعلو سياجا. من الدب الأصغر إلى درب التبانة. ومن نجمة المساء إلى نجمة الصبح. يا بلادي، لماذا يحبك الغزاة كل هذا الحب؟ أردت الدخول إلى المسجد، فاشرأبت نتوآت الأسلاك وفحفحت: مستحيل! ومن أنا حتى أقاوم الأسلاك الشائكة؟

انتبهت إلى أن جسدي بدأ يضمحل. وراحت تجويفات عظامي تتضاءل وتنكمش. راقبت يدي وهي تقصر إلى النصف وتنحل إلى النصف. راقبت صدري، وكتفي وساقي. تفرجت على حالي.

صرت نقطة. لم أكن أكبر حجما من غريغور سامسا بطل كافكا الشهير. سوى أن رأسي بقي على حجمه الطبيعي. وأمكنني أن أتخيل،

وسط ذعري المتحجر، الوضع الجديد الذي آل إليه شكلي. كان كتف سترتي عند ركبتي، وبنطلوني متجمعا في عشر طيات على حذائي.

تجرجرت نحو الأسلاك. بسهولة تامة نفذت من إحدى فجواتها، لكن رأسي الضخم علق. لماذا لم يصغر هو الآخر؟ لدهشتي الكاملة اكتشفت أنني ما زلت محتفظا بكامل قوتي. امتلكني عزم انتحاري. شددت فانغرزت نتوءات الأسلاك في صدغي وحاجبي. شددت والنتوءات تنغرز وتشق فروة رأسي إلى أن صرت في الجانب الآخر.

آه يا رأسي، آه يا رأسي ! لماذا لم تصغر أنت أيضا؟

منذ ذلك الحين وأنا رهينة تحولاتي الجسدية. بعد أن طردنا اليهود من ثالث الحرمين الشريفين قادتنا الأقدام إلى مدينة كيف وهناك قالوا لنا: هذه خيام لكم، فصلين أو ثلاثة ريثما نسترد فلسطين. مرت الفصول. تمدد جسدي. تآلفنا مع شوارع المدينة.

عشت هناك ولكن تحت رحمة الحجارة. في هذه المدينة يحلو للناس أن يقذفوا رؤوس بعضهم بعضا بالحجارة. ينعش أكبادهم أن يشج حجر رأسا .إنهم يعشقون الجرح والألم. ثم يتفرجون على المصاب وكأن الجاني شخص آخر غيرهم .

خلاصة القول هي أن تحولي الجسدي عاد إلى الظهور. وقد اقترن حدوثه بتراث قذف الحجارة. حجرة واحدة تضرب رأسي كانت كفيلة بأن تجعلني أخسر نصف حجمي. وكنت أنظر حولي فأرى وجوها باسمة متعاطفة وأعينا بشيرة. وكنت بعدها أتدحرج على وجهي وفمي وعيني، شارقا الغبار والأوساخ والدمع والرعب، محتقن الدماغ بحنيني ولهفتي إلى ثالث الحرمين الشريفين .

في مدينة ماذا التي نقلونا إليها بعد سنوات، عشنا حالة مختلفة. ذلك أننا ساعة بلغنا مشارفها، تناهت إلى أسماعنا أصوات غريبة متداخلة. شيء مثل عزيف شيطاني متوغل في فحيح الرياح وتطوحات الغيم. وأخيرا عبارة: "إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها".

مدينة ماذا هي مدينة أعين متربصة متفحصة، تبحث عن شيء خفي غامض كي تظفر به وتقتنصه. عيون قلقة خائفة، أجفانها أمشاط رصاص. تلتقط صورا وترسلها إلى ذاكرة إلكترونية. وهناك في ذلك المعمل الضخم ذي الفروع التسعة داخل المدينة، كان تمحيض الصور يقرر حجم ولائي للسلطة.

لحظة شاهدت الحجاج لأول مرة أخذ يتكون شكل لكلب أصفر اللون متجرد اللحم. انبثقت ملامح الكلب وتقاطيعه بسرعة اقتراب موكب الحجاج. وكان هذه الكلب أنا. تماماً مثلما دعت علي أُقْقراد.

غاب الحجاج في منعطف الطريق. وقبعت خائفا على عظامي وعمودي الفقري. سكان مدينة ماذا يعشقون لبط الكلاب. ينتشون بتعفيرها وخاصة في مناسبة مرور المواكب. وسعيا وراء الحماية حشرت نفسي بين مجموعة من الكلاب ووقفت أتفرج على موكب الحجاج.

كانت مجهرات الصوت في مآذن المدينة ترسل تلاوات مستمرة من آي الذكر الحكيم. وكانت كاميرات التلفزيون ترافق الموكب المهيب، وأصوات المذيعين الشجية تتناوب في ابداع وصف بليغ للمناسبة الإيمانية العظيمة.

عندئذ تلاطم بي بحر من الغربة والضنى. أنا لم أعد إلى القرن الثامن كما اتهمتني تلك السعلاة ذات يوم. أنا فقط وجدت الحجاج بن يوسف أمامي. وحقا من جاء إلى من؟ القرن الثامن إلى القرن العشرين، أم العشرون إلى الثامن؟ وكيف تلتقي تحت سماء واحدة مجهرات الصوت ومنجنيق يضرب الكعبة؟ سال الدمع من خيشومي. رفعت قدمي بلا وعي، وحككت مكان الدمع فأدمتني مخالبي.

إنه لشيء فظيع أن يصير الانسان كلبا. كم كانت تلك السعلاة مغتاظة مني يوم دعت عليّ دعاءها الغريب ذاك. تصور أنك لا يمكن أن ترفع رأسك، إلا لكي تنبح. أنك مهرول أبدا وخيشوماك يشمشمان

الأرض، وأية قذارة يمكن أن تجتذبهما. أن موسم الحب عندك ثلاثة أشهر فقط.

على أنني أحسست براحة ربداء في كينونتي الكلبية الجديدة. وجدتني وقد شفيت من حالات نفسية لا يعيشها سوى بني الإنسان: من الغضب لأني بلا كبرياء، من القهر لأني بلا كرامة، من الحنين لأني بلا وطن، من الخيبة لأني بلا أمل، من القلق لأني بلا طموح، من الغيرة لأني بلا مشاعر.

أنا لا أفهم في البيولوجيا كثيرا ولم أقرأ داروين جيدا. إنما في أعماق أعماقي علمت أن هذا الوضع بالذات هو الذي استنفر طبيعتي البشرية. وهكذا فما إن أقبل موكب الحج عائدا حتى عرجت على أحد الزواريب، وتلفت حولي متوجسا من رؤية الناس لي. وإذ لم أجد أحداً رفعت ساقي الخلفية وأسندتها على الجدار، ورحت أتنعم بالبول. لقد كان في تلك اللحظة أن جاشت أعماقي بالاستنكار والغضب والعار، وانتفضت فزال الشكل الكلبي من بشريتي.

لأول مرة عرفت الجمال والفرح في أن يكون الإنسان ابنا لآدم. كم هو رائع على أديم هذه الأرض أن تكون ابنا لآدم، وليس للكلب. كم هو رائع أن تكون سيدا للطبيعة. لكن المناسبة كانت قصيرة العمر. لقد عنت عودتي إلى الشكل الآدمي عودتي إلى الخوف والتطير والقلق. ليس في مدينة ماذا ضمانة ضد أن يقرر الوالي أن رأسك قد أينع وحان قطافه.

تشارلز داروين لم يدرس تكاثر الطغاة وتسببه في تقزم البشر أو تحولهم إلى عضويات دنيا.

في مدينة كيف شممت تلك الرائحة. شممتها وتلفت حولي قرفا وضيقا. مزيج لزج من روائح الفساء والروث والدم الفاسد والنشادر. يستحيل على من خلق هذا العالم الجميل أن يخلق هذه الرائحة. كنت لائذا بالفرار من جنس الكلاب وسلالتهم. ورأيتني أنحني. تداخلت الأمور. هذا الانحناء ليس جزءا من الصلاة. والذين حولي لم ينحنوا

بعد، لأن الحجاج بن يوسف في الرتل الأول ما زال واقفا. وليس لأحد أن ينحني لله قبل الحجاج بن يوسف.

رأيتني أنحني. وراحت بدلتي تتوبّر وتسودّ، وتتحول إلى فرو غريب. وراح وجهي يسودّ. وجعلت أصابعي تكتسي وتغلظ. ثم تنفست بعمق وخرج من حلقي قباع. ورحت أنحني ـ ظهري ينحني، وذراعاي. انحنى الذين حولي، بالعدوى لا بالترتيب. مع أن الذين أمامنا لم ينحنوا. كنا ما نزال نتلو. لكنهم انحنوا. ربما رأوني أنحني فظنوا أني رأيت الحجاج ينحني فقالوا لأنفسهم: ما دام أن الحجاج انحنى فعلينا أن ننحني لأنه لا يجوز أن يعلو رأس أحد على رأس الحجاج. أو ربما لأمر ما في نفوسهم. وأحس الذين أمامنا بانحنائنا فانحنوا. وانحنى الجميع خلافا للقاعدة ولم يبق منتصبا لله غير الحجاج.

كنت قد أضحيت في حالة غياب عن نفسي والذين حولي. وأدركت، عندما بلغنا مرحلة السجود، والتصقت الجباه المؤمنة بالأصابع المفروشة على السجاد، أنني صرت خنزيرا.

لو اكتشفت العيون تخنزري، لكانت تلك اللحظة آخر حبة في مسبحة حياتي. خنزير في بيت من بيوت الله! وفي حضرة سيادة الوالي! لن يبقى مثقال ذرة من الشك في أنني مؤامرة أمريكية (فالأمريكيون يحبون الخنازير)، وأني سأعدم كمتآمر على الإسلام. ومن سيلوم الحجاج إذا أراد الاحتفاظ بعمامة أبقته حيا ثلاثة عشر قرنا؟

انسللت من بين الساجدين وهرعت إلى ركن مستتر. من مكمني الصغير رأيت الحجاج جالسا على كرسي في الإفريز العلوي من المسجد. لم يكن بين المصلين مثلما قيل لنا. راقبته وهو يراقبهم. لم يبد مهتما بصلاتهم. فعيناه امتلأتا بالوحشة والغرابة. لم يبد مؤتلفا معهم. شكل ملابسهم أثار ارتيابه. وارتفعت يداه بالعمامة فوضعتاها على جمجمته.

نظر إلى وجوه المصلين وكأنها الروزنامات. وهأنذا أراه بأم عيني: الأنياب تنبت من لحم وجهه، تخرج أربعة من كل وجه. الأسفلان منها يتقوسان علوا، والأعليان سفولا. ثمانية أنياب كانت كافية لتنعيج حشد كامل من المصلين. أطل عليهم. صرخ: "أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا / متى أضع العمامة تعرفوني." ووثب فوق المصلين ملوحاً بأنيابه نحو الوجوه المتشمعة المتصمغة.

انسللت من المسجد وأنا ما أزال مذعورا من تخنزري. قبعت في بيت مهجور نهبا للجوع والخوف والمذلة. وانتظرت حلول المساء لأعود إلى غرفتي. رفعت خطمي إلى السماء وناجيت الله ربي. غير أن اللغة العربية كانت قد فارقتني. لم أستطع النطق بكلمة واحدة. وعندها انفجرت الدموع من عيني. كيف سيعرف الله حالتي وأنا بلا لغة؟ لو لم يأخذوا مني ثالث الحرمين الشريفين لما وقعت في كل هذه البلايا. ليس إنسانا من لا وطن ولا لغة له. تحرق خطمي من الدمع. وعلا أنيني ونحيبي. ثم عدت أشم تلك الرائحة الفظيعة. رائحتي. رائحة النتن والتفسخ والعفونة. صرت قاب قوسين أو أدنى من اختناق مميت ... حتى رأيتني أنتفض من مكمني وأقف على قدمي إنسانامكتمل الآدمية مغسول الخدين بدموع هي دموع الفرح لا دموع الفجيعة.

آه! كم هو رائع أن يظل الإنسان إنسانا.

لن أستطرد. الصفحات التي خصصها المؤلف لي توشك أن تنتهي وأنا لم أكتب شيئا بعدعن إلهام البكري.

إلهام البكري كيف أنت الآن؟ كنا نأكل الملوخية معا وكأنها، كالعادة، وجبتنا الأخيرة، ثم ننطلق إلى الجامعة أو علبة ليل. وقد تحمل أحدنا الآخر مثل زوجين مسيحيين يخافان الله. فما الذي حدث؟

إنني لأذكر ذلك اليوم. كان بوسعك أن تقذفي الأطباق بوجهي ثم تختتمي المشهد ببصقة. وما كنت لأزعل منك. ففي تلك اللحظة

اقتربت الساعة وانشق القمر. كنا قد أمضينا أربعة أيام بلياليها ونحن نمارس الحب في مدينة متى. وعندما خرجنا إلى المطعم في اليوم الخامس، علمنا أننا قد صرنا لاجئين أجبرا إلى أجل غير مسمى. علمنا أن الفئة القليلة (اليهود) قد غلبت الفئة الكثيرة (العرب) بإذن الله واستولت نهائيا على ثالث الحرمين الشريفين.

لم تحركي ساكنا. وأنا لم أحرك ساكنا. أحنيت رأسك وأحنيت رأسي. وضعنا فوطتينا على ركبنا. وشممنا تلك الرائحة .تناولنا لقيمات، ثم !

سمعتك تناديني كأنني اختفيت. بلهفة وفزع وسخط. مع أنني كنت أمامك وبيننا الطاولة.

ناديتك وألحفت في النداء، وسألتك أين أنت، ولم تسمعيني.

وهتفنا كل بدوره: "أين أخذوك ووضعوا هذا الخنزير في كرسيك؟"

وبعدئذ توقفت كل علامة بشرية فينا.

التقينا في شقتي فيما بعد. لكن شيئا ما كان قد انكسر. لم تكوني عارفة بما جرى .كانت هناك فجوة في ذاكرتك. بدايتها لحظة الانكفاء على الطاولة، ونهايتها لحظة استرددت شكلك البشري. كان هناك صبية يلاحقون ولا شك الخنزير الذي صرته، يضربونك بالعصي والحجارة. وفجأة انصعقوا لانبثاق قامتك الجميلة السامقة من تلك الكتلة الرخوة الكريهة، فألقى الذعر بسيقانهم للريح.

أما أنا فكنت كسير الخاطر: كيف لم أع هذه المرة تحولي! كيف سأقنعك بعد الآن بآدميتي؟ وكيف سأقتنع بآدميتك؟ وكيف إذا جاءنا أولاد سيكونون أبناء لآدم وليس للخنازير؟

لذلك تركنا مدينة متى وقصدنا مدينة أين.

لن أكتب عن تحولاتي في مدينتي أين ومتى. فهي إما ستبعث الضجر وإما عدم التصديق. ونحن نعيش في عصر الوقائع القاسية. لن يصدق أحد كيف قبعت في بيتي أياما وأياما، منقطعا عن سائر البشر، منتظرا بطلان مفعول الكيمياء الرهيبة التي أنبتت أنياب الذئب في فمي، أو أرسلت حأحأة الضبع في حلقي.

اتفقت وإلهام أن نسافر إلى بريطانيا. "كانوا السبب في جعلنا لاجئين، والآن يحاولون التكفير عن بعض ذنبهم بإيوائنا. هؤلاء الانكليز."

يجب الاعتراف بأننا في تلك الغربة وجدنا وطنا. ليس لأن الانكليز اكترثوا لنا، بل لأنهم رتبوا الحياة في بلادهم بحيث تكون مريحة لمن يعيشها. تزوجنا. وانتسبنا إلى جامعة إدنبره. ووجدت عملا في B . B .C. كنت أهبط بالقطار من تلال اسكتلنده إلى لندن، أسجل برامج للإذاعة تكفي أسبوعا كاملا، وبينها واحدة من قصائدي (وكم سرني أن يدفع الانكليز ثمنا لها)، ثم أعود إلى إدنبره بخمسة وسبعين جنيها. عشنا سعداء. السعادة هي أن تعيش مع امرأة جميلة تحبك. وأن يكون معك ثمن قدحين من الجعة تشربانها معا في واحدة من حانات بريطانيا الساحرة. ويولد لك ولدان فلا تخاف على لقمتهما ومستقبلهما. وقد أتاحت بريطانيا لنا هذه السعادة. ولكن لأن هذه التفاصيل لن تهم مؤلفاً هدفه الرئيسي الكتابة عن تأثير النفط على حياة العرب، فلن أمضي بعيدا في وصف حياتنا البريطانية.

أهم شيء كان اختفاء تحولاتي؛ وبالطبع، اختفاء تحولات إلهام.

إلهام البكري التي لم تشاهد ثالث الحرمين الشريفين إلا في الصور، التي أمضت حياتها الأولى في مدينة لماذا، كانت بلسما لغربتي ومطهرا لروحي وجسدي. في إدنبره عشنا. خرجنا للمعاش نهارا، وارتدينا الليل لباسا. أعواماً وأعواماً، وكل شيء مفعم بنشوة الروح والخلايا.

كنا ننتهي من بريطانيا مع الغروب من كل يوم. وحتى لو خرجنا إلى سينما أو مسرح أو علبة ليل، فلم تكن بريطانيا لترافقنا. ثم نعود

إلى مهاد الحب، أتمدد إليها وتتمدد إلي. وفي غبشة الليل والشهوة، أغرّق وجهي في جيدها، وأمتص بشرتها البيضاء كأنها شفتان.

في تلك الليلة انفصلت إلهام البكري عني. كنا في كل مكان: على السرير وفي جوف العالم وعلى غيوم الشفق والسماء. رغم هذه الأمكنة كلها، انفصلت عني. انسحبت ومشت إلى الكنبة الأبعد في الصالون. هناك جلست وتلملمت، وأخذت تقضم أظافرها.

عرفت أنه يقظة لراسوب ما مختزن في نفسها. اقتربت منها محاولا أن أفهم. ازداد قضمها لأظافرها، وازداد التوتر الساكن في وجهها وجلستها. ولحظة وصلت إليها نفرت عن الكنبة كشرارة صوانية وارتمت على كنبة أخرى.

ماذا جرى يا إلهام البكري؟

هي لم يجر لها شيء. محمد عربي محمدين الذي هو أنا، هو من جرى له. هي لا تنكرالسعادة ولا الجمال في الحب الذي توأمنا منذ سنين. لكن الحب شيء وهذه الظواهر العضوية شيء.

أية ظواهر؟

تلك التي عانيناها في المدن. رائحة الخنازير، مثلا ...

رائحة الخنازير ونحن في بريطانيا العظمى؟

نعم. ومعها الفحيح والعواء والنباح ...

عواء ونباح ونحن في بريطانيا العظمى؟

"عربي، أنا سأجن. أنت الإنسان الذي أحبه. الشاعر الذي علمني الحب والحرية. أعني .. كيف يمكن .. أنا لا أصدق ! لماذا يحدث... هذا لك؟"

"إلهام، أنت متأكدة أن الرائحة رائحتي والأصوات ...؟ "

"والأنياب؟ هل أنا واهمة بشأن الأنياب؟ تعال شف هنا! في رقبتي. وهنا، في زندي. وهنا في حلمتي. شف الجرح. وهنا في سرتي. أنياب، عربي، أنياب !"

عدوت إلى المرآة. كشرت بأقصى ما استطعت عن أسناني. كانت طبيعية تماما. الأسنان نفسها التي ورثتها عن أبي وأمي.

التفتّ إلى إلهام وأنا في حالة وحشية من الغضب. بنظرة كالنار سألتها أين الأنياب. وبضراعة كالجرح أشارت هي إلى الثقوب في سائر أنحاء جسدها. ولم يكن قد بقي في عقلي متسع للرؤية ولا للفهم. رأيت الجروح ورأيت الشطبات والدم الخاثر. رأيت جسدا معتدى عليه بالناب والمخلب. وشممت رائحة الجسد أيضا. تلك الرائحة. أهي رائحتي التي أفرزها جسدي على جسدها، أم رائحتها هي؟

ربما لأن إلهام كانت على حق أصابني ذلك الجنون. رحت ألطمها براحتي يدي الاثنتين على وجهها المتوهج وكتفيها النضرين. ألطمها فتتداعى، فأحس أني على حق ؛ وتنهض هي من سقطتها فأحس انها تتحداني، وأعود إلى لطمها من جديد، فأحس أني على حق. تتداعى وتنهض. أتشفى وأحترق.

ذلك الاستعصاء فكك حبنا وأضناه. أمضينا أربع سنوات ونحن على هذا المنوال في اسكتلنده. حزت على الدكتوراه في اللغويات من بريطانيا العظمى، ولم أحز على اعتراف إلهام البكري ببشريتي.أينما حللت كنت مثار الرضا والإعجاب مثل مصطفى سعيد بطل موسم الهجرة إلى الشمال. قلت لأساتذتي إن الخليل بن أحمد ما يزال متقدما على ناحوم تشومسكي، فمنحوني التقدير والإكرام. وظلت إلهام البكري تمسك عن اعترافها بإنسانيتي. جاءنا ولدان صحيحان معافيان، ولم يجئنا حل لذلك الاستعصاء. أعطت بريطانيا المواطنية لي ولولديّ، ورفضتني إلهام البكري.

أخيرا افترقنا. لم يبق لنا إلا الذكريات والعنف، فافترقنا.

كان الفراق دويا وزلزلة. وكنت في حالة سوداء. قال لي د.منافط: "تعال إلى نفيطية، وأنا أضمن لك عقداً للعمل في جامعتها." قبلت.

سأكتب فيما بعد عما حدث لي هناك. الآن أريد أن أقول حقيقة بسيطة: لم أعبأ بالإنذار الرهيب الذي وجهته رواية غسان كنفاني إلى

سائر العرب. رأيت أن الطائرة التي امتطيتها إلى نفيطية شيء اخر غير ذلك الصهريج القاتل الذي لاقى فيه أبطال غسان ما تبقى لهم بعد نفيهم من ثالث الحرمين الشريفين: الموت وبلا كرامة.

٤ ـ ألف بترولية وليلة من شهرزاد

ألف ليلة وليلة وأنا أرتجل قصصي لكي أرتجل وجودي. شريان الفن احتفظ لي بشريان الحياة. ونجوت بعنقي من سيف شهريار. نجوت بشهريار من شهوة القتل وأسلمته إلى شهوة الحياة، ثم ارتدنا معاً عوالم الدهشة والحكايات.

لكن شهريار غرق في سبات عميق ونام سنين وسنين حتى قلت إنه لن يفيق. لم يكن موتا، وإنما نوم. سقطت بغداد تحت نعال التتار وانجرفت مئات آلاف كتبها في دجلة، وظل هو نائما. حل بالبلاد أرطغرل والطاعون والمجاعات والحروب والميجر فكس، وظل هو نائما.

أنا لم أنم. قصص كثيرة كانت تنبثق في ذهني كل يوم، ويجب أن أحكيها. يجب أن أظل يقظة لئلا تموت هي. لم يكن هناك من يسمع، وأنا لا أقبل بأقل من شهريار، لذلك رحت أحكي القصص لنفسي، وأنتظر.

أحببت خيمة الخطر التي عشت تحتها، وبروق التهديد التي لمعت من أسنانه كلما ابتسم. عرفت كم أن فن القصص يمكنه أن يجابه الموت. مع هارون الرشيد عرفنا حياة الناس وأسرارهم وفرحهم وترحهم. مع علاء الدين دخلنا عوالم وولت ديزني القديمة. مع السندباد البحري طفنا أقاليم العالم من جزر الكناري إلى واق الواق. ومع علي بابا عَلِم عِلْم اليقين أن لا خلاص للرجل إلا بالمرأة. عرفنا الحب، والفرح، والجمال، وصنع الحياة.

في هزيع الليلة الأولى بعد الألف نام، وظل نائما. في البداية لم أكترث. أنا أصلا لا أعرف متى ولدت. ولا أعرف كم هو عمري الآن. قد أكون ولدت ألف مرة ومرة، لكن الموت لم يقترب مني. ومع كل ولادة، كنت أراني أنصع جمالا وأبهى عقلا .

توقف هذا كله يوم نام شهريار. فأنا لاشيء بدونه. لأجله أعيش حياتي وأحكي حكاياتي. كل شيء جميل وسعيد متوقف عليه.هو أهلي وشعبي وعالمي.قال حكماء المملكة إنهم لا علم لهم بسر هذا النوع الغريب من النوم. إن أطول نوم بشريّ عرفوه لم يطل أكثر من أربع وعشرين ساعة. لكن النوم لحكمة ربانية قد يستغرق شهورا ودهورا. وتلوا قصة أهل الكهف.

وقال علماء المملكة إن حالة شهريار ظاهرة تحدث لأول مرة في تاريخ البشر. إنه مسكون بطائفة من الجن، وليس بجني واحد. وهؤلاء من أتباع مملكة السبات التي لا تسيطر عليها حروف القرآن. وقالوا إن شخصا ذا كرامات هو وحده من سيقدر على إيقاظه. شخصاً له حظوة لا مثيل لها عند ا لله .

بعد عشرين عاما تبين أن هذا الشخص لا وجود له في المملكة. وسمعت أن في كرمنشاه مزاراً يقصده المسكونون بالجن ويعودون منه أصحاء العقول والأبدان. حملت شهريار إلى كرمنشاه. لأول مرة أغادر مملكتي، مملكة الحب والحكايات والحياة، إلى مملكة الأضرحة. لأول مرة أعيش حكاية أكون أنا المسافرة فيها، وغيري من يحكيها. ولم أكن لأبالي لو أن الشخص ذا الكرامات ظهر. قصدت بخارى، وعبرت بلاد تركمنستان والهند والسند وواق الواق. أمضيت نصف قرن في شيراز، ومثله في كرّادة مريم. ولكن لا الإمام الرضا ولا السيد إدريس ظهرا لشهريار. أمضيت عقودا عند مرقد ابن عربي في دمشق الشام، وأكثرمنها عندمرقد الإمام الشافعي في القاهرة. كتبت للإمام الشافعي رسائل، كما يفعل إخوتي المصريون. وسألته أن يخبرني فقط لماذا نام شهريار وماذا حل به. طلبت إليه

أن يتوسط لي فورا عند النبي عليه الصلاة والسلام ويسأله شخصيا لماذا نام شهريار، وهل سيفيق، ومتى، وكيف، وأين وماذا أفعل بانتظار يقظته .

لا فائدة. لم يظهر الشخص ذو الكرامات، فكأن العالم الإسلامي قد خلا من أمثاله. حملت شهريار إلى الحرمين الشريفين. قلت إذا لم توقظه الكعبة ومرقد النبي فلن توقظه كرامة ولا شفاعة. أمضيت أيضا مئة عام أرتحل بين الحجاز ومصر والشام.

لم أعد أحكي حكايات، لكن صرت أسمعها. حكايات عن أناس غرباء حلّوا في هذا الوطن، مثلما كان السندباد يحل في أوطان أخرى. فيما مضى كنا نحن نخرج إليهم: من بغداد والشام ومصر والقيروان وطنجه ... والآن صاروا يأتون إلينا. سحرتني قصة لورنس العرب، وسحرتني شخصيته. كان عالم آثار ومحارباً وكاتباً وجاسوساً. كرهت الميجر فكس، الذي كرس نفسه للسياسة ونسي العشق والمغامرة والقصص.

علمت أن هناك بلاداً غير هذه البلاد، وناساً غير هؤلاء الناس. ظهروا فجأة ولم نكن نعرفهم من قبل. شاهدت أفلام سينما يصنعونها عن قصص الحب والمغامرة، فيها الصوت وفيها الصورة أيضاً .كنا نرى العشاق في حالات القبل والعناق. لقد مضت مئات السنين والحب في هذه الديار سجين. وقلت لنفسي: لو أن شهريار يستيقظ كي أصنع مثل هذه الفنون. فهذا عصر رغيد يأتي بحياة جديدة وفن جديد .

تفرجت على قصص يمثلها على المسرح أبو خليل القباني ونجيب الريحاني، وعلى نساء يرقصن شبه عاريات، فقلت إن هذا العصر الأجنبي قد أوصل إلينا حرية أكبر وعلماً أكبر وقصصاً جديدة. وقيل لي إن اسمه القرن العشرون. قرأت قصصاً مطبوعة بآلات سموها مطابع. وطلبت فترجمت لي قصص من لغات الغرب. ويا لدهشتي إذ وجدت كتاباً عن حكاياتي التي حكيتها لشهريار زوجي ومليكي وترجموه لي.

بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية بعام واحد، فتح شهريار عينيه، وحرك بؤبؤيه ذات اليمين ثم ذات اليسار. وما أن التقطت تلك النظرة

منهما حتى هاجت الأمواج في جسدي واندفعت التيارات، واضطربت حلمتاي. كم مئة عام مضت وجسدي يطلق أنفاسه في الفضاء فتضيع هباء؟ وضعت راحة يدي على حجري بحركة غريزية. وددت أن أرتمي على صدره وبين ذراعيه، فها هو ذا مليكي الذي سأبدأ معه ا ل ل ي ل ة ال ث ا ن ي ة ب ع د ا ل أ ل ف.

أوقفني المنظر المفاجيء: انفتحت عيناه وراحتا تنظران حوله. أما جسده فلم يتحرك. جرفني هاجس رهيب. لعل شهريار لم يعد شهريار. أية يقظة يا ترى هذه التي استيقظها بعد مئات السنين؟

مضى النهار وأقبل المساء. وأخذني النوم فغفوت على أريكتي. وعندما أفقت لم أجده على سريره. وجدته في مكتبتي. طار عقلي فرحا، وهاجت أمواج جسدي وارتعش فخذاي. من طرف عينيه نظر إلي. قال أيام أسبوعين وليلة فتجمعين هذه الكتب الغريبة الضالة؟ هرعت إليه بشوق وهتفت بل هذه خيرة الكتب يا مولاي جادت بها العقول والمخيلات من سائر الدور والدهور، وخيرة هذه الخيرة، انظر انظر! الكتاب الذي جمعه الناس وطبعوه بأحرف في مطابع لم تكن معروفة لنا، من وحي القصص التي حكيتها لك وسموه الليالي العربية، ويحتفي به العالم أجمع من واق الواق إلى استوكهولم إلى مكتبة الكونغرس الأمريكي.

اغتنمت فرصة إنصاته الصامت المستريب فأضفت أن كتابي صار سيد الكتب باستثناء كتب السماء، وعلاء الدين صار فيلما سينمائيا وعلي جناح التبريزي صار مسرحيةوالسندباد صار إلهاما للقرن العشرين كله، وأنا سأحكي لك قصصا وأحكي حتى القرن الحادي والعشرين. قلت يا مولاي سبقتنا حكاياتنا إلى القرن العشرين فحلنا نسرع إليه لكي لا يفوتنا منه أكثر مما فاتنا.

جلس على أريكة للكتابة وأشارت لي إصبعه بالجلوس. تفحصت عيناه الأريكة واستحسنتاها. ثم تفحصتاني بارتياب. ابتسمت بغنج وتمتمت الآن ستفرح بعودتك سالما من ملكوت السبات. رمقني بنظرة

ضيق وقال اخبريني من هو الخليفة القائم على شؤون المسلمين الآن فأنا أريد أن أصير خليفة وشغلة ملك الزمان هذه لا تبهجني ولا ترضي طموحي فأنا أريد أن أصير ملك المكان أيضا.

وما هو طموح مولاي فأنا أريد مشاركته في شؤونه وشجونه مثلما فعلت قبل سباته الطويل.

وصرخ بي سبات سبات أنا لم أكن نائما يا شهرزاد لم أكن نائما.

قلت بحقي عليك وحق العشرة ألا أخبرتني أين أمضيت هذه المئات من السنين قبل أن تعود إلينا في أواسط القرن العشرين.

فاستشاط غضبا وصاح تقولين مئات السنين أنت مجنونة يا امرأة كيف ينام ابن آدم مئات السنين وهو لا يعيش مئة أنا غبت ستة عشر يوما فلماذا تريدين إيهامي بمئات السنين وما هو قرنك العشرون هذا هل يعني أن الأزواج المخدوعين صارت تطلع في رؤوسهم عشرون قرنا؟

قلت هدّيء من روعك يا مولاي ستة عشر يوما سنة قرن لاشيء يستحق ضيقك ونحن بالأساس لم نخلق في زمن معين ولا لزمن معين فنحن خلقنا لكل زمان والذين مثلنا لا يموتون وبنظرة واحدة منك إلي سترى أني خلال مئات السنين لم تشب شعرة واحدة في مفرقي ولم تنحن قامتي مليمترا واحداً.

عندها صرخ بي صرخته المعروفة وصاح أيتها الفاجرة الماكرة أقول لك ستة عشر يوما فتقولين ستمئة سنة وتقولين مليمترا ما هذه مليمترا ومن علمك هذه الكلمة؟

قلت نعم يا مولاي هذه هي الحقيقة فأنت نمت في نهاية عهد بني العباس وأفقت في عهد النفط والحمد لله أنك لم تعش عهد بني أرطغرل ولا عهد المبجر فكس.

كاد عني أن أخفي قلقي واضطرابي وجزعي. هل عاد إلي الموت.. لا سيفا مسلولا بيد شهريار وإنما عقلا مغلولا في رأسه؟ إن لغة كاملة

تقف نغابهـا بيننـا. لا هـو يعـرف الزمـان الـذي نحـن فيـه ولا المكـان ولا الملمترات .

تأملني شهريار بلا غضب فأرسل رعدة في أوصالي. النظرة نفسـها الـتي سـربلني بهـا يـوم وافـق أن يؤجـل ضـرب عنقـي يومـا واحـداً ليسـمع بقيـة حكايتي. نظرة كلها حياة وعزم ووعد. ثم أطرق جانبا وهمهـم فلتعـرفي يـا امرأة أنني خلال غيـابي هبطـت إلى جـوف الأرض بصحبـة نفـر مؤمـن مـن عفاريت الجن وهناك رأيت كتابا أنزله الله في جوف هـذه الرمـال ورأيـت أمواجه السود تتلاطم وتميد لأنه بحار تتصل ببحـار وبريقهـا يشـع فيخطـف الأبصار ورأيت النور يسطع من وجوه إخواني العفاريتوقرأت فيها أن هـذا الـدا ... أمة الإسلام من دياجير الظلام. وسمعت المنادي ينادي انهض يا شهريار إن أمتك تعيش بانتظار أن تنشيء حضارة بالبترودولار. فافهمي خطورة هذا الخلق يا امرأة ولتعرفي أن أمة المسلمين لن يغلبهـا غـالب بـإذن الله وتاريخها كله فيه حادثان مهمان هما نزول الرسالة من السـماء وصعـود النفط من الصحراء. ولكن لازم أن أصير أنا خليفة عليها .

لم يعد صبري يحملني. حكيت له كيف اكتشف الميجر فكس ورجاله النفط وأقاموا عليه تجارة كبـيرة وسياسـة كبـيرة وأشـياء وأشـياء كبـيرة. قلت ما لنا يا مولاي وللنفط فرائحته كريهة ومنظره أكره ومشـاكله أكـره وأكره فدعنـا نعيـش مـن جديـد حياتنـا خـارج السياسـة ونعيـش فرحهـا وقصصها ورحلاتها وبشرها فهذا الزمان هو الحب والحرية والسفر ...

فانتفض عن أريكته وصاح من هو الميجر فكس هـذا ورجالـه هـؤلاء بينما الحروب الصليبية انتهت وكيـف دخلـوا بـلاد المسـلمين تعنـين أنهـم أخذوا نفطنا وتركونا بلّوشي فوالله لن أسمح لهم بقطرة واحدة وغدا أعلن نفسي خليفة ولكن لم تخبريني من هو الخليفة في هذه الأيام.

قلت أي خليفة تقصد يا مولاي فصاح أنت ما عدت تفهمـين اللغـة العربيـة أقصـد الخليفـة الخليفـة المقيـم في بغـداد الـذي يحمـي الحـرم الثلاثـة

الشريفة ويحكم بلاد المسلمين ويسيّر جيوشها لكأن عقلـك صـدىء ومـا عدت تفهمين. وهل هناك أكثر من خليفة؟

هويت على أريكة صغيرة وجعلت أبكي. ماذا أفعل؟ وكيف؟ وأين أبدأ؟ومتى؟ رباه: لمـاذا!لـو ركـب شـهريار حصانـه وخـرج بـه فكيـف سينجو من سيول السيارات؟ ولو أخذه النـاس إلى محطـات البنزين فمـاذا سيفعل؟ لو جرّد سيفه على طريقته الجامحة في تحقيق خواطره الملكية الرفيعة واعتقلته الشرطة وحكم عليه الخليفة بضرب عنقه فكيف سينجو؟

خمسة نهارات وخمس ليال ونحن على هذا المنوال. تلفت أعصابنـا في حمى السياسـة والتسـاؤلات. كـل مـا لـدي مـن فنـون السـرد والحـوار وضروب الخيال والأفكار بالكاد نجح في زحزحة عقلـه عـن الليـل الـذي وضع فيه رأسه على الوسادة ونام.

أخيرا انتضى سيفه وهجم علي صارخاكان لازمـا أن أضـرب عنقـك منـذ الليلـة الأولى أيتهـا الحربـاء المراوغـة أخـاطبك في همـوم المسـلمين وعيشهم ومستقبل أطفالهم وفي كرامتهم وتقدمهـم بـين الأمـم فتقولـين لي اترك السياسـة ! أنـت لا يهمـك إلا حكايـات الحـب والدعـارة؟ والتقـط زندي فهصره بين أصابعه وحمحم بين أسنانه ستة أيام وأنـا لا آخـذ منـك لا حقا ولا باطلا ألا فقولي للتو والساعة من هـو اليـوم الخليفـة علـى بـلاد المسلمين الذي بيده نواعير النفط وموانىء بحاره .

أطلق الفزع الكلمات مـن فمـي فصحـت يـا مـولاي إنهـم تسـعة أو عشرة خلفاء وربما خمسة عشـر فبـلاد المسـلمين كلهـا نفـط والحمـد لله وكلها خلفاء والحمـد لله يـا مـولاي والخلفـاء مـلأوا البلـدان مـن مشـرق الأرض إلى مغربها .

تراخت أصابعه عن زنـدي بتأثير الدهشـة وصعوبـة التصديـق. ومـع سـريان الـدم إلى الأمـاكن الـتي حصرتهـا أصابعـه سـرت في بدنـي شـهوة مرتعشـة مزبدة. وأوشـكت أن أغمـض عيـني تلهفـا لأن يضمـني أخـيراً إلى صدره ويحضنني ولكن خفت أن يكـون ذلـك ضـد السياسـة. سـوى أنـه

تفرس في وجهي وقال لا يبدو من عينيك أنك تلفقين الأخبار إنما أنا غير قادر على التصديق فقدكانوا يقتلون كل يوم خليفة ويجيئون بغيره ولكن ليس بخليفتين في وقت واحد وبقيت أمة الإسلام أمةواحدة مثلما نص عليه القرآن الكريم فماذا هذا وكيف حدث ومتى ولماذا وأين؟

قلت أنا لا أفهم في السياسة يا مولاي وإنما في الحب وحكاياته وأنا مندهشة من اهتمامك بالسياسة وهي ما نعرفه من الأمر المضجر فنحن قد عشنا في رحاب الجمال والخيال والحب والسفر والجزر الغريبة البعيدة وعشنا حياة الناس وشعرنا بمشاعرهم وعبرنا بهم برزخ الموت إلى تلك الحياة الرغيدة وتضمني إلى صدرك آخر ...

انقبضت أصابعه على زندي مجددا فسكت. بصوت بارد ثقيل همهم من رأى منكم منكرا فليقوّمه بيده يا امرأة هكذا أنتن جنس حواء أدعوك إلى المعروف وأنهاك عن المنكر فتدعينني إلى الفراش والمباذل أتكلم في الجهاد المقدس فتتكلمين في فنون القصة وأنا واجبي أن أطيح بهؤلاء الخلفاء الجبناء السخفاء واحداً واحدا وألمّ شمل بلاد المسلمين وأؤسس بيتا لبيت المال المتحصل من ريوع النفط. هيا اخبريني هل أخرج خلفاؤك الكثيرون الصليبيين من ثالث الحرمين الشريفين؟

غامت الدنيا في جبيني. أحسست أن قصصي لم يعد لها مكان في عقل شهريار. صرخت هؤلاء ليسوا خلفائي يا مولاي وأنا لا أحب السياسة ولا أفهم فيها وأنت تعرف. لكنه هصر ساعدي بكلاّبات يده ودمدم بل أنت تعرفين كل شيء فأبوك وزيري وأنا أعلمأنه جعلك تقرأين الكتب والتواريخ وسير الملوك وأخبار الأمم وأنك قبل نومي كنت جمعت ألف كتاب. والآن هيا بلا لف ولا دوران وإلا والله لأضربنّ عنقك أو تجيبيني هل أخرج خلفاؤك الكثيرون الصليبيين من ثالث الحرمين الشريفين؟

مرة آخرى وقفت بيننا اللغةوالزمان. وأيضا البشر. هل أحدثه عن الصليبيين حرفيا أم مجازيا؟ عن رتشرد قلب الأسد أم عن الميجر فكس وبن غوريون؟

أجبته فورا وباختصار. كل سؤال واستفسار أجبت عنه. إلى أن جلس أخيرا على الأريكة بخذلان مطبق وأوكأ جبينه على رسغه.

صمت أمدا حتى خفت أن يكون السبات قد عاوده فوضعت أطراف أصابعي على منكبيه وأسند هو رأسه على حجري وغمغم مجهش الصوت كلما ظننت أني استوعبت ما جرى أوصلتني إلى هذا الشيطان الذي اسمه فوكس فكيف تكون بحار النفط التي سبحت على أمواجها مع إخواني العفاريت في أرضنا تحت سيطرة رجل غريب لا هو بالعربي ولا بالمسلم؟

تشجعت وقلت ولكننا نحن اعتدنا على ذلك يا مولاي ونراه طبيعيا فلا العرب ولا المسلون يعرفون شيئا عن علوم النفط ثم أنك أنت نفسك لست عربيا. فرفع رأسه إلى الخلف ونظر إلي بدهشة هادئة وقال لأول مرة لا أراك ذكية كعهدي بك فأنا لست عربيا بالدم ولكني عربي بالقرآن واللسان والتاريخ والعلم وهذا أهمفاخبريني أحق ما تقولين أنه بقلم رصاص وورقة رسم ميجر فكس هذا أمصارا ودولا وشعوبا ووضع على كل منها خليفة يأتمر بأمره؟

قلت إنه حق فقال وماذا عن الناس فقلت إنهم يأتمرون بعصا الخليفة. أطرق من جديد وهز رأسه ببطء وقال الظاهر أني فعلا نمت ليالي من نوع ليلة القدر كل منها بألف شهر. فتشجعت وقلت وأنت في هذا الزمان لن تقدر أن تكون خليفة ولا ملكا يا مولاي. فنظر إلي نظرة حزن هادىء غير مندهش. تمتم بخفوت إنني فعلا أفقت في هذا الذي تسمينه القرن العشرين وهذا يزيد من تصميمي على خلاص النفط مع أني لا أحب كلمة القرن هذه.

*   *   *

في حانوت لبيع الكنادر الإيطالية في مجمع الصالحين أدركني أخيرا ووقف ورائي تماما بحيث يستحيل أن أتحرك دون أن ألطم به. همس قرب أذني صباح الخير فلم أرد تحيته. همس من جديد أنا سعيد هل نسيتني؟ تناولت كندرة بيضاء منقطة باللكي وهممت نحو البائعة فهمهم اسمعي إذا اتيت بحركة واحدة عملت لك فضيحة. مشيت خطوة إلى اليمين ووقفت. مشى خطوة وقال ثلاثة أشهر ونحن سمن على عسل فما الذي أبعدك عني؟ مشيت خطوتين أخريين ولحق بي. قال إذا مشيت خطوة ثالثة صرخت انك سرقت مالي بعد أن نمت معي وحكيت لهم عن الشطبات التي في فخذيك بسبب الحمل والولادة. جمد الدم في عروقي. اجتاحتني ذكريات الشبق الأولى معه وذكريات القرف الأخيرة ورأيتني منهوبة وضائعة. قلت إن زوجي هو شهريار أمير المطوعين والبصاصين وهو يراقبني بالثانية. قال أعرف ولكنك مع ذلك كنت حبيبتي ثلاثة أشهر فاعطيني موعدا تجيئين إلى بيتي أنا مشتاق لك. قلت زوجي يرى صورتك في هذه اللحظة. قال لا أقبل حججا أريد موعدا وإياك أن تتلفظي بكلمة واحدة غير الموعد. قلت اصبر إلى أن يسافر وأنا مشتاقة لك. همس بعصبية أنت تكذبين اسبقيني إلى مطعم ألفاروميو في الدور العاشر واحجزي الغرفة رقم ٦. قلت إذا أدرت ظهرك وجدت مطوعا في الرواق ينتظر خروجي. اسمع لأقول لك يوم نمت معك كنت أمر في ظروف ولو لم تكن أنت لكان غيرك. الآن تغيرت الظروف أرجوك افهم. سأتصل بك من عند أختي دنيازاد وأشرح لك. اتركني الآن حديثنا صار محرجا. وبجرأة ظننتها لامرأة غيري مشيت نحو البائعة وتركته عالقا في ضرام روحه.

*   *   *

شهور وأيام مضت وأدركت أن هارون الرشيد والسندباد وعلاء الدين وعلي بابا وكل أشقائي الروحيين قد غابوا عن ذاكرة شهريار. كل

الذين كانوا أولادي بدل أولادي، وشغف هو بهم، الذين تخطوا عتبات الزمن وصاروا رموزاً للجمال والمغامرة، صاروا الآن فراغاً أصهب في مخيلته. أما قصصي وحكاياتي في الليالي العربية فصارت ينبوع خوف له. فرق كبير بين أن تكون تحت الزمان وأن تكون فوقه. في الأشهر الأولى جئت له بخرائط البلدان وعلمته الأسماء كلها. أدخلته عالم السيارة والتلفزيون والهاتف والسينما والصحافة. وتلقف هو هذا العالم كطفل فاجأته أمه بألعاب كثيرة. وأخيرا هتف: هذا التلفزيون احسن بألف مرة من قصصك وحكاياتك. وهتف: بجهاز ليس أكبر من شاة أستطيع أن أكشف كل من تخون زوجها في هذه المدينة.

تلك كانت صدمتي الأولى. أي شهريار عاد إلي يا ترى؟ الذي كان يقتل كل صباح عروسا إيمانا منه بأن المرأة مفطورة على الخيانة؟ أم الذي أبقى على حياتي وسمع قصصي وانتظرته لأدخل معه رحاب القرن العشرين؟

التقى الخليفة. مكث في ضيافته ثلاثة أيام، على الطريقة البدوية. وعاد إلي مبهورا. لقد أكرمه الخليفة إكرام الملوك. وعرّفه بالسيد لنرد فكس، الذي عرفه بالتكنولوجيا وكيف يتم استخدامها لخدمة الشعب. في نهاية اليوم الثالث اكتمل كل شيء. قبل شهريار تعيينه أميرا للبصاصين والمطوعين، وتربع على عرش من الأجهزة التي تدار له بأزرار الكهرباء.

سحرت الأجهزة شهريار. جعلته، ليس أميرا على بشر نسميهم المطوعين بل أميرا على ما يشبه العفاريت والجن الذين كنت أحكي له حكاياتهم والذين عاش معهم فترة سباته. وكلما فات يوم تحسنت الأجهزة فتحسنت روحه. إلى أن رأى نفسه ملكا من جديد.

لكنه عاد إلي كل مساء ووجهه ينضح ريبة. لم نجلس معا في زماننا ومكاننا القديمين. ولم نختتم فنون الحكايات بفنون الحب. ولم يعطر علي برجولته وسعته ولذات عناقه. كان منصرفا تماما إلى إعادة تأثيث الفيلا بأجهزة التكنولوجيا الغربية. وبعدها جعل يجوس في أرجائها منتضيا سيفه.

سألته فقال بلوعة: كل نساء المدينة يخنّ أزواجهن ! وأدركتِ أنه عاد من نومته بكابوس عتيق .

و في آخر المطاف كان يختتم جولته في المضافة. يدخـل ويغلقهـا دون غيره. ويمكث هناك إلى أن أغفو انتظارا لأوبته .

أنـا شـهرزاد الـتي تعـرف القصـص ومداخلهـا ومخارجهـا، والعقـول والقلوب وانعطافاتها ومعارجها، أعجزني سر مكوثـه الغريـب في المضافـة. وشهرا بعد شـهر تعـارم الفضـول في عقلـي وتراكـم، وطغـى علـى الحكمـة والتهذيب. جلست في مقصورتي ذات ليل أمام تلفزيون وصلته خلسة بـآخر ضخـم في جنـاح شـهريار. ضغطـت علـى زر وبعـد ثـوان ضـاءت الشاشـة بصورة المضافة . ولكن أية صـورة ! المسـاند والطراريـح خاويـة تمامـا. ليـس عليها جسد ولا كتلة، إلا شهريار نفسـه. وقـد التفـت رأسـه يمـين يسـار. توقف في هذا الاتجاه أو ذاك. ونطق فمه هنا ونطـق هنـاك، كأنـه في مجلـس للشورى .

ضغطت على زر الصوت فتدفق علي حشد مـن اللغـط والعبـارات . وقف شعر رأسي واقشعر بدني. الأصوات الشجية المتطاحنـةتهتف مطالبـة شهريار بالشورى وببيت مالٍ للمسلمين. وتقول له إن الفتنـة سـتفيق بـين العرب وسيغزو بعضهم بعضاً إذا لم يتـم توزيـع عـادل للبـترودولار. لكـن شهريار ظل رابط الجأش. تكلم كثيرا هو الآخر لكني لم أفهم منه شيئا.

فجأة ساد هرج ومرج، واندفعت في الشاشة بروق، ثم بقع سـوداء منفجرة، ثم تفككت صورة شهريار وسقطت وهو ينهض عن مسـتراحه فصارت أشبه بالموزاييك أو الفريسكو، وأخيرا عادت الصورة ولكـن بـلا صوت ولا أحد. وعلمت أن الجلسة انفضّت .

جلسة! جلسة مع من؟ مع نفسـه أم مـع الأرواح؟ لم أضـع وقتـا في الأسـئلة. ضغطـت الـزر وخرجـت مـن مقصورتـي إلى دار العيـش. هنـاك التقيـت شـهريار .كـان كئيبـا وبـائرا. سـألني أيـن كنـت وعينـاه تتحريـان

وجهي وجسدي. كنت أقطر فضولا لمعرفة سـر جلسـته الغريبـة. وجعلـه فضولي ينظر إلي لا بعيني اتهام و وإنما بعيني إدانة منجزة .

قلت يا مولاي عام كامل مضى الآن وأنت لم تلثم حتى خدي. فنظر إلي النظرة نفسها التي سربلني بها يوم وافقأن يؤجل ضرب عنقي إلى الليلـة الثانية. نظرة كلها حياة وشهوة ووعد. أحسست أن ترسبات السـنين الـتي هجعت في جسدي كالصدأ والكبريت قد بدأت تذوب وتنتح إلى الخارج. وأخذ جسدي يبث أمواجاً ويلهف لالتقاط أمواج.

خجلت من شوقي إلى شـهريار. أشـحت بوجهـي إلى مكـان آخـر. مشى شهريار وواجهني. أطلّ علي وقـال سـألت الخليفـة مـا سـبب تـردي أحوال المسلمين والعرب فأجابني السبب هو الأخلاق. قال ألم تسمع قول الشاعر وإنما الأخلاق ما بقيت فـإن هـم ذهبـت أخلاقهـم ذهبـوا. سـألت إخواني العفاريت فأجابوني اعمل بيتاً لمال المسلمين تعمل بيتـاً لأخلاقهـم وتوحد قلوبهم .

وجلس على الأرض مصالبا قدميه ناسيا جلاله وقدره ومسلما نفسه للاضطراب والبلبال. قلب راحة يده في الهواء وغمغم: أنا أودعت أموالي كلها في بيت التمويل الإسلامي لكـن إخوانـي العفـاريت اسـتهزأوا ببيـت التمويل وقالوا ليس إسلاميا. قلت هذا بيت يعتمد مبدأ المرابحـة ولا يقبـل الربا أبدا فقالوا عندما يدفع المسلم 15% في المرابحـة و٥٪ في الربـا فـالحرام في المرابحة يبلغ ثلاثة أضعاف الحرام في الربا. قلت ولكن هذه مرابحة اسمهـا مرابحة وليس ربا. فقالوا هذه لغـة ضلاليـة وهـم يضحكـون بهـا عليكـم. والمهم أن العملية واحدة: في البنوك تسمى فـائدة وعنـد هـؤلاء الدجـالين تسمى مرابحة وبيت مال المسلمين قضية أخرى بالكامل .

دخلت بين رجليه وهدلت جسمي على صدره وجبيني علـى عنقـه. بعد ثوان فزّ بي على ذراعيهومشى وجعل يعزق عنقـي بشـفتيه، وشـحمة أذني، ويمصمص شفتي ، ويطوي ظهري وأضلاعي .

أخيراً .

عند السرير عادت إلى عينيه تلك النظرة. أجلسني على الفراش وعيناه تتحريان وجهي وفخذي. قال أنت لم تخونيني طول هذه السنين؟ قلت بربك يا شهريار ألا تراني أذوب وأذوب فهل هذا وقت الأسئلة؟ قال أنت لم تخونيني طول هذه السنين؟ قلت جربني وسترى أنه نبتت لي بكارة جديدة. وظل يتفرس في جسدي.

بارحت السرير بغضب. جلست على كنبة وهتفت به لو كنت بقيت نائما لكان أفضل. عدت إلي بلا خيال ولا شبق فما فائدة عودتك؟ انتظرتك مئات السنين ولما تجليت جئت تسألني أسئلة عن النفط وبيت المال والعفاريت وتقلق راحتي. جعلتنا في خدمة النفط بدل أن تجعل النفط في خدمتنا.

لم يتركني أكمل كلامي. لفلف أطرافه حولي وألصقني بصدره. لا تزعلي لا تزعلي قال لي. يجب أن أعرف زمني بعد كل هذا النوم. زماننا القديم الذي كان فوق الزمان ولّى. ونحن لا يمكن أن نبقى بلا زمن. والتفت حوله فتساءل من أين تطفأ الأضواء. أطفأتها كلها إلا النيونات الزرقاء الخافتة في الزوايا البعيدة. هتف بعصبية وهذه وهذه وهذه. قلت أريد يا مولاي أن أمتع حواسي الخمس بك فلا تحرم عيني بعد مئات السنين من رؤية قوامك الوسيم. نهنه صوته بابتسامة رضية وتمتمت شفتاه وهما تسريان على منكبي أنت امرأة فاسقة. وعضني عضة خفيفة فتابعها حتى أرومة أذني. قال اطفئي الأضواء كلها.

المرأة الموجوعة الملهوفة، المرأة التي نسجت مئات القصص وحاكت الفواجع والآلام ثم أنهتها نهاية سعيدة، دون أن تتأثر بواحدة منها، كيف تحكي الآن يا سادة يا كرام يا قارئين الكلام ما جرى لها في المكان الذي لم يعد مكانا وإنما مجرد بركة في الظلام؟ أؤكد لكم أن ألف ليلة وليلة برمتها لا تعادل مثقال ذرة من الغرابة التي أحست بها سبابات أصابعي وهي تخط على جسد شهريار.

جسد؟ لا أعرف كلمة تصف تلك التجاويف الصغيرة التي انتشرت على ظهره وفيها طلاء من الهباب الراكد. كأنها فوهات خامدة. لا أعرف كيف أصف دهشتي.. شدت أصابعي على ظهره بقوة فتلقت إحساسا بملامسة بثور قديمة انفلقت دون أن يسيل قيحها، وبعد حين يبس القيح وتفتت مثلما يبس التراب وصار صحراء.

كان جسده كله مبثورا.

وكان هو يكافح ويجاهد لكي يخترقني. انتضى كل رجولته. غمغم داخل جداول شعري أنت رجعت عذراء يا حبيبتي. هذه معجزة والله. مثل هذا لم ينعم به رجل في تاريخ البشر. أبدا.

لم تكن نارا شاعلة تلك الحرائق التي جعلت تلتهم جسدي. كانت حرارة وحسب، بمئات الدرجات. حرارة نثّها هباب متساقط من بثور جسده. وفي أوج سريان يدي على ظهر شهريار وإليته أحسست بتلك اللزوجة. كل مكان من جسده تغطيه الملابس في العادة صار مغطى بنزيز دبق. وقد عرفت أصابعي أنه ليس عرقا ولا عطرا. عرفت أنه صديد.

رباه. ما دام بقي على قيد الحياة بعد مئات سنين السبات، فلماذا عاد وفي عروقه كل هذا الموت؟

* * *

في كافيتيريا المريديان أدركني أخيرا ووقف أمامي بحيث يستحيل علي أن أتفادى النظر إليه. تمتم صباح الخير، فلم أرد تحيته. هتف أنا أسعد، كأنك نسيتني! تناولت فنجان قهوتي بكلتا يدي. ووضعته أمام فمي. حسوت منه حسوة وأبقيته ملتصقا بشفتي. قال أنا رئيس شعبة مطوعين وصلتي بشهريار مباشرة فلا تخافي. اعطني موعداً والتزمي به، التزمي به وإلا حكيت لزوجك عن الشطبات التي في أعلى فخذيك، ودمرتك. قلت وقد جمد الدم في عروقي، زوجي يراقبني بالتكنولوجيا. حولي جيش من

المطوعين. قال أنا كفيل بالتكنولوجيا والمطوعين، أنا أعرف الأسرار كلها فلا تخافي. اعطني موعداً. نحن كنا سمناً على عسل طوال ستة أشهر ويمكننا الاستمرار في قطاف الشهد. اجتاحتني ذكريات الشبق الأولى معه وذكريات القرف الأخيرة ورأيتني منهوبة وضائعة. قلت أرجوك يا أسعد يوم تمت معك كنت أمر في ظروف صعبة وقاهرة، ولو لم تكن أنت لكان غيرك، فالآن تغيرت الظروف، أرجوك افهم. قال لا فهم ولا تراجع، اعطني موعداً. قلت طيب، لازم أراجع مواعيد شهريار أولاً لأن أقل غلط يعني درز رقبتي بالرصاص. وسأتصل بك من عند أختي دنيازاد. فلا تقس علي، أنت تعرف كم أحبك.

* * *

قلت لشهريار: "منذ عهد بعيد لم تعد تجلس في المضافة مع إخوانك العفاريت." قال إنه يعيش في أزمة. دوامة. إخوانه العفاريت لهم فضل عليه. حفظوا له الحياة. وأعادوه إليها غصباً عن قوانين الطبيعة. ولكن لو علم الخليفة بما يرومون تحقيقه لضرب عنقه. هو نفسه لم يعد يفهم. كل يوم يركب الكاديلاك ويقودها بسرعة مئة وخمسين قبل أن يتغير عقله بعد اليقظة كي يقدم للخليفة المطالب الثلاثة التي لا تنازل عنها: تحرير النفط، تحرير ثالث الحرمين الشريفين، إقامة بيت مال للمسلمين. لكنه وهو يجوب الشوارع، يشاهد النساء السافرات المختلطات بالرجال في الأسواق والدكاكين والجامعة، فيشرئب فيه شهريار القديم الذي خانته زوجته الأولى مع عبد أسود اسمه مسعود، الذي تزوج ألف مرة وضرب أعناق ألف عروس لأن النساء مفطورات على الخيانة، الذي كان زواجه بشهرزاد الاستثناء وليس القاعدة، الذي لا يمكن أن يتصور كيف ستنصلح أحوال المسلمين والعرب ما دامت النساء سافرات والرجال وراءهن في الشوارع حتى أثناء وقت الصلاة. وعندما يصل إلى الخليفة يجد نفسه ممدود اليد بتقرير عن شغل المطوعين في البلاد، وليس بالمطالب الثلاثة.

قال: "كيف أطالب بتحرير النفط وممن؟ من الميجر فكس الذي يستخرج لنا النفط بنفسه ثم يدفع لنا ثمنه؟ من الخليفة الذي وهبني خمسين برميلاً من إنتاج كل يوم؟ مئات الآلاف سكنوا القصور وكانوا يسكنون الخيام. امتلكوا السيارات ووضعوا في جيوب أقفيتهم صكوك البنوك. كل شيء يبدو على ما يرام. رائع ومجيد. إلا النساء السافرات والأزلام الغائبين عن المساجد."

ثم أخذ يجهش في البكاء. واستمد من البكاء راحة فأمعن فيه. مددت يدي كجناحين من لهفة، وضممته إلى صدري. قال إن إخوانه العفاريت هجروه. فضلوا أن يعيشوا في الوهم والمحال. فلولا المستر فكس والنصارى لما أمكن أن تنطلق الليموزينات في هذه الصحارى. ولولا علماؤه لما أمكن استخراج قطرة نفط واحدة. هل كان يخطر لأحد أن تصير الصحراء جنة وتمتلىء بالطرق والمكيفات؟ لا شك أن العفاريت علمانيون شيوعيون.

أحببنا بعضنا بعضا تلك الليلة. وقد انطفأت أسئلته في نار جسدي. وظللت أنا أحترق. أبقيته في ظلام دامس لكي لا ترى عيناي ذلك النزيز ولكي لا يرى الشطوب حول عانتي. الشهوة التي نفرت في عروقي جعلت جسدي أصم: لم يقرف ولم يرتد. وكلما ازداد استمتاعاً ازداد تمرغاً، وازداد ارتصاص شهريار عليه.

لكني كنت مصممة على الحكايات. فأنا لا شيء إذا لم أحك حكاية. تحايلت على شهريار بالغنج والدموع واللغة لنبدأ ليلة ثانية بعد الألف. لكنه نهض من جلسته نصف متثائب ونصف مستاء وهتف: "ابرأي من أوهامك هذه يا شهرزاد. حتى علاء الدين الذي فبركته أيام زمان، فانوسه لا يشتغل بغير النفط. أنا برأيي دوّري على شغلة ثانية تشتغلينها غير حكاياتك هذه. عندك التلفزيون مثلاً وفيه مئة محطة. تفرجي عليه."

قلت: "هذا تماماً ما أردت الحديث فيه. خلنا نعمل شركة انتاج تلفزيوني لقصصي وتكون أنت مديرها والمشرف عليها. واترك شغل البصاصين والمطوعين."

نظر شهريار إلي وقد خلا وجهه من أية انطباعة. أتعرفون لماذا؟ لأنه لم يصدق أنه سمع حرفا واحداً مما تلفظت. اغتنمت الفرصة وقلت: "ما دمت لن تكون سيداً للنفط فلا تتركه يصير سيداً لك. نحن ملوك. هل نسيت؟ أين الخلفاء والسلاطين الذين عاصرناهم في الزمان القديم؟ اندثروا وبقيت قصصي. خلنا نعمل أفلاماً ومسلسلات. أو مسلسلاً واحداً يصور هذه القصص في مئة حلقة. والله والله سوف يبهر العالم. ما رأيك؟"

بغير ما نبرة قال: "مسلسلاً وفيه كل ذلك العشق والفسق ! رأيي أني لن أستغرب إذا رأيتك ذات يوم تدخنين أو تنامين مع عشيق." وخرج .

ضغطت على زر المفتش الصغير. رأيت على شاشته سحابة دكناء من البخار، وبروقا تندفع منها. وسمعت قعقعة ارتطامات صغيرة على خزف الحوض كأنها صليل أفاعي. ملأني نفور مرتعد. وضغطت على الزر .

عاد شهريار وبيده سشوار ومشاطة وقارورة عطر. وقف وسط كشك ثلاثي من المرايا إلى اليمين من مزينتي. لم تكن في وجههأخاديد أو تخوم ناتئة. ورأيت عثنونه فاحما،فكأنه ما زال على قمة أعوامه الأربعين يوم نام نصف ألف من السنين .

قال إن حديثا جرى هذا النهار في مجلس الخليفة عن مجلدات قصصي الأربعة . قال - وهو يموّج شعره بالسشوار - إنهأحس بالعار لأن تلك القصص الإباحية قد رويت له هو بالأساس. وتعجب غاية العجب كيف صمت إزاء سفالتها وانحلالها. فكأن عقله كان منوما حين سمعها. وكيف أمضى ألف ليلة وليلة دون أن يضرب عنق امرأة. ورغم أنه لا يتحدث عادة في مجلس الخليفة لكي لا يلفت إليه الأنظار، فقد وجد نفسه يندفع إلى تقديم توصية صارمة أن يمنع الكتاب بمجلداته الأربعة، وأن لا يقتصر الأمر على شطب المقاطع السفيهة المنحطة، كما اقترح بعض الجلساء. وسألني هل تعرفين بم أجاب الخليفة على اقتراحي؟ الخليفة داهية. قال لجلسائه: نحن أبقينا على الكتاب كرمى لأخينا شهريار.

أيقنت أن عصر مؤاخاة الناس بسرد قصصهم قد انتهى في نفيطية إلى غير رجعة. بعد الآن لن يمكنني أن أحكي حكاية واحدة لأي إنسان. بقيت مريضةنهارا وليلتين. وجاء شهريار ليعودني. سألني ما بك، وكان حنونا. قلت أنا أحتاج إلى بعض إخوانك العفاريت لتطبيبي فإن مرضي في الروح وليس في البدن. وجم. صمت. اكفهر وجهه. أخيرا قال: "أي عفاريت ! أنا آتيك بأحسن الأطباء. ناس تعلموا علوم الشيخ سيغموند فرويد وطرائقه، ويعرفون معارج الروح أكثر من العفاريت ."

لم أجرؤ على سؤاله عنهم. اكتفيت بالقول إن هؤلاء أصحاب كرامات. هز رأسه بغفران. " أي كرامات يا شيخة! كرامات ونحن في القرن العشرين؟ أفيقي يا امرأة وعيشي زمنك وعصرك. عصر قصصك الذي سموه الليالي العربية انتهى. نحن في القرن العشرين. في عصر البترول. اسمعي كلامي: كل داء وله دواء عند رهط الميجر فكس. كل هذه المخترعات من عندهم. الله سبحانه وتعالى سخّر لهم التكنولوجيا، وسخّر لنا النفط لنشتري التكنولوجيا. اطلبي ما تريدين. حتى لبن العصافير - هنا وليس في قصصك."

في الليلة الثالثة عصف الفضول بحكمتي وأماني. فتحت عين الفتش الصغير وتمددت على السرير. دار المؤشر ودار ولم يقر له قرار. كل غرف القصر ودهاليزه، وأبهائه وأفاريزه، وشهريار غائب. وأخيرا تشجعت على طرق أجواء المضافة .

ها هو ذا هناك، متمدد علىمفرش الدمقس. عار إلا مما يستر العورة. ظهره يموج وينفرش تحت أصابع الخادم الآسيوية، وباطن ركبتيه مرصوص تحت ردفيها. باطن فخذيها يحتضن ويشد على ظاهر فخذيه. ساقاها إلى الخلف. يداها تدلّكان ظهره.

ضغطت على زر التكبير. رأيت الأخاديد والبثور تتثنى تحت الأصابع الحانية. وسمعت صوته يوحوح ويخنخن ويغمغم. ورأيت الأصابع تمسح نزيز البثور وتمسد الجلد. وفجأة نهضت الجارية. كانت ترتدي شورت

أبيض ، وقميصا أصفر نافد الصبر. شهريار الآن وقف وراءها تماما، منتفخ السروال. مسمّر ذراعيه حول نهديها، ويديه على حجرها. لكنه عجز عن تقبلها. كلما أدار وجهه إلى شفتيها، أدارتهما هي إلى اتجاه آخر. حصرها بالجدار ولم يتمكن منها. رماها على المفرش. جاسط قميصها. أغمد أصابعه في نهدها. ولم يتمكن منها. رغم أنها راوغته وحسب ؛ لم تجرؤ على صده.

كانت أصابعه غائصة في نهدها وزنده مشبوحا على النهد الآخر عندما قال لها: "اسمعي، أنا في الزمان الأول كنت أضرب عنق أمثالك بالسيف ؛ الآن أنا سأقطع رزقك ؛ سأنهي خدمتك عندي. سأكتب في سجلك أنك راودتني عن نفسك لأجل مزيد من البترودولار ؛ وتعودين إلى مزبلتك يا خضراء الدمنوليس معك ثمن تذكرة الطائرة. الخسيسات من أمثالك لازم لهن عقاب خسيس."

خبطت إصبعي على زر المفتش الصغير ومسحت شهريار والخادم الآسيوية عن وجه الشاشة. تركت حجرتي وعدوت، لا أعرف إلى أين ،عبر حجرات الحرملك وأبهائه. لكن المفتش الصغير ركض ورائي بصوره وأصواته. حشر أصوات شهريار والخادم في أذني وبث صورهما داخل عيني المغمضتين. تمزق الشورت الأبيض وانزلق سروال شهريار. لاحقني المفتش الصغير وركض أمامي مديرا ظهره إلى الأبعاد. ركضت لا ألوي على شيء،وبدا شهريار تهويان على الجسد الأنثوي الضئيل ، تطرحانه أرضا، وجسده يهوي فوق جسدها.

أنا أعرف هذه الحالات. أعيها منذ بدايات حكايات الليالي العربية. كلما حكيت حكاية اكتشفت ما لم أكن أعرفه من قبل. لقد علّمني القصص أسرارالنفس. وشهوة الرجل تستبد بعقله وكرامته وذكورته.

كل ذلك النوم ولم يبرأ من شهوة الاغتصاب.

لماذا يا شهريار؟ لماذا وأنت تصلي عشرين صلاة كل يوم؟ ومع هذه الدجاجة !

وبعد هذا يقول لي إنها ما ملكت يمينه. الخليفة دهريار أعطاه خمسين برميلاً يومياً من النفط. إنه يمكنه اقتناء عشر نساء. ويقول إنني امرأة مسني عفريت هذا الزمن الحديث فصرت أعتبر نفسي شريكة لزوجي في ممارسة الجنس. يقول إن الزوجة لا طعم ولا نكهة، جاهزة عند كل طلب، مملة ومضجرة ولا تستنهضه، لا إثارة ولا تحد، بعكس العشيقة والخليلة. وبعدئذ، التوبة في ديننا ممكنة دائما ومقبولة. وهو ليس مستعجلاً.

أية زاوية نصف مستترة من الشوارع تكون سريرا له. إنه مطوع المطوعين. كل امرأة في الشارع صيد له. فإما التحقيق معها أو النوم معها. هناك فقط شهريار. في النهار شرطي وزير نساء. في الليل متعبد يقيم أربعين صلاة.

كان قد أقام صلاته العاشرة ذلك المساء.

قلت: "ما أصاب جسدك سببه انقطاعه عن الحياة ..."

قاطعني وهتف: "بل سببه أني طول مئات السنين فاتتني مليون صلاة وصلاة والخليفة دهريار ذو العقل الجبار حسبها لي. وعندما أسدد ديني لله سبحانه وتعالى أسترد إنسانيتي."

كان منتشياً. وكنت مضطربة ومتحيرة. قلت: "أرى أن نفيطان دخل فيعقلك تماما."

قال: "ناديه بلقبه دهريار. لأنه فعلا يصلح لكل الأزمنة. ولولاه لبقيت تابعا للعفاريت. أنا لا أنكر فضل العفاريت علي. ولكن لو تبعتهم لتبعت الأوهام والعلمانية والثورة. والأفكار الهدامة .الخليفة لا يبخل على أحد. يدورعليهم بسيارته الأمريكية القوية كالجمل، المصنوعة خصيصا لتمخر عباب الصحراء، ويوزع عليهم أكياس البترودولار. تماما مثلما كان هارونك الرشيد يفعل. فأين يوجد أفضل من هكذا خليفة؟ ومتى وجد؟"

كنت في واد آخر. قلت: "ومتى تسترد إنسانيتك إذن، طالما أنت مديون بمليون صلاة؟"

وكان ما يزال منتشيا. قال: "الخليفةدهريار قال إن شغلي كآمير مطوعين يكسبني أجر مئة صلاة في اليوم. وأكثر عندما أكشف عن المتآمرين من أمثال عبد الله بن الزبير. وفوق هذا صلواتي اليومية. يعني عشر سنين تقريبا."

في الحقيقة لم أعد أدري هل أنا أروي قصتي أم قصة شهريار. فاجأتني تحولاته مثلما فاجأتني يقظته. إنما في الاتجاه المعاكس. لقد نسي العفاريت إلى غير ذكرى. وترك تحرير النفط إلى غير رجعى. وصمت عن ثالث الحرمين الشريفين إلى غير كلمة. وصار بيت التمويل الإسلامي عنده بديلاً لبيت مال المسلمين.

صار ديدنه حجاب المرأة وصلاة الرجل وتشريد العلمانيين. كلما اقترب موعد للصلاة هب هو وجحافل مطوعيه فامتطوا سياراتهم الأمريكية، واندفعوا كالرياح الشرقية في الشوارع والدائريات والطرق السريعة. اندفعوا كغبار الخماسين. هو بالذات يجب أن يخلي شوارع المدينة من هؤلاء المتسكعين، ويرسلهم إما إلى السجون وإما إلى المساجد. هو بنفسه. لا نشوة إلا اغتصاب الخادمات الآسيويات يمكن أن تعادل نشوة التقاطه متسكعاً من صدره، وغرف إليته وقذفه داخل البيكأب، ثم جرجرته من هناك إلى أقرب المساجد كي يصلي. كنت أحسه وكأنه قبض على أخيرا على ذلك العبد مسعود، الذي سلب لب زوجته الأولى، وجسدها أيضا، وها هو ذا يجعله عبرة لمن اعتبر.

أما النساء فله معهن حكايات أخرى. أم أنها الحكاية نفسها؟ حقيقة، لم تختلف الحكايتان في مظاهر العنف والوحشية. ولا في مظاهر الجنس عندما يكون المتسكع مليح القوام. حقيقة إن شهريار حكاية عجيبة لم أحكها من قبل. المفتش الصغير يشهد بالصوت والصورة على أنه لم تخل زاوية منعزلة في سوق أو مجمع أو كافيتيريا من ذلك الاندفاع

المهووس نحو الدحل والسحل والسحن والسحق والاغتصاب. فحيثما أمكن لفتى وفتاة أن يتبادلا نظرة عرجاء أو كلمة بتراء، تشرئب شهوة البطش والسلطة في كيانه كقرون الشيطان. ويندفع نحو تلك الأغصان اليافعة ببلطة صماء ليحافظ على استقامتها.

فكأنني لم أحك مئة قصة حب نبيل وقصة. وكأنني لم أصف له لوعة الحب وإشراقة اللقاء ودموع السعادة. كأن الرجال كلهم صاروا العبد مسعود، والنساء كلهن امرأة شهريار الأولى. كأن كل ممارسة للحب بين رجل وامرأة خيانة له هو.

قلت لنفسي: في أي رجل يعيش الآن العبد مسعود؟ لقد ضرب شهريار عنقه منذ ألف عام ؛ أتراه سخر من شهريار فالتقط رأسه المقطوع وأعاده إلى رقبته؟

قلت لنفسي: أتراني أنا شهرزاد التي تعرف كل شيء، أعثر ذات يوم بالعبد مسعود، لأعرف منه شيئا واحدا: كيف استطاع عبد أن يكسب قلب ملكة وعقلها وجسدها، وخسر ذلك كله ملك؟ ورحت أتساءل، أنا شهرزاد التي أطلقته كسفينة فضاء إلى عالم هارون الرشيد الأسطوري، أين يوجد ذلك الرجل الوديع المحب، الخالي من الطغيان والتجويع، النظيف البدن والروح، الرجل الذي اسمه العبد مسعود.

*   *   *

أحسست به وراء ظهري تماما. وراء قفاي. لم يلتصق بي، لكنه أوشك. حتى ذلك المنتصب أحسسته أوشك. كنت ممسكة ببعض فساتين الحرير التي فردها التاجر أمامي لأعاينها. جمد ذراعاي وجمد دمي. ماذا سيقول الحاضرون؟ ماذا لو رآه رجال شهريار ؟لم ألتفت إليه. إنما عرفته. من صوته الأجش المهيمن.: يا مليكتي يا قبرة سمائي، أحن إليك حنين الجياع ... ثم لم أعد أسمع. كنت في السوق الذي يعرضه لي المفتش الصغير، حيث يبطش شهريار بالرجال والنساء. لكن الصوت استمر:

سنة يا مليكتي ونحن أجمل وأحلى من عشاق ألف ليلة وليلة فمن أخذك مني؟ ألا اعطني موعداً با لله عليك!

قلت لسعد: "زوجي يراقبني بالتلفزيون والكمبيوتر والليزر .. أينما تحركت تظهر له تحركاتي على المفتش الكبير."

قال: "أريد أن ألقاك، أن أشمك، أن ألمسك. لا تقولي هذا مستحيل. أنا أحبك."

قلت: "وأنا أحبك. ولكن كلما خرجت، توجب علي الاتصال به ساعة بساعة. إذا لم أتصل اتصل هو. وإذا اتصلت عرف مكاني. في البيوت، في الشوارع، في أي مكان. وإذا لم أرد على اتصاله، سلّط علي نار جهنم."

قال سعد: "أريد أن أحس بك لصق صدري. أن أقبل الشطبات على فخذيك."

كان قد اقترب مني اقترابا ناريا. وكنت أوشك أن أرتمي بين ساعديه. قلت: "وأنا يجب أن أتصل بشهريار."

* * *

أين أنت يا مسعود؟ ماذا يا ترى جرى لك؟ لماذا لا تظهر؟ متى تظهر؟ كيف أصل إليك؟ أنا امرأة مهدورة. حياتي تضمحل وأنوثتي تتمدى. لم تعد ثمة لغة بيني وبين شهريار. ناديته لأجل الفرح والحب والجمال والحرية والفن؛ فحكى لي عن اقتراح قدمه إلى الخليفة لجعل الجمهور يقيم "صلاة الرياضة" على الملعب أثناء مباريات كرة القدم. "تصوري كم حسنة سنكسب من ا لله سبحانه وتعالى لقاء هذه الصلاة! هذا هو العيش في القرن العشرين يا عزيزتي."

المفتش الصغير ظل يقدم لي شهريار آخر. يقترب من ضحيته. يعريها. يحتضنها. ينضغط عليها. أنا لم أعرف شيئا من هذه الفظاعات طوال ألف

سنة عشتها. لم أعرف في جميع قصصي أحدا تلذذ هكذا بالقبح والوحشية. كانت الخادم تفقد عملها إذا منحته جسدها خوفاً من أن تفقد عملها. وكانت تحصل على المكافآت إذا صدته وقاومته دون جدوى.

قلت لنفسي: هذه المئات من السنين لم تعبر بك يا شهريار وتمض وإنما استنقعت في جسدك وترسبت. استوطنت كالمومياء فبات مستحيلا على الزمن الجديد أن يجد فيك مكانا أو يعبر إليك. صار يلتف حول جسدك ثم يمضي. يترك القرون القديمة هاجعة فيك، يتناسل وحلها وديدانها وعمى عقلها. أربعين عاما وأنا أحاول أن أبدأ معك ليلة عربية جديدة. أحدثك في الحب فتحدثني في التحجب. أحدثك في الفرح فتحدثني في التعبد. أحدثك عن الحرية فتحدثني عن المطوعين. أحدثك عن الجمال فتحدثني عن الخليفة. أحدثك في الفن فتحدثني في التكنولوجيا. وأصمت؛ فأرى على المفتش الصغير صورتك المحفوفة بالدم واللهيب.

خرجت إلى الأسواق والمجمعات أبحث عن العبد مسعود. خرجت إلى الفنادق وعواصم العالم. كل صيف يحملني شهريار بعيدا عن الصحراء إلى باريس ولندن وروما ولاس فيغاس. يتركني هناك إلى هجير جسده ونسائه. جسده يزداد ضراما بازدياد بترودولاراته. يتركني في طابق كامل من فندق ذي "ستة" نجوم، مع طاقم حريمه وصبيانه ومطوعيه وحريمهم. ويهبط في جناح من فندق آخر، مزود بطاقم آخر.. من النجوم والكواكب من كل سينما وتلفزيون ومسرح وماخور. جناح يدفع أجرته من مرابحاته في بيت التمويل الإسلامي، ويقضي فيه قوس قزح من الليالي الافرنجية.

لن أكتب لكم عن هذه الليالي، فلقد علمت أن كتابامن بلدان الميجر فكس يفعلون ذلك كل يوم. سأقول فقط إن شهريار يضجر أحيانا. يضجر من استسلام النجوم له والخادمات،عندها يأتي إلي. أنا المرأة المسلمة العريقة، المكرسة بأمر إلهي للرجل، التي تغنج وتصد وتمتنع حتى تلهب رجلها برغبة الاغتصاب، التي تسعد بالاغتصاب، التي ترى الاغتصاب تكريماً لها واعترافاً جليلاً بفيض أنوثتها. لكنني في ذلك الصباح، وبعد

ثلاثة اغتصابات مظفرة، أفقت ونفسي مفعمة بالقهر والتمرد. وأفاق شهريار ونفسه مفعمة بالسعادة والرضا والغزل. خرجنا إلى الكافتيريا ٧ للتربيقة وطلبت فطورا إنكليزيا.

صاح شهريار جاحظ العينين: "تطلبين طعاما فيه لحم خنزير ! أنت المرأة المسلمة! وفي حضوري أنا!" ثم تمالك ذهوله وأضاف: "غدا تصدر الجرائد في طول البلاد وعرضها وتعلن كيف يدوس المسلمون على إسلامهم في أوروبا." ونهض فجرجرني من يدي إلى جناحي، وهرول إلى دهليز فندقه.

يا مليكي يا شهريار. إذا كنت أقبل أن يضاجعني خنزير ؛ أفلا أشتهي أن أمضغ بعض لحمه؟

كان يا ما كان في حاضر العصر والأوان، كان هناك امرأة تبحث عن قصصها وخاتماتها السعيدة. امرأة كانت ملكة ذات يوم، فأعطت العالم كتابا هو ملك بين الكتب. لكنها الآن لا تملك من اللغة سوى خمس كلمات: ماذا، متى، أين، كيف، لماذا. إنها امرأة ينقصها الحب والفرح والحرية. ضاقت ذرعا بالحياة الميتة في قصرها فخرجت إلى السوق. لحق بها العسس والمطوعون وأدركوها. وقال لها شهريار: "بعد مئات السنين من الإخلاص والوفاء تخرجين الآن بحثا عن العبد مسعود؟ تفوه على شرفك!"

انفلت الذعر في عينيها وصدرها. وإذن فهو يعرف سرائرها. هو، رجل المخابرات، وليس هي امرأة القصص، من يعرف الأسرار. كل التكنولوجيا كرمى للحفاظ على فرج شهرزاد. يعرف: متى تخرج، كيف تخرج، أين تمضي، ماذا تقول لذات نفسها، ولماذا تنظر إلى وجوه البشر فتنفطر اللهفة من عينيها.

" بعد مئات السنين من الوفاء والاخلاص تخرجين بحثا عن العبد مسعود؟ تنظرين في وجه هذا الرجل أو ذاك بحثا عن العبد مسعود؟ تفوه على المرأة ! أنت لازم تتحجبي."

" بعد مئات السنين من الوفاء والاخلاص أراني ظمأى وجائعة، فقيرة ومسلوبة، حزينة وخرساء."

" بعد مئات السنين تصير الحرية طريقا للزنا والخيانة. عيناك تدعوان الرجال إليك. تفوه على الحرية !"

" بعد مئات السنين يصير وجهي مخبراً عند مخبري الخليفة. يقدم تقريرا عني."

"بعد مئات السنين يصح فيك قول النبي: يكاد المريب يقول خذوني. تفوه على الثقة بالنساء. أنت لازم تتحجبي."

" بعد مئات النسين يطلع علي النفط فتغرق فطرتي. أغترب عن عصري ولغتي. "

" بعد مئات السنين يتأكد أن النساء فعلا ناقصات عقل ودين. تفوه على النساء."

" بعد مئات السنين يندحر هارون الرشيد صديق حكاياتي، وينتصر دهريار نفيطان. تنطفىء الليالي العربية، وتتوهج الليالي النفطية. تهجع بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس، وتخلع النفيطيات ومونت كارلو ولاس فيغاس. يختفي علاء الدين ويظهر المطوعون."

وهكذا يا سادة يا كرام يا قارئين الكلام تحجبت شهرزاد. فكأنها لم تسبل على وجهها خمارا أسود وإنما طلسما. نوعا من طاقية الإخفاء. وكأن هذه قد نقشت عليها سورة ياسين وآية الكرسي فطردت الجن والشياطين الخناسين من حولها. منعت الغواية. عقّمت نفس شهرزاد من شهواتها. لم يستطع شيطان واحد أن يخترق ستار العفة الذي أسدلته على وجهها، فكيف بالجسد نفسه !

شهرزاد لم تكن تعبأ بالعفاريت والأبالسة. لقد انفض المطوعون والعسس من حولها، وكفت الرادارات عن التقاط موجات مشاعرها وخطواتها. النقاب الأسود طردهم مع من طرد من نسل إبليس. خلال

الشهور الأولى كانت تسمع قعقعة وجعجعة تصدر عن خمارها. أهي أمواج التكنولوجيا أم اندفاعات الشياطين؟ شهريار ومطوعوه يبثون طيفا من الأمواج لتستكشف دخيلتها، فترد طلاسم النقاب طيف الأمواج عنها مذموما مدحورا. وإبليس وشياطينه يصرخون من هول العذاب والألم اللذين ينزلهما الحجاب بهم كلما سوّلت أنفسهم لهم أن يقتربوا منها. وهكذا صد النقاب الغزاة الجنسيين عن جسدها مثلما رد سور الصين الكبير الغزاة المنغوليين. يا للسحر!

قال لي شهريار بفم يوشك أن يبتهل: "حتى الشيخ سيغموند فرويد ما كان لينتظر هذه النتيجة المذهلة فكأنك لم تضعي نقابا ولكن حرزاً وهذا الحرز وقاك مكائد الوسواس الخناس إذ أن جميع أمواج التكنولوجيا ارتدّت عنك بلا استثناء وبلا أية معلومات ولم تبق ذرة شك عندي أنك أطهر امرأة على وجه الأرض وليبارك الله هذا الحجاب."

خرجت إلى الأسواق والمجمعات والفنادق أبحث عن العبد مسعود. سجنت وجهي بطاقية الإخفاء وأطلقت روحي في رحاب حرية بيضاء. إنه لحزين ومربك أي منظر تراه العين من وراء حجاب. فذلك ليس سوى قمقم للروح. لكأنك لطخت بياض الحقيقة بشهادة زور. لكأنك وضعت بينك وبين الحياة تخما - فأنت هنا وهي هناك. أو شققت في عمق ذاتك شرخا - فأنت الألف وهي الياء .... وفتحت في وجدانك منزلا للغربة .

هتفت روحي للحرية وهي تدوّم داخل قمقمها. خفقت وعربدت. كنت أحسها موشكة على الهلاك منذ أن اشتهيت لحم الخنزير في باريس - هذا الحيوان النتن المقزز ذو الرائحة المقيتة، الذي يخلو شكله حتى من لمسة جمال واحدة.

تعال إلي يا مسعود. أينما كنت، تعال إلي. كن خلاصي من زمن النفط، وعالم النفط، وانهيارات النفط. أيها الذي أحببتك ملكة وأنت عبد، وخانت لأجلك ملكا. أي سحر فيك! رجولتك وعدلك وحنانك

محت الطلاسم عن روح ملكة لم يعبأ أحد حتى بذكر اسمها، ولم يعبأ أحد بمعرفة مشاعرها وعقلها، لأن الجميع انحازوا إلى شهريار .

سأخلع أمامك نقابي الحقيقي والوجهي وأصفادي وملابسي -أجد نفسي امرأة لا فرجا - أجد رجلا يعطيني حبا لا مضاجعة - يمتلك بئرا من الجمال لا بئرا من الانتعاظات والنفط- أجد عندك بيتا تخفق الرياح فيه وليس المكيفات - تفوح منه روائح الأطفال والأزهار وليس روائح الخادمات الآسيويات - مدينة تمشي فيها المهرجانات والمواكب وليس العسس والسيارات.

في الأسواق والمجمعات والفنادق رأيت نساء كثيرا. بنظرة واحدة أدركنا كلنا أننا امرأة واحدة. بجملة واحدة عرفنا أننا كلنا مشكلة واحدة. إننا نبحث عن رجل واحد عديد التجسدات .

سألتهن: "كيف تبحثن عن العبد مسعود وأنتن لم تعشن عصر زوجة شهريار؟"

فأجبن بصوت واحد: "كل يوم نراهما على شاشات البتروتلفزيون ونعرف أننا من نسلهما. ألست أنت من أصحاب العالم بعدوى حكايات الحب والسعادة؟ كيف تسألين سؤالا كهذا؟"

قلت: "لكنكن بنات القرن العشرين، عصر الحرية والحب والجمال!"

فأجبن بصوت واحد: "بل نحن سبايا نعيش في عصر الحريم والتكايا."

انطلقنا. الحجاب الذي أغلق على وجوهنا عالماً فتح لنا عوالم. صرنا كلنا ملكات سريات يجبن أماكن سرية في أزمنة سرية، مع رجال سريين. لم يستطع مطوعو شهريار ولا أزراره شيئا حيالنا. بالعكس. فإما عشقنا المطوعون؛ وإما صاروا جزءا من شبكة الطلاسم التي لففنا بها وجه المدينة. وصارت الأمواج تترنم بأناشيد توقعاتنا.

تعرفون هذه البيوت. إنها تملأ شوارع المدن. الأبهاء الفسيحة. الأرائك الوثيرة. الموائد الحافلة بالخمر والمآكل في دائرة المركز. كلكم

اختار هذا الجدار أو ذاك من الجدران نصف الدائرية في الإيوان حيث لكل جدار موسيقا تخصه: الجاز، الدبكة، الروك، الرن، هز البطن، السند، التانغو، الغيشا، وأحيانا شوبان. كلكم قرأ على المدخل عبارة: من لم يكن حرا لا يدخل هنا، التي تنفتح عندما تفتح عن دهليز صاعد أو دهليز هابط، هناك حيث ضوء أزرق نزير ساحر يقود إلى غرف نوم من نوع جعل هارون الرشيد ينام مع زبيدة فيه.

في كل هنا وهناك بحثت عن مسعود. أردت من هذا العبد أن يحرر ملكة. وهناك التقيت بهم: سعد، سعيد، مسعد، أسعد، مساعد، سعدون، سعادة، سعود، ساعدة، مسيعيد ... ولم ألتق بمسعود.

ماذا أسمي الذين تركوا كل طقوس الحب وراحوا يلعقونني ويمتصونني وأنا ما زلت في هذا اليوم أو ذاك من طمثي؟ وماذا أسمي الذين أرادوا أن يصدقوا أنهم فعلا يركبون شهرزاد فغرزوا ركبهم وأصابعهم وأسنانهم ومرافقهم في لحمي، ونهشوني وفحشوني حتى سال الدم من بدني؟

وكانت الصحراء تحقن كل حرارتها في دمي. لقد استنبتوا الصحراء في هذه الديار جعلوها تنتج القمح والطماطم والكرز. أما أنا فيبست. لم يستنبت جسدي أحد. عشت غريبة ومنفية في بلاد تسكنها خليقتان، الرجال والنساء، يتلاقيان فقط في غرف الأكل وغرف الجماع. منازلهم تخلو من غرفة، من أي متسع للروح. نساؤهم مجرد كميات قادرة على الحركة.

بعدئذ صرت أتساهل. أتساهل أتساهل. فقد تفشى القلق والشبق في بدني المعطل. وتدفق علي الرجال كنز فار من أعماق الأرض. رغم يأسي المتزايد، وربما بسببه، قبلت وأقبلت. تمرغوا على جسدي. مرّغوه وتمرّغ جسدي بالصحراء. وظللت أبحث عن مسعود.

هناك التقيت ببلقيس. كنت قد تهت عند أحد المداخل. ورأيت ظهر امرأة تقرأ اللافتة الظلماء المكتوب عليها: من لم يكن صادقا لا يدخل هنا. ثم رأيت وجها معفرا، ليس بالمساحيق بل بالحيرة والاضطراب والأسى

عجبت من هذا الجمال – فلطالما حكي لنا أن بلقيس لم تكن جميلة. وكان أجمل ما فيها حضورها، بهاؤها الملكي، إطلالها الشامخ شموخ مرتفعات اليمن. غير أن ما أصابنا بعد أن تعارفنا فاق العجب بكثير. إذ كيف لملكتين ملأتا خيال البشرية بالصور والأحاسيس أن لا تعرف إحداهما الأخرى؟ لماذا لم تتعارف خلال هذه القرون؟ ولماذا في هذا المكان وهذا الزمان؟ كانت سيدة مثلما وصفها القرآن وتستحق أن يأتيها الرجال فيقولوا: "والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين." وكانت حلماً. سألتها فابتسمت، فطارت نفسي شعاعا، وتمنيت لو أني رجل لأعشقها.

قالت: "بلى. لكني أبحث عن المستحيل. ملكت على هذه الديار من حضرموت إلى البلقاء إلى ذي قار، وقابلت ملوكا وملوكا، فلم أعثر على ملك ينطق بالحب ويجيد لغته. كلهم يتكلمون لغات أخرى. بعضهم يحادثون الطيور. إنما بغير لغة الحب. والذين حادثوني منهم كانت ألسنتهم بين أفخاذهم."

عندها ضاءت اللافتة وانفتح باب المدخل. وتهلل وجه بلقيس. قلت: "لأنك نطقت بالصدق". فتلفتت حولها بدهشة طفلانية سعيدة. دخلنا وصعدنا.

كان الامتحان الثاني أخف وطأة. فما إن تبادلنا أرقام الهواتف والبيجرات والفاكس حتى انفتح لكل منا باب مكتوب عليه: من لم يكن حرا لا يدخل هنا. غابت هي وراء بحثها، وغبت أنا وراء بحثي.

هناك التقيت بهن كلهن. إما أمام باب الصدق، وإما أمام باب الحرية. الخنساء وسميراميس وخولة وشجرة الدر وزرقاء وزليخة وحتشبسوت وميسون وزبيدة ...

كانت شجرة الدر أقلنا كلاما. أقلنا انقيادا للوهم. لم تنجرف مثلنا في البحث عن الحب، أو الفرح، أو الجمال، أو المجد ... أرادت فقط أن تمنح عرش كينونتها لملك ليس مملوكا.

فرض شهريار علي أن أهاتفه كل ساعتين من ساعات غيابي عن المنزل. وهكذا اكتملت دائرة حياتي السعيدة. صار بوسعه أن يحدد مكاني أينما حللت. لم يحس أبدا بخيانة جسدي له. هو لا يعرف لغة الجسد. لا يتبين دمغات الرجال الشبقين عليه - وفيه. يصدق فقط الشيخ أبا يوسف ودهريار وأبا الفتح الاسكندري. وأنا يجب أن أهاتفه كل ساعتين ليعرف أين يكون جسدي.

صرخت به: "تقول عني أطهر امرأة على وجه الأرض، وتريد هاتفا مني كل ساعتين؟"

لأول مرة منذ عهد بعيد بدا مترددا وحائرا. لديه وثائق بالأمواج الصوتية عن جميع النساء. لديه أفلام فيديو لأثدائهن المنهوشة ووجوههن المغمى عليها نشوة. إن أميرالمؤمنين يدفع ستين مليون دولار كل عام لشراء عصي الخيزران التي تقلع لحم المتخلفين عن الصلاة ومرتكبي العيب - وهو لا يدفع هذا المبلغ كي تكون النتيجة انتشار الفسق والزنا بين حريمه.

في لحظة لوعة مباغتة التفت إلي وهتف: "كيف يمكن لرجل أن يثق بامرأة؟"

قلت: "عندما يمكن له أن يراها إنسانة لا متاعاً."

كنت في واد آخر. لقد تلبسني وهم عريض سنين وسنين وعلي الآن أن أخرج منه. فالحقيقة هي أن شهريار ضرب عنق مسعود منذ ألف عام. ويجب أن لا يخطر لي أني سألتقيه في حواري القرن العشرين. الحقيقة هي أن شهريار هو الذي ظل حيا.

اتصلت بالخنساء فلم أجدها. أسمعني هاتفها هذا التسجيل:

تدخل الشمس إلى بيتي فراشات وتمضي كلمات
ولأيامي في مفترق الماء حنين:
كيف أحيي زهرا يجتاحه الرمل؟
وهذا جسدي يختلج الآن كراع بدوي
لابسا وجه الحقول

يكتب الشعر على العشب
ويلقي يأسه الطيب في ماء الفصول

استعدت التسجيل حتى حفظته وكتبته. ثم استسلمت للخمول. تمشيت في أرجاء القصر الخامد فلم أسمع صوتا ولم أر حركة. تمشيت وتمشيت حتى لمحت تلك الورقة تنتأ من جهاز الفاكس، ويخبرني شهريار فيها أن الخنساء انتحرت. سقطت الورقة من يدي. وسقط جسمي على إثرها.

شهرزاد التي خلقت رجالا ونساء ينتصرون على الموت والمستحيل واللامعقول، حاولت مرة واحدة أن تعيش قصة ومصيراً فسقطت على قارعة الطريق. عدوت وراء مسعود وأنا واثقة من أنني سألتقيه بين الملايين التي تعج في الشعاب والشوارع. كنت ساذجة. مسعود لن يظهر في هذا البتروعالم.لي أن أنتظر ألف عام آخر قبل أن تنضب هذه البترولعنة في هذه البتروصحراء.

لأني امرأة لا تعرف اليأس، تحولت إحباطاتي إلى غضب. وبالغضب عوفيت من مرضي الغريب. ولكن مهلاً. في لحظة التحول والعافية بالذات، لحظة اندفع الغضب فيّ من أخمص قدمي إلى قمة رأسي، ولحظة أحسست بهدير العافية في بدني، تذكرت ذلك الاسم. للوهلة الأولى ارتعت وارتعدت. كتب التاريخ تقول إنه ضرب الكعبة بالمنجنيق وأنه ضرب الأعناق في المساجد. وتقول إنه نظم المحاكم ونبضات القلوب. أنا لا أعرفه ولم أدعه إلى ليالي ؛ لكنني تمنيته أن يضرب قصرنا بالمنجنيق: الحجاج بن يوسف.

دخل شهريار مضطربا هائجا. لم أكن قد رأيته منذ شهور، رغم تهاتفنا المستمر. على باب جيبه تعلق بيجر بقرابه الصغير، وعلى باب الجيب الآخر كاميرا فيديو بحجم قبضة اليد. وعلى ساعده تعلق جهاز (ماشي واشي).

صرخ: "هجم الحجاج بن يوسف! هجم الحجاج بن يوسف!"

بغير وعي هتفت: "هل سيصل إلى أسوار الكعبة؟"

أنا لا أحب الحرب. وصفت عصورا وأمصارا وخلائق في مئة قصة وقصة، ولم أصف حربا واحدة. أنا لا أحب الحرب. لكن الحجاج اعتقل خيالي طوال مئة يوم ويوم. . ملأه بصور المنجنيقات التي قيل إنها تقذف أمراضا تميت لساعتها. وكان هناك أناس كثيرون لا ينقصهم سوى الموت. وبلا مشقة أحسست جسدي يتهيأ للقاء الحجاج. الاجتياح كلمة عنيفة ولذيذة. وأنا فرشت جسدي ليستقبل الحد الأقصى من الزوابع. إذا كان مسعود وهماً ؛ فالحجاج حقيقة. وهو قادم على صهوة حصان عربي . .

تلاشى انفعال شهريار وابتسم. زمجر وهو ينفض قذاله إلى الخلف باصطهاج: "هه! ولماذا خلق الله الرئيس فكس إذن؟ إلا ليكون اسما على مسمى مع الحجاج!"

قلت: "صرت تعرف معنى كلمة فكس الإنكليزية ما شاء الله!"

فانطرب وابتسم: "هذه الكلمة قاموس. لسوف تهب على الحجاج عاصفة من الصحراء. وتعصف بكوفيته وعقاله حتى ترده أسفل سافلين. يريد أن يتمرد على الخليفة والرئيس فكس! فلير عاقبة تمرده. سيتدخل ملوك القرن العشرين كلهم لحماية ملك الزمان دهريار آل نفيطان. لأن كتاب الله معنا. وكتاب النفط معنا. والله سخر لنا أن نشتري كل من نريد."

أنا وصديقاتي: كل مساء نجتمع عند واحدة. نطلق ألسنتنا وأحلامنا إلى حيث لا يصل رابوع الخليفة وشهريار وأبي يوسف وأبي الفتح. خولة هي الوحيدة التي كانت قلقة وهلساء: لقد رفض أبناؤها المشاركة في الحرب. حتى رمسيس خاف. قال لحتشبسوت إن هؤلاء هم الهكسوس مرة أخرى. وأخذت شجرة الدر تبكي فالمماليك ما زالوا ملوكا.

كانت أخبارنا واحدة. في الأيام الأولى حل علينا غشاء من الخدر. صار لزاما علينا أن نتوقف عن طرق أبواب الصدق والحرية، ونقبع في بيوتنا. كل ليلة اجتمعنا عند واحدة. كان انتحار الخنساء قاسماً مشتركا للصمت؛ والحجاج بن يوسف قاسماً مشتركاً للكلام.

قالت خولة إن أخاها ضراراً وأولادها الأربعة ركبوا يخوتهم الإنكليزية وانطلقوا في عرض البحر لصيد القرش والدلفين.

وقالت سمير اميس: "بنيت لهم بابل ونينوى فخربوهما. كلما بنيت لهم مدينة فجعوني وخربوها. أنا الآن أشتهي تخريب هذه المدن. أشتهي أن يدكها الحجاج دكاً بالمنجنيقات."

تسللت أحلامنا وراء الحجاج وتسللنا وراء أحلامنا. في وهلة جامحة من وهلات الحلم تساءلت: لماذا لا يكون الحجاج هو مسعود؟ وبدأت أجبله وأصوغه على شاكلته. في الصمت تذكرنا الخنساء. وخفنا. وفي العلانية أطلقنا أحلامنا بوجه نشرات الأخبار. ورحنا نعيد تكوين الحجاج بحسب مكنوناتنا الطافحة.

ثم أقبل أولئك الجنود من عند الرئيس فكس. ومن عند ماغي ورياح الإليزيه. مئات الآلاف. لأول مرة أرى النساء جنوداً وضباطاً في الجيوش. رأيت الجميع في تلك المعسكرات الطليقة. لم يكونوا يحسون أنهم خرجوا من بلدانهم بل لم يكونوا يحسون أنهم قاب قوسين أو أدنى من الحرمين الشريفين. لم يحسوا بشيء أو بأحد سوى أنفسهم.

رأيتهم بأم عيني. لبست طاقية الإخفاء وتجولت بحرية بين مهاجعهم. لم تكن النساء تقود سياراتهن وحسب. كن أيضا يمشين حاسرات الرؤوس، حاسرات الزنود، حاسرات الأفخاذ. كأن الخليفة لم يعد خليفة وشهريار لم يعد شهريار. رأيت الرجال والنساء يمارسن الحب والفرح والحوارات في الليل والنهار ثم يمضي كل إلى مخدعه . ليس لأحد منهم على أحد سلطان. تماماً مثلما نشاهد في الأفلام والمسلسلات. لم يضطر أحد منهم للكذب أو المواربة في أمور الحب ولا في تبادل الآراء. كأن كل رجل منهم مسعود وكل امرأة زوجة شهريار التي لم نعرف اسمها.

كنت مسحورة ومذهولة. فهؤلاء يعيشون معنا على كوكب واحد. بل إنهم يعيشون على أرضنا بحرية ليست على أرضنا.

كنت واثقة من ان الحجاج سيكسب الحرب. عندما يعرف الخليفة أن هؤلاء يمارسون الحب بهذه الحرية ويشربون البيرة كما يحلو لهم، فسيرفض أن يدافع السفهاء عن ديار الخلافة، وسيأمر فوراً بإخراج الجيوش كلها كرمى لحرمة المقدسات وأخلاق الإسلام. ليس هذا فقط: هؤلاء الجنود لن يحاربوا الحجاج بن يوسف؛ هل هناك أحد يترك الحب ويذهب إلى الحرب؟

انسحار وذهول من نوع مختلف أصاباني يوم بدأت الحرب. فهؤلاء اللاهون العابثون انضبطوا في مواقعهم العسكرية، وأرسلوا جنودنا إلى زوجاتهم المحجبات، وأخذوا يملأون السماء بالعفاريت والجن والمردة. ملأوا السماء بأشباح مضيئة عنيفة. كل ما حكيته من العجائب والخوارق في قصص السندباد، كل الطيور المرعبة والحيوانات المجنحة، بدا مثل لعب الأطفال أمام طائراتهم وصواريخهم. لم تستطع تخييلاتي أن تجاري أي شيء من مخترعاتهم ولا مخلوقاتي أن تباري أي أحد من رجالهم ونسائهم. خيالي الذي هلل له العالم كان أضأل من واقعيتهم. نحن نحلم؛ هم يحققون الأحلام. يملكون الحياة.

ثم تحركوا شمالا مع الصحراء. وقيل لنا إنهم مضوا لاقتناص الحجاج بن يوسف. أنا لا أحب الحرب ولا أعرف أن أحكي قصتها. سمعنا أن الحجاج أطلق بعض منجنيقاته، لكن هذه كانت مثل من يطلق ريحا بوجه العاصفة. الحصان الجامح غاصت قوائمه في الصحراء. تحول الحلم إلى كابوس وليس إلى حقيقة. مئة وأربعون حكومة قامت ضد الحجاج: ذلك هو نصره الوحيد. غير أنه لم يكن مسعودي المنتظر.

قبعنا كل ليلة عند واحدة. وكل ليلة كانت التكنولوجيا ترينا كيف يموت الجنود وينكمش الحجاج. يتضاءل. صحيح ما قاله شهريار: أنا اخترعت فانوس علاء الدين ؛ والميجر فكس استخدمه. لقد أحرقوا ذلك النيزك الذي ظنناه في ليالي أحلامنا قادما من عند أختي أفقزاد .

وبعدئذ لم نعد نسمع شيئا. أنا لم أحبب أن أسمع شيئا. من تراه يحب الاستماع إلى بيانات الموت؟ كان شهريار يملأ فضاءات القصر وجدرانه بأخبار الحرب وأصواتها. . وكنت لاأسمع شيئا. ثم هدأت العاصفة. وإن لم ينقشع الغبار. وعدت وصويحباتي نخرج من جديد إلى الأسواق والمجمعات والفنادق، إلى أبواب الصدق والحرية. إلى أي بيت. نخرج وحسب. ولكن لم تعد الأبواب مثل الأيام القديمة ؛ ليس لأن الصدق أو الحرية هاجرا بل لأن اليأس حضر.

عدت أتجرجر مع شهريار إلى باريس. كان هائج الخلايا. خلع غترته وجلابيته وتقمص أوروبا. وأنا خلعت ذاتي في فراغي القاحل ورحت أخرج وحسب. لقد بات كل شيء واضحا: أنا امرأة سكنتها الصحراء وصار لحمها رملا.

ذات أصيل وضعت عباءتي فوق لحمي ونقابي فوق وجهي. ركبت المرسيدس 600 إلى مجمع الصالحين. مرأبتها هناك. دخلت في المريديان. لبست نقاب الإخفاء. خرجت من الفندق. بالصدفة رأيت سيارة تاكسي تنتظر. فتحت بابها ودخلت.أقبل السائق ودخل. مشى بالسيارة الهوينى. نزعت نقاب الإخفاء. لم يندهش السائق لرؤيتي. ابتسم وقال: " كأنك من عصر شهرزاد ولست من عصر النفط. كأنك كنت لابسة طاقية الإخفاء." قلت: "لم تندهش!" اندهش: "أندهش بعد هذه الحرب؟"

مشى بالسيارة الهوينى. نظر كل منا إلى الفضاء. خمس دقائق أو أكثر. والموسيقا تذكر الخاطر ببلاد واق الواق، بالأصوات التي كان بيتهوفن يسمعها وهو أصم. فجأة أحسستني وقعت في شرك. فالسيارة لم تكن تاكسي، والسائق لم يكن سائقاً. وهو لم يسألني و لم ينظر إلي. فرحت .

خرجت السيارة من المدينة إلى شارع المستقبل العربي. وخمنت أنها ستمضي بنا إلى شاطىء السيول .

أردت أن أبتدر معه حديثا غير أني وجدت اللغة خنزيرا داجنا. استدرت يسارا فقابلته. وبدل اللغة فككت أربطة عباءتي وكشفت له عن

جسدي. نظر إلي بشغف مستطير وابتسامة هادئة. قال: "ليت شهرزاد لم تمت، لكي تحكي قصة عن امرأة هتكت الأستار عن المستحيل."

قلت: "أين قرأت أن شهرزاد ماتت؟"

قال: "لم أقرأ. لكن هذه سنة الطبيعة. لم يعد الناس يعيشون مئات السنين."

قلت: "الناس لا تموت إلا إذا مات تاريخها. ما قولك في الحجاج بن يوسف؟"

نظر إلي بارتياب مؤدب وابتسامة ودودة: " الحجاج مات عام714 ميلادية."

قلت:"وشهريار؟ الملك الذي صار أميرا للمطوعين عند الخليفة."

ابتسم كمن سمع نكتة وامتنع عن الضحك تأدبا. قال: "لولا أننا في القرن العشرين لقلت أنت شهرزاد."

نزعت نقاب العفة وأفلتّ شعري وطرحت عباءتي. قلت: "انظر إلي وتمعن في وجهي."

نظرة خاطفة فقط، وبعدها اضطرب: "الخالق الناطق ! تقصدين أنت شهرزاد فعلا؟ صدقيني أنا مسحور ولكن ليس إلى درجة تصديق قيامة الموتى. لم يقم أحد إلا السيد المسيح."

قلت: "أنا لم أمت لأقوم، أنا لم أمت ! صمتّ وحسب. ما عدتم تسمعون قصصي فظننتموني مت. لأن قصصي هي حياتي. لو ظل شهريار مستيقظا لظللت أحكي !"

ابتسم. كان واضحا أنه سعيد بالفكرة، على الأقل. قال: "الحقيقة لا يبدو أنك من أهل هذا الزمان. طيب، ما رأيك في تجربة صغيرة؟ أنا أكتب رواية عن الحرب. ما رأيك أن تحكي لي ..."

قاطعته بقنوط حانق: "الحرب الحرب! أنا لاأعرف الحروب ولا قصصها. ولا أحب الحرب، ولا السياسة. وخير لك أن تكتب عن تحولات الروح في هذا الزمان وعن الخاتمات الشقية لعلاقات الناس

ونوازعهم الحيوانية في عصر البترولوجيا وعن اليباب واليباس والانحدار وموت المغامرة وسندباد ..."

هذه المرة هو قاطعني، ولكن بنظرة طائرة سعيدة: "كفى كفى! أنت فعلا شهرزاد. لكن هذا لا يصدق! كل هذه القرون وأنت حية بيننا!"

قلت: "أنت لست من هذه الديرة."

قال: "صحيح. جئت لأكتب رواية عن ... البترولوجيا، كما سميتها أنت، وما دمرته من أرواحنا ... وموت المغامرة! وهذا هو البيت الذي أعيش فيه. هناك عند الخليج الصغير. هلمي إليه. واكتبي ما تشائين. من جهتي، أنا لن أتطفل على جسدك. سأتطفل فقط على قصتك، لأني سأضمنها روايتي. هل هناك خط في هذه الرمال نسلكه وننجو بأرواحنا؟"

لففت عباءتي علي. قلت:"أنا لن أكتب عن الحرب. سأكتب عن الفرح. والحب والجمال والفن. وبدون نهاية سعيدة هذه المرة، لأني بصراحة لا أرى نهاية سعيدة لكم مثل تلك التي كنت أختم بها حكاياتي إلا بنهاية الذهب الأسود. جاءكم النفط فجاءكم هادم اللذات ومفرق الجماعات."

قال: "عجيب. مؤكد أنك شهرزاد. لكن أحداً لن يصدق."

وكانت الدهشة تترسخ في وجهه بقوة اليقين.

قلت: "وأنت، ما اسمك؟"

قال: "مسعود."

نظرت إليه والانبهار يجتاحني. هتفت: "إن أحداً لن يصدق."

٥ . عيسى بن هشام في بترو أرض الأعراب

نفيطية. بلاد الرمال والسيارات والمصارف ومكيفات الهواء والرؤوس الملثمة. قال د. ربيع أحمد: "نحن شعب أنشأه الإنكليز."! ! قال: "بضعة آلاف تلملموا من عشائر الصحراء. رسم انكليزي حولهم خطاً بقلم رصاص. وقال: كونوا نفيطية جيم. يتكلم المثقفون عن صدمة الحداثة ؛ أنا أتكلم عن صدمة القدَم: عن بدو زادهم النفط بداوة."

وأنا منذ ألف عام مسكون بهدف واحد: أن أثبت لخالقي بديع الزمان أن بوسع الأدباء رفض التكدي تماما، دون أن تنتهك أقفيتهم.

لأجل هذا قبلت كل دعوة وجهت إلي في نفيطية. وكانت الدعوات أكثر مما يمكن قبولها. أردت أن أعرف كيف يعيش هؤلاء، كيف يتعاملون. تلك الهواتف: الفرح والمحبة والترحاب والتمجيد وأجمل التمنيات. لغة موحدة والتفاصيل هي نفسها. أسعدهم أن يقدموا أسماءهم، وأرقام هواتفهم. أسعدهم أكثر أن أقبل دعواتهم إلى واحد من ألفي مطعم تترصع بها نفيطية؛ حيث تدار الوسكي في أقداح الشاي والكولا البريئة، وتدور الأحاديث حول تأثير النفط في الحياة العربية، ومباريات كرة القدم، وإبداعات التكنولوجيا، والمعجزة اليابانية .

ثم د. سالم يرسل لي من المجلس الأعلى للثقافة كتابا للتحكيم، وعلى الهاتف يقول: أنا واحد من تلاميذك. د. مناف يوجه من المجلس الأعلى للتخطيط دعوة لإلقاء محاضرة بعنوان: حاجة الانسان العربي للثقافة والفنون. د. فهد يطلب باسم المجلس الأعلى للطفولة العربية "حديثا مكتوبا" عن أثر المقامة في تربية الطفل العربي. د. راشد يرجو باسم المجلس الأعلى للصحافة إقامة ندوة عن معالم الحداثة في الأدب العربي. الدكتور العميد يطلب محاضرة عن تاريخ الصهيونية. د. حنفوط يلح على مشاركتي في ندوة المجلس الأعلى للإعلام عن التحرير الثالث لثالث الحرمين الشريفين. الأستاذة الدكتورة شيماء تعتبر حلولي في كلية الآداب بركة ثقافية. و د. ربيع أحمد يبحث طوال أسبوعين إلى أن يلتقيني في حفل استقبال مدير الجامعة للأساتذة الجدد. يعانقني مثنى وثلاث على الطريقة الأعرابية .

أغاظني في هذا الأوج من الحفاوة غيرة محمد عربي محمدين منه. عرفت عربي أول يوم دخلت فيه القسم. وخلال ثلاثة أيام كان سعيدا بي سعادة جعلته يدعوني إلى مطعم الجامعة، فيدفع ثلاثة دولارات ثمنا لغدائي.

غير أني، وفي نهاية الأسبوع الثاني، وقفت في مكتب السكرتيرة آمال عاجزا عن اعتقال دمعتي قهر أفلتنا من عيني.. كانت قد قالت لي: "لازم تروح رئاسة الجامعة يا دكتور." نظرت إليها شبه مذهول: "أنا الآن واصل من رئاسة الجامعة!" قالت بمواساة: "لازم تروح لحاجة ثانية." وضعت رؤوس أصابعها على كتفي، هي المرأة المحجبة، ومدت بيدها الأخرى مفاتيح سيارتها: "ضروري تروح يا دكتور،" هتفت بصوتها المؤمن الأنيس .

قلت: "أليس لازماً أن يعطيني رئيس القسم نشرة بما يجب أن أعمله؟ يتركني ثلاثة أسابيع أتخبط في عمل ما يمكن عمله بثلاثة أيام ! ألف مكان ومكان علي أن أقصده وأنا لا أعرف أن علي أن أقصده ولا أين ! "

عضت هي على شفتها، وجاست نظرتها حولها. من لا مكان نبق عربي وسحبني من يدي إلى ركن آخر. انشحن بؤبؤاه وملامحه بالذعر، وكذلك قبضته الغليظة الطاحنة التي هرست أصابعي: "كيف تجد التدريس؟ رائعاً، ما؟" نبر بصوت عال. ورجتني نظرة متواطئة منه أن أصمت تماماً عن حديث رئيس القسم.

أحسست أن حريتي مهددة .

بوسع أي كاتب أن يصف القسم. ولكن ليس بوسعه التقاط أسراره العنكبوتية. ذلك النوع من الوحشة الخرساء، الشبيهة بتكتم متواطىء على فعل شائن ... ثم الهيصة والريعان اللذان ينبثقان فجأة من هذا الرواق أو ذاك، فكأن الموتى قاموا من قبورهم، عندما يلتقي لفيف من الدكاترة السعداء ويتبادلون التحيات الرغيدة. وجوههم طيبة. يثيرون مسائل جدية ومشاريع كبرى لتطوير التعليم والبحث العلمي. يتوجون الإثارة بالتفاؤل والثقة بـ "إلى اللقاء." ثم الانفجار الأخرس لكل ابتسامة وحركة، وتحللها في ماء الصمت .

رأيت البواكير في أول اجتماع لمجلس القسم. بعد دقائق من بدء الاجتماع – الذي تأخر نصف ساعة على عادة بني عرب، فشحنني بالاشمئزاز – دخل إلى القاعة صوت المؤذن المنبعث من مسجد الكلية. نهض محمد سامي محمدين، رئيس القسم. نهض معه ثلاثة آخرون. نظرت إلى ما يجري كأن المكان لم يعد قاعة اجتماعات وإنما صار مسرحا. تمتم محمد سامي: "بقدر ما يؤسفني ضيقكم لقطع الاجتماع، يسوؤني أن تفوتني الصلاة لله في بيت الله"، قالها بالانكليزية وخرج .

التقط محمد عربي محمدين يدي من تحت الطاولة، وطحنها بقبضته الغليظة التي لا ترحم. كنت موشكا على الصراخ أن الله لن يسوءه تأخير الصلاة وعقد الاجتماع، فوجدتني أصرخ من ألم يدي. قبعت في كرسي والغيظ المنضغط يمنعني عن الفهم. أليس لدى أربعين دكتورا ودكتورة [illegible]

باستثناء رئيس القسم لم يذهب أحد إلى الجامع. و لم يغادر أحد. كان الاجتماع لم يبدأ بعد. وخلال ثوان نبقت أحاديث ثنائية وثلاثية، وأثارت مسائل جدية ومشاريع كبرى لتطوير التعليم والبحث العلمي.

ذلك المساء قال عربي لي: " الآن افتح لك حسابا في بيت المال الإسلامي، لتحول راتبك الجامعي إليه. "

كنا نمشي على الشارع المحاذي لخط الشاطىء. ألف شجرة وستون فيلّا، ومدرسة ثانوية صارت فيما بعد كلية الآداب. هتفت: "بيت المال الإسلامي! يا للإسم الرائع! أنا أشم رائحة عمر بن الخطاب. لسوف أكتب قريبا مقامتي الإسلامية. بيت مال إسلامي توضع فيه البترودولارات!"

نبر عربي: "طوّل بالك. أنت رحت بعيدا ."

قلت: "وتقوم المشاريع التنموية، وبيوت العلم، والتكنولوجيا، والصحة المجانية ..."

نبر عربي: "طوّل بالك ! طوّ ل بالك !"

استمر يرشني بأنصاف عبارات عن بيت التمويل الإسلامي. واضطررت إلى فتح فمي أنا الآخر: "خلاصة القول، أذا وضعت دولاراتي في بيت المال حصلت فقط على نصف ما أربحه من البنوك العادية. وإذا أخذت منه قرضا، دفعت ضعف ما أدفعه للبنوك العادية. وبيت المال الإسلامي يسمي ذلك مرابحة بدل أن يسميه ربا ونهبا. نحن فعلاً شعب تدوخه اللغة."

"لكن أنت تحصل على ثواب ورضوان من الله ! وفوق هذا سيقول الجميع إنك نعم المسلم ! وخاصة في القسم."

أحسست أن حريتي مهددة. وأني إذا أصررت عليها، صرت ناشزا ومثيرا للشبهات: هل أبحث عن مخالفات؟ هل أنا ساخط على رئيس القسم؟ هل أنا شيوعي؟ هل أنا من جماعة الأمر والنهي؟ لماذا أسأل

أسئلة؟ لماذا أدلي بآراء؟ لماذا أتخذ مواقف قاطعة؟ كيف يمكن أن يثق أحد بي وأنا كاتب؟

قلت لنفسي: يجب أن أكون حكيما وأحافظ على أفضل فرصة عمل حصلت عليها في حياتي. وطرت إلى المطار لاستقبال عائلتي القادمة. هناك تبادلنا عناقا متأنيا وقبلا باردة، فالمطار مكان علني لا يسمح بابتذالات عائلية.

لم أطق صبرا. ما إن حللنا في شقتنا الجامعية حتى رحت أشكو لدنيازاد ضيق روحي وقلق خواطري. لكن يسرى وياسر أبادا تلك النجوى التي احتجت إليها مع أمهما. لم يغرقا فقط في الهدايا التي ملأت بها الصالون، وإنما طغى صراخهما وهياجهما على كل شيء آخر. ثم انضمت إليهما الأم التي لم تكن أقل طفولة، ولا أقل فرحا بهداياها. واختتم الثلاثة احتفالهم ذلك المساء بأن أغاروا على جيوبي، ونبشوا أوراق سيدنا الدولار منها. هذه المرة لم تكن ورقة واحدة ما أمطرته السماء في الصالون، بل عشرات.

مع نهاية الشهر الأول لم يعد أحد يدعوني إلى حديث أو ندوة، ناهيك بالويسكي المحجبة والأطعمة الهارونية. ومنذ ذلك الحين إلى أن عادت نفيطية إلى القرن الثامن، لم تأتني دعوة من أي نوع، لم أكلف بمراجعة كتاب، ولم أشارك في ندوة صحفية. كان واضحا أن مثقفي نفيطية، الذين أقسمت يوما أنهم من الوزن الثقيل، قد أصيبوا بانحلال الذاكرة.

قال د. ربيع أحمد: "دعوك إلى مجالسهم لغرض واحد. أن يتبجح كل أعرابي أمام الأعراب بأنه جلس مع عيسى بن هشام: الاسم، لا الشخص. تمّ لكل واحد منهم ما أراد. الآن، أنت مجرد أجير. سيحتقرونك كل يوم أكثر من اليوم السابق. لأنهم يدفعون ثمنك."

وقال عربي: "وأنا ما لي وما لهم؟ أنا هنا لغرض وحيد واحد: أن أعود لولدي برأسمال صغير يؤمن مستقبلهم. يريدون تنازلات؟ ليأخذوها. طظ. هم يحتقرونني؛ وأنا أحتقرهم أكثر. أنا أبتسم عندما يجب أن أبصق.

أقبل عندما يجب أن أحتج. أمدح عندما يجب أن أشتم. أتلمّظ عندما يجب أن أتقيّأ. هؤلاء ليسوا أهلا للمواقف المبدئية. وأنا فاوست العربي الذي باع روحه للبترودولار."

قلت: "أنت سندباد معاصر."

هزهز رأسه وجثته الضخمة متمارحا مستفشرا: "لكني أحسدك. بعد أربعة أشهر ونصف تغادر هذا الجحيم الذي نزلت فيه أرواحنا."

نظرت إلى عربي محمدين متحيرا: "أنا مدعو إلى هنا لمدة سنة!"

هز رأسه بنفي قاطع: "أربعة أشهر ونصف. ولكن لا تذع هذا عن لساني."

"أنت مجنون! معي برقية من العميد تقول إني مدعو أستاذا زائرا لمدة سنة."

"محمد سامي والاستاذة الدكتورة غيروها. لكن لا تذع هذا عن لساني."

الأستاذة الدكتورة. يحرص عربي محمدين على أن يتفادى حتى اللقاء العابر بها. "أنا عندي لوثة ابن الرومي، أخي عيسى. يتنغّص حظي إذا شفت منظرا قبيحا." كان قد عاد من عند طبيب القلب نصف مطمئن إلى أنه لن يصاب بسكتة قلبية ذلك الشهر. وقال إن الاطمئنان سيصير كاملا يوم يتخلى عن خمسة وعشرين كيلو من وزنه الحبيب. وأعلن أن مئة الكيلو التي تحملها فقراته وعظام رجليه لن تقبل قط أن تمنّ على الأستاذة الدكتورة بضغطة مليئة واحدة.

وفجأة الأستاذة الدكتورة. وجها لوجه. مزيج مخاتل لا يصدق من الحسن والبشاعة. لكن الذعر الأولي من رؤيتها يدحر الغبطة اللاحقة.

انحنى عربي أمامها ومط رقبته الخنزيرية. مد يده؛ وأكاد أقول: مد لسانه، مثل من يهم بشمشمة ولي من أولياء الله. "كيفك يا مولاتي؟" سألها بلهفة ورهبة وحنان. وكيف رضاها عليه؟ وماذا تبدع في هذه الأيام

من أبحاث؟ ومتى يمكنه التشرف بخدمتها مع صديقه د. عيسى بن هشام؟ وأين تريده أن يقاتل لأجلها؟ ولماذا لا تزور القسم؟

أتذكر الآن صورة قامته المتهزهزة - كتلة من الشحم واللحم الرماديين. وضحكته المسأسئة بعد ذهابها، الشبيهة بعفعفة ضبع. وفمه يجأجىء بتهنئتي على حظي السعيد: "قالت لك: ومن لا يسمع بعيسى بن هشام! يعني خلص! أستاذ زائر لمدة سنة. وربما عقد عمل بعده. بكرة صباحا، اطلب مقابلتها. اضرب حديداً حامياً ..."

قلت: "مؤهلاتي تكفيني أخي عربي. لماذا الواسطة؟ أنا عندي عشرون كتابا، ومئة مقالة. غير مقاماتي."

"مؤهلاتك بلطط!" (نشأت كلمته الأخيرة من انفجار الهواء بين شفتيه.) أنساني اعتكار وجهه وقلقه ضيقي من خسة تعامله مع الأستاذة الدكتورة. وسربلتني عيناه بأخوة شجية صافية، فجردتاني من غضبي. قال: "يا صديقي وضعك صعب. سامي لن يقبلك في القسم. أنت تهديد لمركزه. أنت تهديد للجميع."

قال عربي إن سامي هو من صيّر الاستاذة أستاذة. "ولكن لا تذع هذا عن لساني." خلال السنوات الأولى من عمله في القسم وطّد نفسه عبر هذه التجارة: يكتب بحوثا لهؤلاء الأعراب، يترقون بها إلى مراتب الأستذة. ويعمل لأجل نشرها في مجلات جامعية يعرف هيئات تحريرها. ثم اكتشف لسعادته البالغة - أن هناك جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تمارس هذا العمل الخيري في الجامعة كلها. فهذه التجارة رائجة تماما بين أثرياء النفط وأثرياء العلم. انضم إلى الجماعة. ومنذ ذلك الحين لم يغب عن صلاة واحدة في المسجد. "سامي خليفة في القسم! الويل لمن يصطدم معه. لكن، لا ترو هذا عن لساني عدني."

قسم المتكلزين والمتكلزات: طلال ضد ناصر، وناصر ضد جواد، وجواد ضد بلقيس، وبلقيس ضد نافط، ونافط ضد إلهام، وإلهام ضد

سبيكة، وسبيكة ضد المهدي، والمهدي ضد نفطانة، ونفطانة ضد نايف، ونايف ضد سامي، وسامي ضد الجميع .. وكل ضد كل.

"أقول لك سنة، يعني سنة"، هتف بوجهي د. حمدوك. "هذه وساخات هذا القدر محمد سامي. من وراء ظهري، الكلب، يغير قرار مجلس كلية . ولكن .. من مصلحتك أن لا تذيع هذا عن لساني."

لم أستطع نوما ذلك الليل. انسللت من جانب دنيازاد، وخرجت أتمشى على الشارع البحري. لم تكن ثمة رائحة. فقط لذعة برد خفيفة منعشة. وأشجار السدر والكينا. وتلك الفيلاّت المبوّقة بالشجر. فأضواء الكهرباء المنثورة مع امتداد البحر.

سمعت صوتاً في الفضاء قبل أن أرى وجهاً . التفتّ وإذا أبو الفتح الاسكندري يدور بحركة إهليلجية رعناء مختبطة. تملكني دهرمن العجب. لكن صوته لم يمهلني:

أنا من ذوى الاسكندرية   من نبعة فيهم زكية

سخف الزمان وأهله   فقصدت فضل النفطوية

صرخت به: "ويحك، رميتني في هذه البلاد، وجعلتني عبدا لمن هم أسوأ من بديع الزمان !"

فأخذ يترنم ويرفرف حولي:

ويحك هذا الزمان زور   فلا يغرّنّك الغرور

لا تلتزم حالة ولكن   در بالليالي كما تدور

وتابع تحويمه حولي إلى أن قال: "تلقف أخباري من تلفزيون نفيطية أيها المنصب التذكاري". ثم طار في الفضاء.

وقفت في سكون الفجر وصمت الطبيعة مبدد الخاطر. مذ وطئت قدماي هذه الديرة وأنا خائف من الناس، وخائف على لقمتي. سمعت

مجهر الصوت يعلن قيام الصلاة. ماذا لو صليت صلاة الجماعة وكسبت حسناتها المضاعفة !

كانوا كلهم هناك. أو هكذا خيل إلي. محمد سامي محمدين ومحمد عربي محمدين و محمد مختار محمدين و... جنبا إلى جنب في حالة خشوع مطلق وأخوة سامية .

لم أجدني قادرا على المشاركة . أنا رجل لا يطيق غير الحق والحقيقة. تخليت عن الثواب المضاعف، وتسللت إلى زاوية عتماء فصليت وحدي. ثم أسندت ظهري إلى الجدار. عبر تهويمات النوم،سرحت عيناي في المكان الذي خلا تماما بعد أداء الصلاة، وبانت وحشته.

قال د. ربيع أحمد: "عندما كنت فتى كنت أقول لنفسي: إما أنا وإما عالم الأخطاء هذا. لذلك فخّخت قنبلة موقوتة في سيارة ولي العهد، وجهزت قنبلة ثانية لسيارة الخليفة. وقنابل كثيرة لكل ورثة الميجر فكس في هذه الصحراء، الذين صنعوا دولاً وكيانات سياسية غصبا عن الطبيعة، بدل أن يتركونا نصنع وطناً موحداً. فما كان من الخليفة إلا أن أرسلني إلى الولايات المتحدة لأتخصص في الفلسفة. ومع حصولي على الدكتوراه، غدوت مقتنعا بأنه يحق للخليفة أن يتحاور معي ويدلي بآرائه، دون أن أرد عليه بالقنابل. ولكن صدقني مستحيل. مستحيل أن تعيش وأنت في القرن العشرين مع هذه الخلطة العجيبة من الجاهلية، والقرن العاشر، وعصور المماليك، والنظام القبلي العائلي، في كيان سياسي لديه جامعة وتلفزيون وبرلمان."

وقالت دنيازاد: "وطّد صداقتك مع الدكتور ربيع. سيكون له شأن في المستقبل."

قلت: "نشكر الله أنها موطدة قبل أن تنطقي كلامك الانتهازي هذا."

قالت: "رجاء يا عيسى ! أولويات الحياة هي الأطفال .. وأنا. الاعتبارات الوحيدة التي لها قيمة: حياتنا وعيشنا. شف أختي شهرزاد

وحالتها الآن. معقول يا عيسى أن تكون الأسئلة أهم عندك من ياسر ويسرى ودنيازاد؟"

صدر سؤالها الأخير بنبرة. وأعقبته هزة رأس صغيرة جعلت شعرها الخرنوبي السيال يتمرجح حول كتفيها المدورين وجيدها الشامخ. أحسستني بركة ماء انفتحت قنواتها في كل اتجاه .

" تشرب قهوة جديدة؟" سألتني. فهمت أنها تعد العدة "للمبادرة" جديدة. قلت: "المغلاة مليئة، ما تزال. حاذري يا مدام. نحن هنا لنجمع مالا للأولاد، لا لنبدده ."

أنصتت بلا نبسة إلى محاضرتي التي استفاضت عن مكانة الاقتصاد (بمعنى التوفير) في الحياة العائلية، وعن التضاد الجدلي بين الغنى والانسانية: يزيد هذا فتنقص تلك .

وإذ توقفت أخيرا، موقنا أني وضعت جميع النقاط (والحركات) على جميع الحروف، ابتسمت هي وزادت لي من القهوة."تفضل"، قالت وهي تعيد الفنجان، لا إلى مكانه بل إلى يدي .

تفضلت. حسوت حسوتين، هانئا باستراحة المحارب. قالت: "جارتنا هيام، اشترى لها زوجها الدكتور هيمان بي إم دبليو بعشرين ألف دولار. وسجلها باسمها". وأشعلت سيجارة ثانية بلا اكتراث .

قلت: "واضح أن هيمانك هذا هيمان."

تابعت: "وبالتقسيط المريح. من بيت المال الإسلامي. سبعمئة دولار بس،في الشهر، لأربع سنوات. وأنت، ألست هيمانا؟ "

قلت: "أين الأولاد؟ "

تناولت فنجانها وأجابت بلا اكتراث: "طلعوا يشتروا حاجيات صغيرة."

أخذت شهيقا عميقا طلبا للصبر: "حاجيات حاجيات ! أين الأولاد؟ خرجوا يشتروا حاجيات ! هل بقيت لعبة في الجمعية لم يشتروها؟ هل بقي قضيب شوكولاته؟ أو نوع جبنة؟ "

لطمت دنيازاد ركبتي بظاهر أصابعها: "خلهم يفرحوا يا رجل. قليلة كانت معاناتهم في المهجر. لماذا؟"

انفتح باب الشقة باندفاعة هائلة ودخل ياسر ويسرى كزوبعتين منزملتين. لقد اشتريا كل ما يمكن لحرمانهما أن يتخيل أو يستوعب، وهما الآن يحملان سفنهما الفضائية. وفي البهو (٦٤ م) أسقطا عنهما برميليهما، وجعلا يرقصان كسعدانين أمازونيين.

لا أسماء عندي لأربعين مادة ونيّف، استلقت بين أقدامهما كالأضاحي. أستطيع فقط أن أتكلم عن الذهول الديناميي الذي زوبع في بدني ورأسي. فعلى الفور أمرتهما بأن يحملا كل شيء إلى غرفة الخدامة.

نظر الشقيان إلى أمهما طلبا للنجدة. وبالطبع لم تكن دنيازاد بالزوجة التي تكسر كلمة زوجها كرمى لرغبة ولديها. أسرعت تحمل بعض القطع وتقول: "يا الله اسمعوا كلمة البابا."

تلاشت الزوبعة. تحولت المشتريات إلى مجرد جثث هامدة. انقلبت العيون السعيدة إلى فوهات بكماء. وغمغمت يسرى: "أصلا هذه الجمعية بايخة ولا شيء فيها."

استمر التوتر الصامت قرابة أسبوع. وكنت مصرا أن لا تقع أسرتي الصغيرة فريسة للمجتمع الاستهلاكي. ثم حدث ما أكد صواب موقفي وجوهريته.

إليكم ما كان بديع الزمان سيسميها "المقامة الكندية". إليكم قصة تشارلز كامبل من كندا، الذي نامت ترقيته في أروقة الكلية أربع سنوات، بعد الموافقة عليها من المحكمين الخارجيين.. الذي قادته أمانته وسوء طالعه إلى أن يطلع طلابه في (الأدب المقارن) على المواقف المتناقضة للمستشرقين إزاء الإسلام.

قبل يومين من نهاية تشرين الثاني، تلقى تشارلز كامبل رسالة شكر وداعية من الأستاذ الدكتور المدير. إن رسائل الشكر هذه التي يوجهها مدير الجامعة إلى من تنتهي عقود عملهم، أقبح وأفدح ما ابتكره البشر من

وسائل التكريم. فتشارلز لم يكن ليحصل في كندا على نصف راتبه هنا – إذا حصل هناك على عمل.

أقفر قسم اللاغين واللاغيات المتنكلزين والمتنكلزات من أساتذته أسبوعا. لم يلتق أحد بأحد هناك، سوى تشارلز وأنا. سبعة وثلاثون سندبادا وسندبادة، لم يجدوا مناسبة لزيارة مكاتبهم طوال أسبوع. كانت محنة تشارلز إنذاراً مرعباً لكل منهم بإنهاء عقده. لقد عرف سامي كيف يقض مضاجعهم.

قال عربي: "صحبتك لتشارلز ستؤلب عليك جماعة الأمر والنهي والأصوليين. لا تعطهم فرصة لاتهامك بالإلحاد. ولا تنس هياج العالم الإسلامي الآن ضد الملحد سلمان رشدي. أول الأشياء أولا، أخي عيسى. وقوفك مع تشارلز، سيعطي فرصة هائلة لسامي لينهي عقدك."

كان تشارلز طويل القامة، خجول اللسان، هادىء المحيا. قبل أسبوعين من رسالة "الشكر"، أسمعنا دردشة عن آخر المدارس النقدية: ما بعد الحداثة، ما بعد البنيوية، التفكيكية. وفجأة، وبنقلة مروعة من المعقول إلى اللامعقول، وضعنا سامي أمام سؤال مستحيل: هل نحن مع تشارلز أم مع الإسلام؟

قلت لدنيازاد: "تشارلز هو الأستاذ الحقيقي الوحيد في القسم، والوحيد الذي يصلح لرئاسته."

أشفقت علي من غضبي وتمتمت: "رح أنت والدكتور عربي، العبوا شوطين بالطاولة، وفشّوا خلقكم واحدكم للثاني."

قال عربي: "كان يجب أن تفهم أنك منذ وطئت قدماك إسفلت هذه البلاد بعت عقلك ومواقفك للبترودولار. لا تعمل نفسك دون كيشوت. لا تدعُ لاجتماع، ولا تطلب مقابلة المدير، ولا تتفوه! أنت بيتك من زجاج."

نظرت إليه باستغلاق تام: "هذه البلاد بحاجة إلى الحجاج بن يوسف، لا إلى عيسى بن هشام."

تمتم عربي بثقة غريبة: "سيأتيهم الحجاج بن يوسف."

دمدمت بسخرية: "وعلى هيئة جني يشق جدران المساجد."

هز رأسه بنفي قاطع، ثم بتوكيد عصبي: "أنت لا تفهم. دع الرزنامة جانبا. مدير الجامعة نفسه حاز على الدكتوراه وفر بها عائدا إلى القرن الثامن. كلهم هكذا: يهبشون حاجاتهم من القرن العشرين ثم يعودون ركضا إلى القرن الثامن. إذا كان هذا الجاهل رئيس جامعة في القرن العشرين، فكيف لا يظهر الحجاج ليؤدبهم؟ سيأتيهم الحجاج، وسيذلهم. ولكن لا تذع هذا عن لساني."

يوم دخلت المكتبة لأول مرة سرى بي فرح غريب، ومتواطىء أيضا: إذا كان لا بد من السكوت عن قصة تشارلز وقصص كثيرة غيرها، فعلى الأقل أدخل المكتبة، حيث لا سكوت عن شائنة، ولا جهد إلا العلم النبيل. سأشرع في بحث ما بالإنكليزية. ألم يقل عربي إنهم لن يعترفوا بأستاذيتي ما لم أكتب بحوثا بالإنكليزية؟

المكتبة. رواق بين رفوف كتب. في أوله وآخره فِناءان إهليلجيان، رفوف كتبهما صفت كأضلاع دائرة حول مركز تتوسطه طاولات الشغل. في الفناء الثاني رأيت جملا ذا سنام واحد، مرتخي الأشداق، يعلك، يعلك. نظرت حولي وإلى جسدي. نظرت إلى الفِناء: هناك جمل، ذو سنام واحد، يعلك، يعلك، ولا يتحرك منه سوى مشافره. وهناك دكاترة وطلاب يشتغلون.

عدت أدراجي نصف مهرول. عبرت الرواق إلى الفناء الأول. موظفو المكتبة. شغيلتها. الطلاب. صناديق البطاقات بحسب المؤلف وبحسب الموضوعات. مسند الجرائد. جريدة الغارديان. رفوف الكتب.

استدرت عائدا إلى الِفناء الثاني. لم يتغير المشهد. الجمل هناك. وأنا لست نائما. والجمل يمط رقبته. يتناول بمشفريه كتابا. أغمضت عيني برهة. قرأت آية الكرسي. فتحتهما. من انتفاخ حنك الجمل فهمت أن

الكتاب قد صار في الداخل. لعاب غدده يتغلغل الآن في أوراقه ومعانيه. لعله شيكسبير. أو لعله فرويد. أو ربما ابن خلدون نفسه، أو امرؤ القيس.

انشق أعلى الجدار. وبرز ت منه يد معدنية فضية تحمل كتابا. لعله شيكسبير أو ابن رشد. وضعت اليد الكتاب في الفجوة التي خلّفها شيكسبير وراءه.

لم يكن في سيماء الأساتذة والطلاب أي أثر للامعقول. هل رأوا الجمل؟ هل لم يروه؟ هل هو روبوت؟

درت على عقبي وهرولت مبلبل العقل إلى شقتي.

لم يكن اندهاش دنيازاد أقل من اندهاشي. "الجن حقيقة. موجودون. وهذا مثبت في القرآن الكريم"، غمغمت بحكمة تحليلية، "أما أن يلبس جني جسم جمل، فهذا ما لم نسمع به من قبل!" لم تكن استحالة هذا التلبس ما أثارها، وإنما الانحطاط الذي فيه: "جني يتشرشح ويسكن جملا!"

قلت: "لعله جمل يريد أن يكون سفينة الثقافة بدلا من سفينة الصحراء."

قالت: "اسأل أمين المكتبة، هل هو جمل جمل، أو جني ركب جملا؟"

قلت: "مستحيل. لو هو جمل جمل سيعتبر سؤالي تدخلا وقحا. ولو هو خيلة أو جني، سأعتبر كافرا. نحن في غنى عن مشاكل سلمان رشدي."

وتمتمت هي برخاوة: "على رأيك. نحن اتفقنا أن لا نتدخل في ما لا يعنينا."

انتبهت إلى صمت البيت وسكون مساحاته. داخلني الارتياب. سألت دنيازاد بنبرة تهديد: "أين هؤلاء السعادين؟" فأشار وجهها بفتور قبل أن يشير لسانها: "نزلوا يلعبوا في الجنينة."

قلت بالنبرة ذاتها: "في الجنينة أم في الجمعية؟"

هزت رأسها بغفران: "جمعية، جمعية! حرام عليك."

لم يتح لي وقت لتذكير دنيازاد بآفات الحياة الاستهلاكية، وضاعت عليها حكمتي، إذ انفتح الباب بقوة داهمة ودخلت منه أصوات يسرى

وياسر السعيدة المتقاطعة المتنابرة. مع اقترابهما ألقت عيناي القبض على دنيازاد ترقباً وارتياباً. وفعلا عندما برز الطفلان في أول الصالون وشاهداني تحولا في التو واللحظة إلى حجرين. سقطت المشتريات من حضن ياسر، ثم من حضن أخته. وفغر فماهما في انتظار مستسلم للقصاص الذي ترقباه مني.

غمغمت دنيازاد: "عيسى، لا تعمل للولدين شيئا. ليس ذنبهما أن أطفال المساكن كلهم يشترون، وأكثر منهم بعشر مرات."

غمغمت أنا الآخر: "وأنت سعيدة بإصابتهم بهذه العدوى."

"لا. لكن لا أحد يمكنه أن يقاوم هذا التيار."

قلت: "سأريك أن هناك من يقاومه". هجمت على مشتريات الولدين. في ثوان حطمتها وأتلفتها ومزقتها. ونظرت إليهما فعرفت أني حطمت قلبيهما الصغيرين أيضا. قلت: "اسمعوني. أنا أفضل الموت جوعا، على أن تصيبكم آفة الاستهلاك والبطر".

أمضى ياسر ذلك المساء في غرفته، ويسرى في غرفتها، ودنيازاد في غرفتنا. وبقيت وحيدا في الصالون أقرأ بحوثا ومراجع.

عندما رأيت الجمل في اليوم التالي، اقتربت منه اقترابا خطيرا. شممت رائحة طيبة تنبعث منه. رمقت الأساتذة والطلاب بحثا عن رد فعل يصدر عنهم. لم أظفر بغير القليل المألوف من النظرات الحيادية الخاملة. ورأيت مشافره المعافاة تلتقم كتابا عنوانه (البنيوية). ورأيت الذراع المعدنية تنبثق من أعلى الجدار حاملة نسخة بديلة، فتضعها في فراغ الرف ثم تختفي داخل الجدار. رباه! كم إن التكنولوجيا في خدمة الجمال! اقتربت منه واقتربت حتى أوشكت المسافة أن تنتفي بيننا. لكني لم أجرؤ على لمسه، ولا على الدخول فيه – بالطبع. لم أظفر بغير تلك الرائحة النافحة.

سوى أني تلمست في الضحى التالي المظروف الناعم الأملس، وأدخلت أصابعي فيه. تمعنت سماءه الزرقاء.

كان إشعارا من البنك بتجليات سيدنا الدولار. فحتى يوم ميلاد سيدنا المسيح كان قد تراكم في حسابي مبلغ لا يمكن الإعلان عنه. في ذلك اليوم القدوس، تَدَوْلَر عيسى بن هشام.

أستطيع أن أصف نجما وسماء وفلكا .. أن أصف مشاعر امرأة تلد .. ولكن ليس سكرات الذهول والارتجاف والغرابة، وأنا أقرأ على الورقة الشفقية أن راتبي كل شهر هو ثلاثة آلاف دولار .

عدت إلى الشقة وأنا أرتجف. اندسست في الفراش وكلي اهتزاز ورعشات. قلت لدنيازاد: "دثّريني بكل ما عندنا من بطانيات ودثارات."

بعد إنصات صامت وصبور، هزت رأسها باشفاق ونفرة: "بكرة تتعود. وتصير ترى المبلغ صغيرا. لأنه فعلا صغير بالنسبة لما يستحقه واحد مثلك. أو لما يكسبه غيرك من التيوس."

هتفت يسرى من غرفتها: "بابا، إذا كنت خائفا من كبر المبلغ، أنا أصغّره لك."

واقترح ياسر بنبرة جليلة : "في الجمعية سيارات عجيبة معها جهاز تحكم. تقدر أن توجهها في جميع الاتجاهات وأنت واقف" . ومثل من وثق أن حصوله على السيارة مسألة وقت لا أكثر، تذمر قائلا: "المشكلة في هذا البيت أنه مغطى كله بالسجاد. كيف تمشي السيارة؟"

رأيتني في أرخبيل من الظواهر المفزعة. هذه الأسرة الصغيرة، التي هي ملاذي الأول في عالم شرس، توشك أن تفقد البساطة والقناعة، وتستمد فرحها من حجم مصروفها.

قال عربي: "الجمل رمزنا القومي، حبيبي. الله خلقه خصيصا كرمى لنا. لولانا لما خلقه."

"يعني في المكتبة جمل، وأنت أجبن من أن تقول الحقيقة. قصة تشارلز أدّبتك."

التفت إلي وقد استطار وجهه بلوعة شريرة: " إذا لم تتعلم التطنيش مثلي، سيأكلك حيوان من داخلك ذات يوم. اقبض راتبك كل شهر واسكت."

دخلنا المكتبة. الفِناءالأول. الرواق. الفِناء الثاني. ولكن، هذه المرة لم يكن ثمة جمل.

هبط علي إحباط قانط مرير. نظرت إلى عربي وقد تحقق أسوأ مخاوفي. تمتمت: "عربي ! اختفى الجمل!" لم يبد عليه أنه تأثر بشيء. هذه المرة هو الذي شدني من إبطي – باتجاه الخارج. قال متمارحا: "لعلهم أخذوه إلى دورة المياه. وهو الآن يتمرررحض !"

توقفت عن المشي وهتفت: "يعني كان هناك جمل، وأنت مثلي الآن، لا تراه !"

" أنا أكلمك على قد عقلك. أجاريك، حبيبي، أجاريك. رغم أن صورتك في القسم أنك صاحب آراء على طول، ولا تكف عن الأسئلة والاقتراحات. افرض أنهم عودوا الجمل على التقيد بإشارات المرور الضوئية، مثلا، احتفاء منهم بالتراث؛ أنت ماذا يخصك؟"

السماء تمطر تراثا ورملا في نفيطية. تنسد مسام الفضاء بنثار الصحراء. ومع كل تنفس، يتغلغل الرمل في تلافيف الرئتين.

السماء سديم بركاني في نفيطية. يعرق بالحذر والتربص والخبث. يرحل الغبار ويبقى اللامعقول .

رتب الدكتور محمد نايف محمدين جسده على الكرسي، واتخذ هيئة أستاذ مساعد مدعو لرئاسة القسم بعد الإطاحة بمحمد سامي محمدين. قال: "إذا كانوا أهدروا دم سلمان رشدي وهو في لندن ! فماذا سيكون مصيرنا ونحن هنا، إذا قلنا كلمة واحدة لأجل تشارلز؟" وهز رأسه كمن يلتمس معونة الله على شخص في مخه وشيش. قال: "أجازف بطعام أولادي وشقاء عمري في صحراء لا أمان فيها! لماذا؟ سيبتروني. إلى أين أذهب بعد ثلاثين سنة شغل هنا؟"

استرخيت على الكرسي. هل ستسمم دمي يوماً هذه المرارة والكراهية؟نظرت إلى نواف: كان له في تلك الآونة وجه رجل أوقع نفسه في شر أقواله. لم يعد يجديه القول: ولكن لا تذع هذا عن لساني.

بافترارة صفراء خاثرة، غمغم نصف مهدد: " أنت عنصر خطر في هذا القسم. أنت تستدرجنا إلى الحديث بصراحة عما نعانيه". وراح يتفرس بي تفرس إنسان أحبطه أنه لن يستطيع اقتلاع أقواله من ذاكرتي .

كان نايف كث الشاربين، ضيق العينين، محدودب الكتفين. وكانت له ربطة عنق طويلة، وملساء كالفراء. إذا مشى تهزهزت قامته المديدة. وإذا جلس تهزهز رأسه وعنقه .

ودّعته بأقل الكلام، وتجرجرت إلى شقتي.

استقبلتني دنيازاد بحنان ابتسامتها وحرارة فنجان قهوتها. غير أن سيجارتها التي تخندقت بين إصبعيها أضافت وهجا ثالثا: هذه المرأة الخلابة في طريقها إلى مطلب جديد .

قالت: " أنت تأمّنت لك هذه السنة. وعقد للسنة القادمة. إذا أمّنت لي شغلا، يزيد دخلنا ألف دولار شهريا. كله وفر ."

قلت: "وبعدئذ؟ "

قالت: " أنت لازم توطد علاقاتك بالذين استقبلوك من قبل. زرهم في مضافاتهم يا أخي ! هز حالك شوية ! والله أمرك عجيب !"

قلت: "وبعدئذ؟ "

قالت: "وبعدئذ غير الله لن يقدر أن يزحزحك من نفيطية. ويصير عندك دخل إضافي بمقدار راتبك. مثل محمد سامي". وتفرست بي فجأة، وهتفت بقلق: "عيسى ! أنت حزين !"

قلت: "لا ؛ يائس ."

قالت بضيق كئيب:" أنت رجل لا تعرف الرضا. لم أرك بعمري فرحا بشيء. حتى أولادك، فرحت بهم فترة، والآن كلك قلق عليهم. ناهيك عني أنا."

قلت: "حرام عليك. أنتم الشيء الوحيد الجميل والسعيد في حياتي. لكنني هنا أحصل على المال وأخسر كل شيء غيره .وفي نهاية الأمر، كلنا سنخسر أنفسنا. "

ردت بسخط هادىء: " لا تخسر غير شوية أفكار. لا تخسر شيئا. كل الذين تحبهم، باقون معك. هنا وفي بلدنا. "

نهضت للخروج وأنا أرمق شاشة التلفزيون بفضول متزايد. وجه غني التعابير لواعظ ديني، يتحرك في نصف دائرة فتتحرك معه مئات الوجوه في نصف فلك. يقول لهم المعنى ويسألهم فورا: "دا بيعني إيه؟" فيرددون كلماته بالحرف. كان يبين لهم ما خفي من قدرة الله على صنع أحداث تخرق نواميس العقل البشري بالكامل: قادر أن يسلط عليهم الحجاج بن يوسف مرة ثانية - وثالثة ورابعة - إذا بغوا وبطروا ؛ قادر أن "يمكّن أيا منكم اختراق الأفلاك بمجرد أن يضع هذا الخاتم حول إصبعه." ولوحت سبابته وإبهامه بخاتم من حديد، لا قيمة دولارية له.

مع اللولحة اندفعت يده اندفاعا خطيرا، وكبرت، وغطت الشاشة بحيث لم يعد يراها أحد من مئات المتربعين، وقذفت لي بالخاتم، فالتقطته قبل أن يلطم بوجهي .انحسرت اليد ورأيت على الشاشة وجه أبي الفتح الإسكندري. تلقيت غمزته بحنك متدل. قبل أن أخلص من ذهولي، تلاشى هو. هذا هو أبو الفتح: يتكسب بالقرآن والشعوذة. نظرت إلى الخاتم. فإلى دنيازاد، التي اشرأبت فوقه. قلبته بيدي. رأيت كتابة دقيقة عليه، أشكالها تذكر بالفينيقية أو الماليزية. ومثل من يريح نفسه من عناء طارىء، وضعته حول بنصري الأيمن.

أسبوعين وأنا محاصر بتلك الجدران. إذا خرجت إلى القسم خرجت إلى صراع الذئاب. وإذا بقيت في الشقة، بقيت مع صراخ ياسر ويسرى حول الشراء الشراء الشراء . هناك: أناس قَمقَم الدولار إنسانيتهم. وهنا: أطفال انتهك الدولار إنسانيتهم. هناك: أناس يخافون على عيشهم أكثر مما

خاف إنسان الأدغال وحوشها. وهنا: أناس يصيبهم الدولار بالبطر والشراهة.

أواخر ذلك الشتاء انفجرت الصراعات في الكلية. لم يكن ذلك مفاجأة لأحد بالطبع، إلا أنا. لذلك كنت الوحيد الذي تساءل وتقاول. ذلك أن مرجل الصراعات هناك لا يهدأ قط. في اللب منه، صراع المنافيط والمنافيط، الأعراب والأعراب. يتسع ليصير صراع الأعراب والوافدين؛ يتسع ليصير صراع الوافدين والوافدين.

بعكس التوقعات، نجحت حسابات غامضة في جعل الدكتور الركتور يشكل لجنة تحقيق في أوضاع قسم اللاغين واللاغيات. ونجحت حسابات أخرى في الوصول إلى تشكيل لجنة ثانية لقسم ثان ... وثالثة لقسم ثالث ... ورابع ... بلمحة عين وإذا أقسام الكلية السبعة تحت وطأة لجان التحقيق.

لكن نفيطية راء هي بلاد الحقائق المطاطية. الأستاذ الدكتور الركتور يكتشف أن سبع لجان تحقيق في كلية واحدة تعني أن هناك فعلا أخطاء في الكلية. ولأنه لا يمكن أن يكون هناك أخطاء أثناء رئاسته للجامعة، فيجب أن يتقلص عدد لجان التحقيق.

معسكرات الصراع تكتشف أنها خرجت من وراء الستار وأسفرت عن أسمائها. ارتاعت من الوضوح والعلانية. وارتاعت من المستقبل: إن يوما سيجيء ويفرض على كل معسكر أن يتحالف مع أعدائه، مثلما هي شيمة الحياة في نفيطية، فكيف يتحالف معها إذا نسفت جميع الجسور.؟

معسكرات داخل المعسكرات، تتمكن من تأجيل خلافاتها إلى معركة ثانية تؤجل هي الأخرى، والاتفاق على الحد الأدنى من الضحايا: بعض الدكاترة الوافدين تنهى عقودهم، ويأخذ المنافيط استراحة المحارب إلى حين.

وفي المآل بقيت لجنة قسم اللاغين واللاغيات .

خمسون شاهداً مثلوا أمام لجنة التحقيق؛ خمسون منهما. هل عرف أيٌ منا ماذا قال أي؟ عرفنا ولم نعرف. هل تكلم كل واحد بحرية وصدق؟ تكلم ولم يتكلم. هل أحضر كل شاهد منهم وثائقه وثبوتياته؟ محمد سامي جاء بحقيبتين مترعتين أوراقا وشهادات واعترافات، وشكاوى طلابية، ورسائل صادرها من بريد أصحابها، وصورا فوتوغرافية.

كان مستحيلا ألا تشم أنوف لجنة التحقيق الرائحة المتفشية في القسم. رائحة الخسائر: البغضاء المتعكبة، الوقيعة المتشفية، العنف المستتر، الدهاء المكشوف، الحقد الزرنيخي، الريبة المشرئبة، المرارة الآسنة، الخوف المتربص، الذل المسموم، الأرواح العمياء، كوليرا الابتسامات، رعب إنهاء العقود، شهوة الغدر...

أحسست بالعافية، وبالأمل أيضا. منذ ألف عام وأنا متشبث بالواقعية. أكافح اللامعقول. رفضت التكعيبية والسريالية والعبث والفنتازيا والخيال العلمي .. فكيف أقبل بقسم اللاغين واللاغيات المتكسلزين والمتكلزات في نفيطبة نون؟

في سرحة من سرحات الحلم والأماني، رأتني أعود إلى القسم، فأرى تلك الوجوه وقد عوفت، ولسان حالها يقول، مثلما يقول لسان حالي: "يا قوم ! يا جماعة! أنا لا أريد مالا. أريد فقط رشة حب على قلبي. ابتسامة فيها حنان. حديثا من عقل إلى عقل. إحساسا بالأمان عندما أقول الصدق. أنا لا أريد مالا لا يرافقه هذا الفرح."

بدا أخيرا أن المدان الوحيد هو محمد سامي محمدين: فوكالة أنباء شينخوا ذكرت أنه قد استغل التعيينات لتثبيت الأنصار وإنهاء عقود المعارضين ؛ وولولت زرقاء اليمامة صارخة أنه نشر جوا من التخويف والرعب وأفقر القسم من الأساتذة لينفرد برئاسته؛ وصرحت ناطقة رسمية في واق الواق أنه عيّن إحدى نصيراته المتأتئات مديرة لمركز اللغات؛ وأبرقت وكالة فرانس برس بتفاصيل استغلاله للوائح الجامعية لتخفيض الرتبة العلمية للوافدين ؛ وأكدت العرافة الإغريقية كاساندرا أنه سيثابر

حتى عام ٢٠٢٠ على إبطال ترقيات معارضيه والتعجيل بترقيات أنصاره؛ وذكرت مصادر الأمم المتحدة أنه بالتعاون مع آخرين أتلف مستندات ووثائق من ملفات القسم والكلية والجامعة، واستبدلها بأخرى؛ وعقد الجن الأزرق مؤتمرا صحفيا كشفوا فيه عن أنه أصر على إسناد مقررات في السنة الرابعة إلى معلمة لغة بحجة أنها لا تعرف الإنكليزية !

القشة التي قصمت ظهر سامي هي تزوير علامات طالبة يهمه أمر أبيها. وقد جرى التزوير بعد أن علقت النتائج على لوحة الإعلانات. لم تكن ثمة شهادة الشهود الاجماعية وحسب، وإنما الأوراق نفسها، التي حملت الشطوب والتعديلات والتواقيع المكررة باستهتار مطلق. وخلال أسبوع كان محمد نايف محمدين يلقي محاضرة في موسم الكلية الثقافي عن إمكانات رئيس القسم وآفاق عمله.

هل علمنا أن محمد سامي سيطرد من رئاسة القسم؟ علمنا ولم نجرؤ أن نعلم. هل علمنا أن الدكتور الركتور صعق من حجم الوخم والقذارات والديدان في أروقة القسم والكلية؟ علمنا ولم نعلم. هل تدخلت جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإنقاذ محمد سامي؟ تدخلت ولم تتدخل. هل خاف الدكتور الركتور من انفلات تلك الرائحة إذا عاقب أو لم يعاقب محمد سامي؟ نعرف ولا نعرف.

غير أننا، وقبيل اعتقال د. حمدون، فوجئنا بعودة محمد سامي محمدين إلى رئاسة القسم.

التقينا في القسم كما لو أن الأمور التي كانت طبيعية ظلت طبيعية. تبادلنا الأحاديث. وجوهنا طيبة. أثرنا مسائل جدية ومشاريع كبرى لتطوير التعليم والبحث العلمي. توجنا الإثارة بالتفاؤل والثقة، وبـ"إلى اللقاء."

في تلك الآونة كانت قضية الدكتور حمدون قد شغلت نفيطبة من أقصاها إلى أقصاها. كتابه عن النفيطيات، الذي أصدره في مدينة كيف، هز الجماعات النفيطية وأشعل غضب الخلفاء. نوعا من الخيانة العظمى

اعتبرت وثائقه التاريخية عن السهولة التي رسم بها الميجر فكس خطوطا على الورق فرسم حدود النفيطيات السياسية على الرمال. وبسرعة الهاتف، أودع سجنا في منطقة كانت ذات زمان حارة للمتزوجين بالغلمان.

وصل عربي إلي لاهثا. أخرجني من الشقة "الحديث خاص". رغم خلو الشارع المشجر، همس حديثه في أذني مباشرة. للأشجار أيضا آذان، وأسلاك خفية تتصل بآذان الحرس الجامعي. "انتبه أخي عيسى. الدكتور حمدون يخاطب صدقك مع الكلمة. وأيضا هو سندك الوحيد. رجل شريف مثلك، طبيعي أن تساند قضيته. لكن إياك. إياك أن تكشف عن ولائك له. حتى حلفاؤه لن يفعلوا ذلك. بعد أيام يخرج حمدون من السجن ويتصالح الجميع حول آبار نفطهم. هذه هي الحالة دائما: هم يتعاركون ونحن وحدنا ضحايا عراكهم. في النفيطيات لا تخض معركة مبادىء قط. هنا لا أحد تهزمه المبادىء إلا إذا اعتنقها. هنا كل شيء مصلحة."

قلت: "منذ معركة صفين لم تهزم المبادىء أحدا. ولولا شخصية علي لنجح أعداؤه في تحويله إلى إبليس."

هتف عربي: "هه! عليك نور! وشكرا لله أنك صرت تفكر تفكيرا واقعيا."

همهمت: "أنا أبو الواقعية."

فهنف: "لأنه إذا قبلت أن تشتغل في نفيطية، فيجب أن تقبل بأخلاقياتها."

قلت: "أنا أصلا أرفض أن أكون مسؤولا عن هذه الديرة أخلاقيا."

فتوقف عن المشي وقبض على ساعدي: "أنت رائع! اسمع. بعد أيام ستقام تظاهرة تأييد لحمدون في جمعية المعلمين. أنت لن تحضر."

في السابعة والنصف من الصباح التالي جاء عربي أيضا. من أعماق شنطته سحب نسخة من كتاب الدكتور حمدون. ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. ومده إلي.

انقطعت يومين إلى الكتاب. لم يرد فيه أي تاريخ صاعق للفهم والذاكرة. لقد تابع وحسب نشأة الدول على ساحل الذهب الأسود. الأمر الوحيد الصاعق كان يتعلق بسيدنا الدولار:

إن الراتب الشهري للخليفة هو: ثلاثة ملايين وخمسمئة ألف دولار. ثلاثة، ملايين، وخمسمئة، ألف، دولار. وهو يعادل رواتب ثمانية عشر ألف أستاذ جامعي في مدن لماذا وكيف والاسكندرية و...

وهو مع ذلك أبأس الرواتب قاطبة على ساحل الذهب الأسود. بل هو راتب ديمقراطي. لأن "رواتب" إخوانه الخلفاء ليست أي رقم معين. إنها الدخل النفطي بأكمله. وبالطبع لم ينزعج أي من هذه الرواتب من ضخامته. لم يصر حجمه عينا على الخليفة، ولم يصبه بحمى مالطية.

كنت في حالة هياج. ليس فقط للفرق بين النهايات الفلكية "لرواتب" الخلفاء والنهايات المجهرية لرواتبنا، وإنما لاحتمال رحيل المجهريات الدولارية عن بيتي وجيبي.

فكرت في خالقي بديع الزمان. هذا العقل الكوني ولكن المتحجر. وهبني الحياة دون أن يسألني إن كنت أريدها. وهبني الحياة وفرض علي تعب الكدية ومذلتها. لماذا خلقني إذن؟

أخذ خاتم أبي الفتح يتراقص حول بنصري. تضايقت منه. جعل ينتفخ في مكان، يعود إلى حجمه، ينتفخ في مكان، ويعود إلى حجمه. هممت برميه. أخذ يتسع كأن روحا نفخت فيه. صار تجويفه حول إصبعي بابا لقبة ذهبية وضاءة، تجثم على مثمن يجثم على مربع. ورأيتني في المسجد الأقصى. دلفت من الباب، ووقفت لأداء صلاة العشاء.

انتحيت ركنا داكنا وأسندت رأسي إلى جدار. حتى لو دخل جند إسرائيل، فلن يؤذوني وأنا هاجع في ثالث الحرمين الشريفين. من أين تأتي أبا الفتح هذه الخوارق؟ليته يحملني إلى مثوى خالقي.

لم يكن الخاتم قد أنهى خوارقه. لاحت مني التفاتة إليه فرأيته ينفطر ويصير لتوه حصاناً أبيض مجنحاً، بينما إصبعي تخترقه بين قوائمه وعموده الفقري. وراحت أجنحته تبرق وتسطع بنور يخطف الأبصار.

تأرجحت بين أن أنتفض ذعراً وأن أفوّت على أبي الفتح استمتاعه بخلخلة عقلي وواقعيتي. طأطأت سبابتي ولمست بها ظهر الحصان، وأجنحته الخفاقة، وعنقه المشرئب البديع. رأيته حقيقياً، من لحم ودم، وريش عملاقة. ورأتني أعلو على منكبيه.

علوت وعلوت في ذلك الليل. وقبل أن أعي بما يحدث، كنت قد اخترقت فلكين أو ثلاثة، وصرت في الغياهب. رأيت أبا الفتح وسمعت كلامه عن زيارة نقوم بها إلى خالقنا. رأيت الدهور تتساقط حولي بالعشرات، بعشرات المئات، مثل نيازك تنبثق وتمضي. رأيت فضاء بلا روزنامة. لمحت عيني عبد الرحمن الكواكبي تلمعان بالدمع. قال: "كتبت لهم بالتفصيل عن طبائع الاستبداد، فتعلموا كيف يزدادون استبداداً". وزمجر بوجهي الشيخ الغزالي: "يا نسل إبليس! يا رحيل الكذبة والكلمات! أنا أغلقت بوابة الفلسفة فضمنت البقاء للإسلام. تساقط السنون من حولي وأنا قاعد في مطرحي". ومن ورائي هتف المتنبي: "إنما الناس بالملوك فما / تفلح عرب ملوكها عجم." وجاءني صوت عمر يشق السماء مثل كوكب يولد كل لحظة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟" وابتسم لي النفري وهمس: "العلم المستقر هو الجهل المستقر". وصاح هارون الرشيد: "ما تراه لا ما تسمعه يا ملك الروم."

وزمجر سيف بن ذي يزن: "جعلت الجن الأزرق والجن الأحمر يطردون الغزاة من بلاد العرب. وها أنتم تتركون الجن الأبيض، وعلى رأسهم الملك فكس والملكة ماغي، يستبيحون بلادكم وثرواتكم."

أمسكت بجناحين من حصاني وتركت لنورهما الساطع أن يتغلغلا في جناني. غمغم أبو الفتح وهو يطير إلى جانبي: "يا لهذا الفلك الذي تتراتب

فيه الدهور كأنها شرائح في طاولة روليت". غير أنني وقد لمحت ابن خلدون، تدخلت لأول مرة في مسيرة حصاني المجنح.

حوّمت حوله معشار ثانية. لم ينتبه إلي. رأيت أوراقه مصفوفة حوله في الفضاء. وضع عنواناً على ورقة، فطارت إلى مستقرها. إنه مبلبل وحزين. مثل إنسان أدرك أنه أخطأ في مسألة حياته الأهم.

كانت الورقة الأولى عن عجائب أن الدول تتكون بالورق والقلم، وليس للأسباب التي ذكرها في مقدمته. وكانت الثانية عن عجائب أن الورق والقلم يستعملان لإنشاء الدول وليس لإنشاء الثقافة. والثالثة عن عجائب رفض البدو النزوح إلى المدن الزراعية وتفضيلهم اقتناء القصور في المدن الصحراوية، وتفضيلهم أنسام المكيفات على أنسام الطبيعة. والرابعة عن عجائب نزوح سكان المدن إلى الصحراء، تاركين جمال الطبيعة وصناعة الثقافة وحرية العقل، جريا وراء صناعة البترودولار. والخامسة عن عجز البترودولار في النفائط أن يخلق الحضارة أسوة بشقيقه في بحر الظلمات وواق الواق...

"يا لهذا العالم الغريب العجيب! حتى ابن خلدون في سمائه تعلم كلمة البترودولار"، قال أبو الفتح وهو يرفرف حولي. ثم لكزني صوته في أذني: "هيا بنا وإلا غير خالقنا رأيه وامتنع عن مقابلتك."

التفت باتجاهه هلعا: "وأنت ستقابله!"

لطم الصوت بطني فجفلت: "أنا لا شأن لي به. فقط سأستمع."

انتقلت من حس بالفضاء إلى حس بالمكان. ولشد ما راعني أن أجد أمامي صحراء تدور رمالها وتدور بين الأنجم الدكناء، وتأتلف حول شجيرة سدر كالتي في حديقتي في مدينة لماذا: استفاضت أشواكها واستدقت أوراقها. هناك عدت أحس بالخاتم حول بنصري، ورأيت مثوى خالقي بديع الزمان.

سمعت ما يشبه الصوت: "مخلوق جاء من الكلمة. لا يطلب وصايا عشرا، وصلوات وذكرا، بل مساءلة وكفرا. أنت وأبو الفتح فتحتم

الجرح. وعملتم من الكلِم أفلاكا وعوالم. وتعلمان علم اليقين أن اللغة بدعة تجار فينيقيين. "

رجوت: "أنت خلقتني وأنت مسؤول عني. خلصني من الحزن الذي أنا فيه . من الخوف."

قذفني زفيره في الفضاء، ورحت أتشقلب حتى التقطني أبو الفتح: "عد إليه!" قال لي،"واطلب منه."

عدت إلى خالقي. وسمعت شبه الصوت يزفر: "من وجهك يبان أنك لست بالتائب ولا الندمان !"

قلت: "أريد أن أشبع الطعام وأنا موفور الكرامة والاحترام. لماذا تكافىء الأشرار بالغنى والسعادة، والطيبين بالفقر والحزن؟ أعد خلقي وامنحني الكمال. كفّ عن عقابي فأنت الذي خلقني ناقصا."

زفر شبه الصوت بوجهي: "منذ أن خلقتك واجهتني. أوصيتك فساءلتني. والعصر إنك لفي خسر. إنك لمخلوق يتعدى نواميس الخلق. لا حاجة لخالق متشدد بمخلوق متمرد. كثير الأسئلة. مثير للبلبلة. لذلك قذفتك في أرض الملعونين ورددتك أسفل سافلين. تركتك في ضرام العصور. دمغتك بأنك مفسد شرير فارتحت من وعيك الخطير."

كان الزفير من القوة بحيث عدت أتطوح في الفضاء وأنا في وضع القرفصاء، فالتقطني أبو الفتح وهتف: "عد إليه واطلب منه. يجب أن نحسم هذه المسألة."

عدت. نظرت إلى شجيرة السدر، وأدركت أن بديع الزمان غيّر مثواه درجة أو درجتين. تفاءلت خيرا. قلت عساه قد قرر ان يمنح نفسه شيئا من الحرية، أن يشرب شيئا من ماء الحياة.

قلت:"كسوتني باللحم البشري فجعلتني عبداً للضرورة و للبدن. كل من خلقتهم عبيد للضرورة والبدن. لماذا خلقتنا عبيداً؟ أطلقني في رحاب الجمال والفرح والحرية والحب والإنجاز. خلصني من الضرورة والموت."

نبر الصوت بوجهي وعفر: "لو قبلتَ بالقدر لما أقلقتك الفكر. لا أسئلة اليوم، ولا أسئلة غداً."

رأيتني مرة ثالثة بين يدي أبي الفتح. وكانت الزفرة من الحرارة بحيث أذابت الخاتم الحديدي عن بنصري فتشرشر وتناثر .

قال أبو الفتح: "عد إليه وكرر الطلب. يجب أن نحسم هذه المسألة."

هززت رأسي رافضا: "المسألة انحسمت. لن يصلح نقص خليقتنا، ولن يكف عن عقابنا. أطلب منه الحرية والجمال والفرح؛ فيطلب مني الاستسلام للقدر والكدية. هذا فراق بيني وبينه. اذهب أنت."

قال أبو الفتح: " أنا لا حاجة لي به. "

وجعل يرفرف حولي ويترنم:

أنا والخليفة توأمان وشريكنا يدعى الزمان

نجتاح لذات الحياة ونمتطي ظهر الأمان

أخذت السنوات تنشهب حولي بالعشرات، بمئات المئات، مثل نيازك تنبثق وتمضي. وراحت حيوانات من أجناس شتى وأعداد غفيرة تتهرهر علي من جوف الشجيرة وتهبش جلدي العاري وتتراكم على لحمي. كان هناك ضباع وذئاب وكلاب وخنازير وثعالب وتيوس وأبناء آوى وجمال ...إلى أن دخلت باب شقتنا.

كانت دنيازاد ويسرى وياسر نائمين على سريرنا العريض، كالعادة عندما أغيب أمداً عن البيت. تأملتهم بالحب الذي يفيض من النفس عندما تلتقي بنوع من الخلاص. ورفعت دنيازاد رأسها مفتوحة العينين، فحيتني بابتسامة، ثم توسدت.

لم يبقَ لي سوى أن أنصرف إلى بحوثي . بصورة خاصة البحث الذي سأقرأه في مؤتمر "الأخيولة في الفنون". قلت لنفسي لقد أوصانا محمد بطلب العلم ولو في الصين، وأنا سأطلبه في الولايات المتحدة، وهي أبعد. ساضع حدا لانفعالي بخوارق هذه الديرة، وألتزم بالواقعية إلى أبد الآبدين.

دخلت المكتبة وسلمت هناك على ثلاثة من زملائي. وجوهنا مبتسمة. أمانينا طيبة. أثرنا مسائل جدية لتطوير التعليم والبحث العلمي. ثم توّجنا الإثارة بالتفاؤل والثقة و بـ"إلى اللقاء". وفي ذلك الإهليلج رأيت جملين اثنين بدلا من واحد. جملين يمضغان الكتب بتؤدة وحنان واطمئنان. رموشهما ترف بكسل مترف. ورأيت ذراعين معدنيتين تنبثقان من جدارين لتضعا كل مرة نسخا بديلة.

خرجت إلى ذلك المؤتمر من عالم هائج سخطا وغضبا على سلمان رشدي الذي شتم النبي عليه السلام ونساءه والإسلام. خلّفت ورائي صراخا ولعنات، وتأكيدات على مؤامرة عالمية تستهدف تدمير الإسلام، ونداءات بهدر الدم الإبليسي المتقيح لذلك الروائي ؛ ولكن لا عقلا يرد عليه. وفي المؤتمر الذي دام خمسة أيام، كانت ثمة جلسة مشتركة قرأت فيها ثلاث أوراق عن (الآيات الشيطانية). ودار حولها حوار قوي، وتساؤلات ثقافية ولاهوتية؛ بين جمهور غفير اكتظت به قاعة المحاضرات.

نظرت إلى المحاضرين بفزع. ما لا يقل عن سبعين مشاركا في المحاضرة، جاءوا من القارات الخمس، وليس بينهم فم واحد يدافع عن عظمة محمد الإنسان ضد هجاء سلمان رشدي الروائي. العالم يعقد مؤتمرات علم، ونحن نعقد لجان تحقيق في أقسام الكليات لنثبت الفاسدين فيها. العالم يقرأ ونحن نهدر الدم والأخلاق. كأن القرآن قد قال: "اقرأ" لهم وليس لنا.

في الجلسة الختامية الشاملة، وقف نيّف وخمسمئة علاّمة ودارس وأستاذ دقيقة تصفيق كاملة تضامنا مع سلمان رشدي - ليس لأنهم معه في آرائه، بل مع حقه في أن تكون له آراء حتى ولو كانت هجائية.

أمضيت اليومين الباقيين من إقامتي في فورت لودرديل باحثا عن نسخة من (الآيات الشيطانية). قال لي الوراقون: عد بعد أسبوع .. عد بعد شهر .. وسجلوا اسمي في قوائم الانتظار. وما إن اقتنيت نسخة أخيرا حتى أحسستني حقيقياً: إن بداية ما ستبدأ قريبا.

نزعت الغلاف الورقي للرواية ومزقته. اقتلعت الغلاف السميك بمشقة ورميته في سلة المهملات. نزعت أوراق العناوين واسم دار النشر والمؤلف، ومزقتها. وطرحت الكتاب أرضا، وجعلت أدوسه بقدمي حتى تهلهل وتهرهر كملابس أبي الفتح. عندئذ اطمأننت إلى أن عسس المطار في نفيطية لن يرتابوا في أمره.

ودعت المؤتمر بعبارة: إلى اللقاء. وشرعت في الطائرة أقرأ الرواية. في العام القادم سأقرأ ورقة عنها. بعد سنة سأتمكن من استعمال لغة تقول فتقول، تقبل فتلتزم، وترفض فتعارض، وتلمع فتكون ذهبا.

في اليوم الأول بعد عودتي أخذت من صندوق بريدي في القسم قرار مدير الجامعة بدعوتي أستاذا زائرا للفصل الدراسي الأول من العام الجامعي القادم - بدل عقد السنتين الذي وعدت به. وفي الصمت المهيب الذي رزح علينا نحن الأربعة داخل الشقة، نظرت إلى أفواه أطفالي الفاغرة وأعينهم الخائفة. كل الإحساس الذي ملأني في أمريكا بأنني حقيقي، صار زبدا. ونظرت إلى الجدران الاسمنتية الصلدة: أين أنت أيها الحجاج بن يوسف؟ أوَلست بحق الله ترى في هذه الديرة رؤوسا قد أينعت وحان قطافها؟

قال عربي:"هذه البلاد مستحيلة."

قلت: "نايف، العدو اللدود لسامي، تواطأ معه. وعده سامي بالترقية إلى أستاذ فوافق على إبعادي من القسم."

وبعد أسبوع قال لي الدكتور الركتور: "الكلية اقترحت عدم إعطائك عقدا لأنك لم تنشر بحوثا بالإنكليزية. غريب أن كل بحوثك بالعربية!" ثم نظر إلي بتمعن وانطراب: "صحيح أنك تؤاخي الجن يا دكتور، وتسلطهم على إخوانك من البشر؟"

بدأت مرة أخرى رحلة الألف ميل من المذلة المتجددة الناشطة. وقد تعيّن علي أن أكملها خلال شهرين تبقيا من العام الجامعي. رأيتني في حالة من الذعر واليأس، وقد أصبح ذلي ضرورة.

يجب أن أقصد مباشرة وتحديدا الرؤوس الكبيرة – تلك التي أسعدها قبل سبعة أشهر أن تتشرف باستقبالي. ومرة أخرى خرجت من عالم العقول لأدخل عالم اللامعقول. ورحت أتفرج عليّ وأنا أريق ماء وجهي العربي على خفين عربيين.

الدكتور حنفوط. تفيطي بالتأسيس. العائلة صحراوية. مدير سابق. وزير سابق. زير دائم. أحببته لخاصيته الأخيرة. مدير الجامعة الحالي أحد رجاله المصلحين. سؤال صغير: كيف تتبدل قرارات مدير الجامعة مثلما يتبدل طلاء الأظافر؟ سؤال بسيط: كيف والحالة هذه سيأمن أساتذة الجامعة لغدهم؟ كيف سيخلصون لعملهم ويحترمون جامعتهم؟ سؤال أبسط: هل الدوس على كرامة الأساتذة متعة للنفوس؟

المجلس الأعلى.. لشيء ما. يجب دائما أن يكون ثمة كيان، ويكون "أعلى". المستوى الأول: قاعة اجتماعات ومكاتب سكرتيرات حسناوات. المستوى الثاني: جناح الرئيس. ولجت مكتبا. كنبات وثيرة. خزائن وطاولات من الأبنوس. وفي الصدر تماما كرسي رئاسي، ثم تلك اللوحة الجدارية الباهرة. فسطاط مدهش من اللون والخط والشكل. في حياتي لم أنظر إلى طاووس بهذا ال.. الجلال! ليس فقط أن ذيله انفرش على كامل الجدار فغطاه، وإنما كل نقطة وكل خط من ذلك البهاء اللوني الزاهي البديع الشاسع كانا مرسومين بالدقة والتفصيل اللذين تحرص عليهما امرأة في الأربعين وهي تعتني بوجهها.

"أهلا أخي الدكتور عيسى! أهلا بالمتمرد! تفضل، تفضل."

آثرت البقاء واقفا ريثما يظهر الدكتور. أبقيت ابتسامة دخولي عالقة بوجهي. حدقت في مصدر الصوت. تحركت اللوحة الجدارية قليلا. من مكان تحت رأس الطاووس الباهي امتدت ريشة ذات خمسة ألوان، وصافحتني. وأخذ الريش يموج طربا دون أن يغادر مواقعه على الجدار، بينما يرسل الضوء منه انعكاسات لونية ساحرة.

انسلّ مني شيء وغادرني - أنا المعتاد طوال ألف عام على رفض الفنتازيا والتمسك بالواقع. أوَ هذا الطاووس بدعة من بدع التكنولوجيا التي يشترونها بسهولة في هذه البلاد؟ ماذا جرى لك يا عيسى بن هشام؟ سيجعلك سيدك الدولار بحجاباته تصدق أن لوحة جدارية يمكن أن تخاطبك! كيف تستنهض مروءة طاووس لحل مشكلة إنسانية؟

"والله يا عيسى!" ورأيت مثلما يرى النائم أنني لم أعد أنا في تلك اللحظة. وقال الدكتور: "والله يا عيسى!" فهبطت إلى أرض المكتب وأقعيت على السجاد العجمي، ونظرت إلى الوجه المظفر. وكان يقول: "يا عيسى!" فتذكرت يوم علوت مئة قامة لألتقط ورقة المئة دولار. ما إن طلبت منه معروفا حتى سقطت ألقابي ومكانتي وصرت مجرد "عيسى".

"والله يا عيسى مشكلتك صعبة جدا. لسبب بسيط جدا. لأنه أنا الذي سننت تقليد عدم التدخل بأي شكل من الأشكال في قرارات الأقسام العلمية. أسوة بالجامعات الأمريكية. أردت لجامعتنا أن تنهض على تقاليد ييل وهارفرد."

"التدخلات قائمة على قدم وساق يا دكتور. ولولاها لما كنت أنا أمامك الآن. وأنت بعدم تدخلك تترك المجال للمافيات لترتب الجامعة وفق مصالحها. يطردونني ويجيئون بواحد منهم. في جامعتك، لا قرار، لا قرار على الإطلاق، يصدر إلا بتدخل شخصي."

"فليصطفلوا! إذا هم قبلوا أن يصيروا خراء فهم أحرار. أنا يا عيسى لن أقبل. هل تقبل أنت أن أصير أنا خراء؟"

قلت: "معاذ الله. حتى لو أردت فلن يمكنك."

لا شيء أقل من الانبهار والتقديس يمكن تقديمه لهذا الرسول التربوي. سوء الطالع ولا شيء آخر هو الذي شاء أن يأتيه الوحي في هذه الصحراء السوداء وليس عند شلالات نياغارا.

قالت دنيازاد: "لو نتفت كم ريشة من صدره وجئت بها. ريش الطاووس يجنن، وجدران بيتنا عريانة بالمرة."

ثم الأستاذة الدكتورة. بالتأكيد. وقد ألح عربي: "هي الكل بالكل. وهي حريصة أن تظهر جميلة عبر فعل الخير بعد أن رسبت في امتحان الجمال."

تصورتني أناشد فيها تلك المَلَكَة الجميلة في كل باحث ثقافي، ملكة الدفاع عن الناطقين بالحقيقة وعن المبدعين. رتبت الكلام في ذهني وأعدت ترتيبه .. حذفت منه وأضفت إليه. وتوجهت إلى مكتبها.

كان مستحيلا أن أمد يدي للمصافحة، فما بقي من مكتبها دون كراتين ومجلدات كان مجرد أخاديد. انزلاقة صغيرة، وتنسحق قشرتها النحيلة اليابسة، وأرجلها الهشة العملاقة. وبروح رياضية سمحاء، رفعت إحدى تلك الأرجل في الجو، ولفلفتها كالسندويشة بابتسامة رقراقة، وحيتني بها. تحية عفوية شجية. ثم جعلت تنط من طاولة إلى أخرى، من كتاب إلى خزانة إلى هاتف إلى درج. ورحت أدور بكتبي الجلدية لأتابع نطنطاتها وشقلباتها، وألتقط دفق كلماتها. ذلك أن لسانها الأدمي الفني لم يكل لحظة واحدة عن التعبير، رغم أن أرجلها المفصلية المقطعية لم تكف لحظة واحدة عن الحط والوثوب.

قمعت دهشتي وفضولي. أن تتنقل الأستاذة الدكتورة بهذه الأرجل، بين تلك الدكاكير كلها، أسرع وأجدى مما لو كانت لها ساقا ماريلين مونرو.

"نصف ساعة، قلت! وماذا حكت الأستاذة الدكتورة؟" سألتني دنيازاد بهدوء يستتر على الضيق والقلق. وأضافت: "لابد أنها قالت شيئا."

"إي. بعد دقيقة من دخولي صاحت: علي جثتي! أن ماي دِد بودي! لا أكون بنت أبي وجدي إذا نفذ قرار المدير".

"وبعدئذ؟"

"وبعدها تعثرات وأحاديث [illegible] وتفوهات. وقبل دقيقة من خروجي تمتمت. ولكن تعرف أنا لست الدكتورة. أنا أقدر من أبدي رأيي."

أحالني الدكتور سنفوط إلى الدكتور عنفوط، وهذا إلى د. منفاط، ومن هناك إلى د. مستنفط، فإلى د. نفطان، فإلى د. منيفيط، فإلى د. ينفوط، فإلى ...

كان جوابهم واحداً: "يجب أن تكلم شخصا يمون على الدكتور المدير"؛ أو "شف لك واحداً تربطه بالمدير علاقة خاصة"؛ أو "أليس لك حلف في هذه الجامعة ؟ خل حلفاءك يحكوا في أمرك" ؛ أو "بودك واحد مصالح المدير مرتبطة به، وخاصة بمجموعة مطاعم سندباد التي يمتلكها."

لسبب غامض كاللغز لم يكن أي منهم ذلك الواحد الذي يمون على المدير، أو يرتبط به، أو .. أو ..

لبعض هؤلاء قلت: "جامعات أوروبا وأمريكا التي تحاولون تقليدها، تتسابق لدعوة الأدباء إلى التدريس فيها. أنتم تطردونهم." وقد تكفلت أعينهم بعد ألسنتها. كان الجواب عبارة خرساء واحدة: "استأجرناك عاما دراسياً كاملاً، وما زلت ترى نفسك شيئا؟"

سبعة أيام، سبعة مآتم. وقوس لانهائي من الجدران الرصاصية. رصيف ممدود من القهر والألم. حتى ياسر ويسرى جلسا إلى جانب ثلة ألعابهما بجماد مطلق: لقد انهار عالم النعيم الذي حسباه خالداً.

نظرت إلى دنيازاد. قالت عيناها: منبوذون في السهل، منبوذون في الجبل، منبوذون في الصحراء.

ودمدمت شفتاها بعزم: "عيسى ! امسك قلما وورقة واكتب إلى جامعات أمريكا."

٦ ـ الخليفـــــة

في البدء كان الأعراب. كانت قريش. أسماك بشرية مفترسة هجعت في عمق الصحراء.عاشوا قرونا موغلة وقرونا ولم يكونوا يقرأون. جاءهم محمد بن عبد الله الهاشمي ببدايات كتاب، فانتدبوا ثلاثة عشر سيفا لضرب عنقه.

بكتابه روّض محمد جاهليتهم. دلهم على الله الذي نطقوا باسمه وجهلوه. جعل وحوشهم طلقاء مسلمين. بسيفه ردّهم أبو بكر إلى الإسلام. بدرّته صنع عمر بن الخطاب منهم أمة وامبراطورية.

قتل عمر فاكتشف الأعراب أن محمداً قد مكر بهم. علمهم عبادة الله وهم في الحقيقة يعشقون ويعبدون اللات والعزى. تذكر الطلقاء هزيمتهم أمام محمد وكتابه وخليفته وأقسموا أنها لن تمر. تذكروا جاهليتهم. أخذتهم وحشية العزة. وفي هجعة سرية دمدم أبو سفيان: تلقفوها يا بني عمي تلقف الكرة. فواللات والعزى ما من جنة ولا نار. وأنشد:

لعبت هاشم بالملك فلا رسل جاءت ولا وحي نزل

ولعبنا نحن في أيامنا هكذا الأيام والدنيا دول

انتفضوا. قضوا على الخلفاء الراشدين وأنشأوا سلالة من الخلفاء. أبدعوا الحجاج بن يوسف. ضربوا الكعبة بالمنجنيق حتى انهدمت. استباحوا نساء مدينة محمد ثلاثة أيام. افتضوا فيها ألف عذراء. قصّبوا الجسم

عبد الله بن الزبير. قتلوا محمد بن أبي بكر وقبروه في بطن ناقة. فرموا جسد الحسين بن علي. اغتالوا. سمموا. أنعموا. ذبحوا. أفسدوا. سفكوا. بنوا حول كتاب الله أسوارا ودهاليز. أبو يوسف متولي تولى شرحه. والخليفة بالوراثة تولى قطع أعناق الشروح الأخرى. أبو يوسف أعطى جميع الأجوبة. لم يعد ثمة كلام آخر. أية أسئلة أخرى وأية أجوبة أخرى استنهضت سيف الخليفة. سيف ولي الأمر. سيف الله.

في البدء كان الخليفة.

أفق أبلق. أرض تركض. وعينه تستجير من الهجير. أشواقه تنزى عشقا للات والعزى. خلاياه مصنوعة من الرمال ووبر الجمال. حضر إلى القرن العشرين شاهرا سيف أستاذه وخادمه أبي يوسف متولي محمدين. لكن السيف ذراع قصير والصحراء بحر وهدير. سفينة الصحراء عاجزة عن ترويض الطلقاء. رباه ! ماذا كان سيفعل لولا بارودة محمد فكس محمدين والرينجروفر؟

الصحراء تبتلع الدماء. منذ مصرع عمر يغور فيها ذلك الذهب الأحمر. كل بطون الأعراب وأفخاذها سالت دماؤها. وبقيت الصحراء صفراء. الدم يعني الخلافة. منذ أول فجر لم تقم دولة في هذه الديار إلا على القهر.

ذلكم هو الخليفة.

عندما قالت له تلك المرأة "لا"، أحس أنه فقد الخلافة. ضرب عنق زوجها فقالت لا. وأعناق أبيها وأخوتها. رمى بالرصاص كل من كان يتسمى بها في تلك القرية التي حباها الله ببئر ماء. وظلت تقول لا. ضجت الخلائق وتوسلوا إليها وضربت أعناقهم وغارت دماؤهم في الرمال. وهي تقول لا.

وهو سعيد. سمكة تفترس. قرش أو قريش. ربض على تلال جسدها. أقام أشواقه عليه. أشواقه تنزى عشقا للات والعزى. وهذه المرأة هي اللات التي ألغى محمد عشق الأعراب لها.

كالقرش ربض وكالقرش تلقى غرزة المخرز من يدها. تلقفت يده الدم المنبجس من عينه اليسرى وأطلقت حنجرته جعرة ذئب جريح.

انتزع المخرز من قبضتها ويبس ألم عينه. ابتلعته حرارة الاغتصاب. أخذته العزة بالذكورة. توجهت قبضته بالمخرز إلى عنقها. إلى الركن البض الذي ينساب منه الجيد إلى الكتف. ضغط عليه برأس المخرز. الرأس الذي تجمع فيه كل ما نفر من ألم العين. ضغط ببطء. ببطء.

كان المخرز طويلا. أطول من إحليله. غير أن التعاون استمر بينهما نيفا وثلاث دقائق. ضغط بالمخرز وضغط بالإحليل. ببطء. وجسد اللات التمري يتراخى. وربما أن رأس الإحليل ورأس المخرز التقيا داخل مكان ما من جسدها. المكان الذي انفطر فيه شبق الرجل وخرجت منه روح المرأة.

بعد ثلاث دقائق أخرى أعطى أوامره بدفنها دون غسيل أو صلاة. "حاولت قتلي بهذا المخرز. امرأة سفاكة للدماء". وكان الدم قد تخثر على مقلته.

قلت له: "تتذكر تلك المرأة التي قتلتها مرتين؟"

فأزاح فم فيرونيكا عن إحليله والتفت نحوي بابتسامة: "أنتم المثقفين مصيبة. أتذكر؟ تقول عمرك ألف سنة ولا تفهم العبرة في أن شهريار كان كل صلاة فجر يقطع عنق عروس."

قلت: "قارنها مع فيرونيكا. مستحيل أن لا تأسف عليها."

قال: "طبعا. لهذا تراني أبحث. ما المتعة في امرأة تتفاعل معك جنسياً؟ لا تطيب المرأة إلا إذا رفضتك فاغتصبتها."

تلك هي الفطرة التي تفجر الحضارات. التي لم تتمكن أفقزاد من فهمها. رجوتها أن تغفل عن حكاية الخير والشر وتنظر في تاريخ انبلاج الحضارات. فهزت رأسها بصبر مشفق وقالت: "أنا لا أتكلم في الخير والشر. هذه مشكلة تخصكم وحدكم سكان الأرض. أتكلم في الجمال والقبح. كيف يجد خليفتك هذا سعادة في القبح! كيف تمتلىء روحه نشوة بآلام غيره!"

بات واضحا لي أن أفقزاد لن تتقبل الأعراب أبدا. قريش التي ربضت على تلال الصحرا وروّضت كتاب محمد بعد موته، إنها تمتلك الآن كتاب النبي وكتاب النفط. سيكون لها شأن جديد في العالم. وستجعل النفط دولـــة وامبراطـــوريـــــة.

كنا متداخلين تماما. الرأسان رأس واحد. والجسمان جسم واحد والأطراف والأعضاء والحواس واحدة. وكنا ممتدين كوكباً وقمرين ومليون فرسخ وأبداً فلكياً. كل فرسخ مغرورق بنشوتنا. وافترقنا.

خرجت أفقزاد من أمواجي وأخرجتني من أمواجها. لم أبحث عنها. غير أن نجما حط على محيطي وبث صوتها: "أنت ستعلمني الحزن والغضب. عضويتي لا قبل لها بالحزن والغضب. أنست تخلصت من عضويتك ولم تتخلص من رسوباتك الأرضية."

غاب النجم. فبعت في ذلك اللامكان. تاهت عيناي في اللامسافة. تلاطمت خلاياي وانكسرت أنسجتي. تاه جناني في اللامسافة. ما هو هذا الحب الذي امتلكني لعفريتة أخرجتني من الأمكنة والأزمنة والأبعاد وألغت عضويتي البشرية؟ منذ عهد بعيد لم تعد لي رئة ولا معدة ولا كبد ولا كلية. ومن يدري فربما أن قلبي نفسه قد تلاشى. قلبي الذي يحب أفقزاد. الذي لولا حبي لها لقلت تلاشى حتما. لأنه إذا كنت هنا غير محتاج إلى الدم ولا للأعصاب فلماذا يبقى القلب دون غيره في عضوية إثيرية؟

عندما خلقني بديع الزمان من كلمات وأصوات كنت هكذا: أحاسيس ومشاعر وأفكارا وقدرة وحركة. يومها لم يكن لدي لحم ودم يربكان حياتي.

همست أفقزاد: "لا تبك. إذا بكيت انتكست عضويتك. فالحزن عدو الكون. وستلطمني به."

كان امتداد فسيح قد نشأ عن تداخلنا. غير أننا لم نكن متداخلين تماما.

قلت: "أنا مشتاق للأكل. للنوم والتنفس والتبول. مشتاق للخيبة والقلق والصراخ. أنا كائن يحمل ذكريات. وهذا الخليفة يذكرني باندفاع قريش عبر العالم. وأنا أريد أن أجعله ثالث العمرين الراشدين."

صمتت. صمتها عنى أننا نفكر بطريقتين لا تتلاقيان. كل ما تلهفت إليه كان بالنسبة لها قبحا.

أفق أبلق. أرض تركض. وعينه تستحير من الهجير. حضر إلى القرن العشرين وهو لا يعرف أن قدره أن يلتقي بالرئيس فرانكلين. طفقت يداه تطوحان بأطراف بردته. الدم ما يزال خاثرا في مقلته. عندما حضر أخيرا المملوكان الملكان على المدن أيبك وقطز كان صبره قد نشز: "هذا الرئيس فرانكلين فكس كيف سأتفاهم معه؟"

نظر إليه أيبك وقطز باستفهام صريح. فأطلقت حنجرته جعير ذئب جريح: "هذا الرجل يعيش بالكامل في القرن العشرين! كيف سأحاوره؟"

ابتسم قطز بوداعة: "لن تحاوره. فقط ستستمع إليه. نعرف ما يريد. ونعود إلى قروننا."

ابتسم الخليفة. الرئيس فكس الذي لا يرتدي شماغاً ولا جلابية سيتغاضى عن عطب عينه. وسيتكفل بالحرب العالمية الثانية وهتلر والنفط وثالث الحرمين الشريفين وإسرائيل والشيوعية وستالين والقرن العشرين برمته. وسيعود الخليفة إلى سياحاته بين القرون.

الخليفة سيتكفل بما لم يعد يتكفل به أحد في هذا القرن الشحيح. سيقدم لفخامة الرئيس نموذجا معاصرا من أخلاق الضيافة عند العرب. "ما تراه لا ما تسمعه": هكذا رد هارون الرشيد على الامبراطور نقفور عندما هاجم هذا الوغد الثغور الإسلامية. ورد الخليفة على هذا الرئيس النبيل لن يكون أقل فصاحة من رد هارون الرشيد. سيجعله يرى بأم عينيه ما كان يسمعه عن كرم الضيافة العربي.

ثمانين قرقورا وعجلا حمل اليخت الخليفي. أربعين قصابا متخصصا. خمسين طباخا متخصصا. اثني عشر حلوانيا متخصصا. عشرين ملفافا

خاصا بالشي. مئة كيس من الرز الأمريكي. مئة كيس من الطحين. سبعة عشر برميلا من السمن البدوي. اثني عشر تنورا. مئتي كيلوغرام من الفستق والصنوبر واللوز والجوز. ألف متر من الأبسطة الوبرية. تختا موسيقيا متخصصا. ثمانية وعشرين قينة. ثلاثين جارية مثقفة. وسبعة فقط من أبنائه.

أشياء كثيرة تفصل بين أمير المؤمنين وصاحب الفخامة. أيبك وقطز كانا على صواب. غير أن الخليفة أباح لنفسه مغامرة فلسفية خطرة: استغرب من صاحب الفخامة أن يلجأ كل أربع سنوات للشورى طلبا لتجديد ولايته بينما سنة الكون أن يبايع الأمير فيبقى إلى الأبد. على الأقل حتى الموت إذا لم يستطع أن يكتب له الخلود. فما لهذا الرجل الحكيم يخرق ناموس الطبيعة؟ حقا إن أبناء القرن العشرين يختلفون عن أبناء صحراء القرون.

كان ليل الاسكندرية ينشر عباءة مستفيضة على اليخت الحاشد. والأمواج المحبة تتراقص مع ترافص القيان والجواري وموسيقا النهوند. استبطأ الخليفة قيام ضيفه إلى فسطاط الأطعمة اليعربية. قال المترجم: "السيد فكس سيقوم إلى المائدة بعد أن يوافق جلالة الخليفة على طلب منه."

صاح الخليفة: "طلبه مقبول! ما هو؟"

في وهلة هلع مارق أيقن أن صاحب الفخامة طالب ولا ريب عددا من قيانه أو جواريه. وهو لا يمكنه أن يتخلى عن أي منهن. ألف سنة، عمرا بطوله، وهو يختارهن.

قال المترجم: "السيد الرئيس يريد من جلالتكم وعدا ألا تعطوا للإنكليز ولا لغيرهم امتيازا نفطيا في خلافتكم. فقط للأمريكيين."

حملت ابتسامة الخليفة تنهدة، وشيئا من الراحة وشيئين من العجب السافر. هو شخصيا لا يحب الإنكليز. لقد عملوه خليفة بقلم رصاص وبندقية. وهو يكره كونهم متفضلين عليه. ليس أيسر عليه من تلبية طلب

صاحب الفخامة. النفط؟ ليأخذ النفط كله! ما دام لم يطلب واحدة من نسائه .

قبل ان يلبي تململ فيه حس الأعرابي الذي لا بد من أن يكسب: "طلبه مقبول شرط أن لا يضيع علينا ثالث الحرمين الشريفين."

قال المترجم: "السيد فكس يعد جلالتكم بأنه سيكون خادما لثالث الحرمين الشريفين "

وعندها مال الخليفة على كتف الرئيس وهتف بالمترجم: "أهو حقا لا يريد جسد امرأة فتيا يؤنس شيخوخة فخامته ؟"

قلت لأفقزاد إني حسمت أمري وأريد الرجعى. لم ترد علي. قلت مراوغا: "رجاء دليني على أقصر طريق من هذه السماء الرابعة إلى كوكب الأرض."

تهزهزت أمواجها وازدادت سطوعا. سألتها: "ماذا يضايقك؟" قالت: "طوّفت في هذا الكون وطوّفت وما تزال تقول السماء الرابعة! السماء السابعة! متى تتعلم أنه لا توجد سماوات في الكون؟ ليس هناك سماء. هذه الزرقة هي لون المدى. والكون ليس مدوزنا حول كوكبكم الصغير التافه. وهو ليس مقسما إلى سبعة طوابق."

قلت: "هذا هو سبب إضافي يجعلني أعود إلى كوكبي. أنا ميئوس مني. "

رفرفت أمواجها: "فعلا. لأنك تعرف أنك في عضويتك الفلكية يمكنك أن تعود إلى كوكبك الفاخر بلا زمن. لكن الحقيقة أن عقلك مشغول بتفكير ثان وأنت مستح منه."

" صحيح. أريدك أن تظلي مخلصة لي. "

تلاطمت أمواجها واصطخبت أضواؤها. وندت عنها أصوات كشهب أطفال نارية. "كرمى لله لا تحاول إضحاكي بنكتة بائخة. أنت تعلم أننا هنا نعيش بلا ماض. يعني بلا ذكريات. نحن فقط الآن. في الكون الإخلاص فقط للحياة. لا لامتلاك الانسان للانسان !"

هتفت بجزع وأسى: "يعني لن تخلصي لي؟ يعني ستخونينني؟"

"رجعت إلى أخلاقيات أهل الأرض المريضة؟ تتركني وتعود إلى كوكبك المملوء أخطاء .. وتريدني أن أجمد أمواجي وألواني وأضوائي انتظاراً لك؟ ثم قل لي: أنت ستبقى مخلصا لي؟"

هززت رأسي بقنوط: "شفت مشكلة أنكم لم تأتكم رسل؟أنتم لا تعرفون واجبات المرأة وحقوق الرجل."

فرفر صوتها بحبور: "أنا قلت لك. هذا الكون غير كوكبكم المعتل. لو احتجنا إلى رسل لأرسلهم الله لنا. "ثم انعطفت درجتين ومعشارا ورفرف صوتها من جديد ليعلمني كيف أستعمل طاقية إخفاء قدمتها لي وجلدا مسحورا وخاتما شبيكيا لبيكيا وأشياء أخرى". سيحاول الخليفة قتلك أكثر من مرة".

تسللت أمواج خارج أمواجي وارتحلت أشعة وانقطعت ترددات. عرفت أن أفقزاد غادرتني وانتشرت. تلويت وانسددت وتلاطمت أمواجي. وإذ لبست الجلد والخاتم وحملت الطاقية كان الحزن قد تعبّاني. وكنت أخترق طبقة الأوزون وأدخل الغلاف الجوي لكوكبي. مع الأوقات مرة أخرى ومع الجهات الأربع. والفوق والتحت. مع الصحراء والسماء وضوء القمر وبريق النجوم. وربما مع الخليفة أيضا. فهذا النزول المتحرك بين سور القصر والجبل والمنحدر .. الواقف حينا .. الجالس حينا .. المهرول حينا .. يستحيل أن يكون سوى عبد الملك دهريار بن مروان نفيطان .. أمير المؤمنين .. الخليفة.

كان ينشد:

لعبت هاشم بالملك فلا رسل جاءت ولا وحي نزل
ولعبنا نحن في في أيامناهكذا الأيام والدنيا دول

" أنت هو ! " هتف الخليفة بي وأنا ما أزال قامات في الجو. لم يكن يسأل وإنما يندهش. وبعد أن أوشك بؤبؤاه على الطيران عجبا سربله حزن مداهم مشوب بارتياب خفيف. همهم: "ليتك تجسدت في خاطري وليس

في عيني. فأنا لم أكن أؤمن بنزول ملائكة على البشر. الآن أصدق أن الله يكلفني برسالة". ونظر إلي باسترسال ثم سأل: " أنت هو؟ "

كنت خائفاً لأول مرة منذ عقود فلم أجب. حتى أنني لم أهبط. لم أفهم من هو "هو" لكنني كرهت أن أخيب توقعات الخليفة. كان وجهه مشعشعا بالإدراك والوصول. وكذلك عيناه. وآثرت أن أعلن عن نواياي قبل أن أعلن عن شخصي: "جئت لأساعدك على أن تكون ثالث العمرين الراشدين". وإذ لمحت الطمأنينة والترهب في عينيه هبطت.

وقفنا في الليل المقمر وجها لوجه. حوالي دقيقة (الزمن لأول مرة منذ عقود). كان منطرباً. دار حولي وعيناه تتفحصان شكلي الذي لا مادة فيه. أخيرا تمتم: "إنما أين الأجنحة؟ "

قلت بسرعة: "جئت من فضاء تنطلق فيه الكائنات بالمشيئة لا بالأجنحة. الأجنحة ضرورية للجسم فإذا لم يوجد جسم فلماذا الأجنحة؟"

طفرت السعادة من وجهه: "تماما مثلما في وجداني. مثلما في وجداني. مرحبا بك. بيتك ومطرحك. وأنت لك شكل الآدمين.!"

" لو أعرف ما في وجدانك يا أمير المؤمنين. "

"ما في وجداني كله حيرة. ونشوة. وقاك الله منها يا .. ما اسمك؟"

" ابو الفتح يا مولاي. "

" أبو الفتح ! في السماء يسمون هذا الاسم الأخرق؟ تقصد أنك فتحائيل."

لم أشأ توكيد اسمي العربي ولا هويتي الاسكندرانية. وقصة الحب التي عشتها مع أفقزاد لن يصدقها أحد. تريثت. كنا نتجه إلى القصر. يده المطبقة على "زندي" تعبيرا عن سعادته بتجاوب عقلينا جعلتني أتحسر على مكاني الفضائي مع أفقزاد. هناك حيث اتساع المكان يعني اتساع التلاقي.

قال: "ما في وجداني يا فتحائيل هو نفسه الذي كان في وجدان أبي مروان بن الحكم. ولكن انتبه. انا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول

الله. هذه مسألة غير قابلة للنقاش. ما في وجداني ببساطة هو أن الرسل جماعة متفوقون على سائر البشر بقواهم الروحية الخارقة. بهذه القوى الروحية تواصلوا مع خالق الكون. وعرفوا مشيئته. وبلغوا هذه المشيئة للبشر. وكان سبحانه راضيا بصمت عنهم. استلهموه حق الاستلهام، لكنه لم يوح لهم أبداً. ونحن في هذا الزمان علينا أن نعرف ما يريده الله. علينا أن نتبع استلهامنا الخاص. "

قلت في نفسي لا شك أن أفقزاد كانت ستسعد بهذا الخليفة. مشينا بصمت واقتربنا من بوابة القصر.

قال: "أمسك بك فلا أحس أني أمسك بشيء. قوام بلا مادة ! هذا مخالف لقوانين الفيزياء."

في باحة القصر أخذ يتفحصني من جديد. ثم تمتم: "لا أجنحة ولا كتاب أيضا."

قلت: "الكتاب معطى لكم سلفا يا مولاي. ومع كتاب النبي .. لن ينقصكم شيء. "

تبسم: "والكتاب مدفون في جوف الصحراء. ليس علينا سوى استخراجه. أعتقد أنني سأفرح بك. عقلانا يشتغلان على خط واحد. علينا أن نعرف كيف نعمل بموجب كتاب النفط. "

فجأة التفت إلي مستطير المحيا: "ولكن لماذا الكتب عبء على البشر؟"

ثم التفت إلى السماء كمن تذكر أنه قبل لحظات كان يخاطبها. حدّق قليلا في النجوم السحيقة. على وجهه ترمّد رجاء منقطع. كأنه منتظر مكالمة لا تجيء. والتفت إلي مستطير المحيا: "ما الذي يدريني أنك لست إبليس؟"

كانت أفقزاد قد ابتسمت يوم سألتها هذا السؤال في أول لقائنا. وابتسمت أنا. بل وأجبت الجواب نفسه تقريبا: "جئت من فلك لا أبالسة

فيه ولاملائكة يـا مـولاي. مـن عنـد كائنـات خلـت حيـاتهم مـن الخـير والشر."

أخذ غضب عاقل ينتثر من عينيه: "خلت حيـاتهم مـن الخـير والشـر! مستحيل ! هذا يعـني أنـك إبليـس". وهجـم علـي. لطمـني بمحبـاط كفـه. "وأنت تهزأ بي" . كان عتلا وطويلا . وللتو اخـترقني كفـه تماما مثلما اخترق الهواء. انفلش غضبه وانصعقـت حركتـه. عـبرني كفـه مـن الوجـه الأيسر إلى الوجه الأيمن. وابتسمت ابتسامة مظفرة .

نظر الخليفة إلي كأنه تعرى بالكـامل وفارقتـه أمـارات الخلافـة. صـار ضعيفا لأنه لا يمكنه إيذائي جسدياً .

تبادلنا التحديق بعض الوقت . كل غضبه صار خوفا: إنه عاجز عـن السيطرة علي بالقوة. وكل ظفري صار خوفـا: إذا كنـت فقـدت الحـس بالألم فماذا بقي من إنسانيتي؟

وجدتني أهتف: "ها أنت حاولت الشر معـي يـا مـولاي. وتـأكدت بنفسك أني خارج هذه الدائرة. ما رأيك في أن نعقد اتفاقا ؟"

نظر إلي مترقبا. منعته كبرياؤه من أن يجيب .

قلت: "نعقد اتفاقا. أسـاعدك في قـراءة كتـاب النفـط وتسـاعدني في استرداد إنسانيتي، ونعمل معاً على نشـر الإسـلام في كوكبنـا وفي المجـرات الأخرى". هز رأسه هـزة موافقـة واحـدة: "هـذا يعـزز مـا في وجدانـي". وبعد صمت عميق أضاف: "كل واحد منهم يأتيه وحيـه الخـاص. بحسـب ما في وجدانه. لو أن الله أوحي لهم لما كان محمـد مـع الرأسمالية والمسيح ضدها وضد كل الأغنياء ."

ثـم حـدق في وجهـي بارتيـاب مضطـرم: "مـا هـذه الإنسـانية الـتي تريداستردادها؟ أنا أجد إنسانيتي ثقلا . تجعلني ناقصاً ومحتاجا. والنقصض والحاجة ضد الحرية. لماذا تريد ما أهرب أنا منه؟"

لم أدر بما أجيب. همهمت: " أريده. أجدني غريبـا بدونـه. ضائعـا. نحن بني آدم نملك مزايا لا تمتلكها مخلوقات الله الأخرى."

"تعال معي". وضغط على زر في جهاز صغير معلق برقبته.

رأيتني في سرداب عجيب مدفون في الأرض ومطل على الفضاء. ورأيت قبضة الخليفة تشد على زندي: "كيف أوائم بين كتاب محمد وكتاب النفط؟ أنا أقصد هذه الفلوات عند الغسق وعند الغلس وأناجيه طالبا حلا. لكنه فعلا لايرد. يريدنا أن نعرف ما يريد دون أن يتكلم. مثلما كان شأنه دائماً."

قلت: "لأنه ليس هناك مشكلة. اعتبر النفط خراجا يا مولاي وتصرف به مثلما كان عمر يتصرف."

"تعال معي". وضغط الزر فانبثقنا في غرفة نوم خاصة يبدو أن لا أحد يدخلها غير خلافته. قال الخليفة: "كبر بيت المال ألفا وتسعمئة بالمئة خلال عامين. ثم كبر وطاح. وكبر وطاح. لم يعد السرداب الذي تحت هذا القصر يتسع للدنانير والدراهم. سبعون مترا في سبعين مترا. مقاسم مقاسم. ورفوف رفوف. كنت أدخل السرداب وكأني داخل على عذراء. أتعرى. وأغوووص. وأغووور. وأسبحح في ربى الدنانير والدراهم. أتقلب عليها وبينها وداخلها. حتى يتجرح جسمي وتنزف دماؤه. المال يعني القوة. المال يعني الحرية. يعني الرقاب الخاضعة لك. كل كرامة يمكنك أن تنخخها بالمال. كل نهد ناهد يمكنك أن تطأه بالمال. كل عقل جبار يمكنك أن تنزع جبروته بالمال. هل تعرف كيف استمر حكمي لهؤلاء الأعراب؟ جعلتهم يدمنون عطاياي. هؤلاء هم المؤلفة قلوبهم الذين منع عمر الزكاة عنهم. إنما دعنا من حديثهم الآن".

التفت حوله وغمغم: "ليس لدينا هنا ويسكي. إنما دعنا من حديثها الآن. أنت لا تعرف الاضطراب الذي عانيناه والضيق والتعاسة يوم اضطررنا للتحول إلى الأوراق المالية بدلا من المعدن. ورقة تافهة يا رعاك الله ويمكن أن أمزقها بسهولة: تساوي مئة دولار! رزمة تضعها في جيبك تعادل ما كان يمتلىء به الصندوق أيام زمان. وصارت المشكلة أين نودع الورق!

قلت: " في المصارف طبعا. "

نظر إلي بمرح ووداعة: "أليس الربا محرما عندكم هناك في الأفلاك الأخرى؟ "

كنت ما أزال خائفا رغم حصانتي الفيزيائية . تفاديت السؤال بالقول: "ليس ربا يا مولاي. وإنما فائدة. وسيدنا عمر كان يعمل بها."

حدّق إلي بعينين صقريتين. باهتمام يغلي غضبا. ليس من عادة البدوي أن يستعجل في قتل أحد. سلطانه أمرني بالشرح. حكيت له كيف أن ابن الخطاب همّ بمعاقبة ولديه عبد الله وعبيد الله لأنهما استثمرا مال الخراج في طريقهما من الكوفة إلى المدينة . ثم قبل بحصة بيت المال من أرباحهما فور أن ذكّره صحابة النبي بأنه يمنحهم "قراضا " يستثمرونه بالطريقة نفسها .

أوشك مخلب عينه أن ينغرز في وجهي. كبسة ثالثة من يده على زر آخر في الجهاز. انفتحت ستة أبواب. دخل ستة مطوعين. انغلقت الأبواب. أحد القادمين كان مهيب القامة بشكل استثنائي. قال له دهريار: "هاتوا له مفرشا لئلا تأخذه الرطوبة يا شهريار. وهاتوا له ويسكي. هذا نزيل خاص. "

تمتم شهريار: "أجهزتنا تقول إنه آتي واحدة من الجن. قد تدخل إليه في الزجاجة يا مولاي وتخلصه. "

التفت الخليفة نحوي: "هات له ويسكي يا شهريار". اقترب مني: "إذا جعلت الدين يسرا لا عسرا أيها القادم الإبليسي فكيف أحكم هؤلاء الأعراب؟إذا حررت عقولهم من حرفية النص وأخرجتها خارج متاهة اللغة العربية فكيف ابلبلهم وأربك حياتهم وأرهقها؟ في اليوم التالي يطالبونني بالديمقراطية. وبتوزيع الخراج. وينهض عبد الله بن الزبير من قبره ويعتصم بالكعبة ثاقبا أذني بصيحة عمر: كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ... تريدهم أن يصيروا أحرارا مثلي؟"

التفت إلى شهريار بنظرة توكيد: "هذا نزيل خاص".

ثم اختفوا مثلما يختفي الممثلون في مسلسل (ستار تريك). في موضع الخليفة سمقت زجاجة (بلاك ليبل) عملاقة وفي داخلها سائل بموج. وفي موضع أبي الفتح الاسكندري رأيت سجينا متضائلا. دسست إصبعي في فمي. كان لساني ما يزال بحجم مخ العصفور. وإذن فجهازي الهضمي ما كان ليزيد عن أغشية هيولية .

اردت أن آكرع من الويسكي لأرى كيف ستنتقلني أدوات أفقزاد من السم الذي دسه الخليفة فيها. وخطر لي خاطر جنوني فرميت ثيابي ورحت أدفق الويسكي على "بدني" . رائحتها الحبيبة أنعشتني. تلك الرائحة المجيدة. حمدت الله أن حواسي مازالت تعمل وأن السم والمناخ لا يؤثران على "بدني" .

انفتحت الأبواب. دخلوا. كيف غاب عني أنهم يراقبونني؟ همس صوتان أو ثلاثة: "اختفى سيدي ! قلتم لجلالته الجنية ستخلصه". كانت الأصوات ترتعد .

همس الرابع: "ويمكن أن تحبسنا نحن في هذا الزندان ."

"غبي !" صاح شهريار وهو يلتفت حوله بعينين صقريتين. "نحن في خدمتنا أرقى تكنولوجيا اليابان والأمريكان. وها مفاتيحها معي". وضرب بكفه الغليظ علي جيب جلابيته.

همس الرابع بخنوع: " تكنولوجيا الجن متقدمة على اليابان والأمريكان سيدي. والجن يسلبون العقول. "

همس الخامس: " صحيح سيدي. تكنولوجيا الجن لا تؤثر فيها أي تكنولوجيا. ألم تقل إنه نزل من السماء على مولانا الخليفة؟ بلا صاروخ ولا طائرة ولا أجنحة؟ لم تؤثر فيه كل أجهزتنا !"

"غبي!" دمدم شهريار بغضب كظيم. "أبو الفتح هذا أنا أعرفه. من يعش على أرضنا تحكمه إرادة الخليفة. "

خرجت من هيئتي الآدمية وتركت لقوامي أن يتشكل بعفوية. غادرت المكان. صعدت في الجو. حططت على صحن رادار هو جزء من تكنولوجيا شهريار لحماية الخليفة من الخليقة.

طفت في معارج القصر حتى العصر. رأيته غاية في الأبهة. جدرانه مزدانة بالمرمر الملون والفسيفساء وأعمدته بالرخام والذهب والزبرجد وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر. ولطّفت جوّه النافورات والمياه الخارجية والحدائق الغنّاء بأشجارها الوارفة الظليلة. وكان الخليفة يجلس في البهو الكبير وعلى يمينه أمراء البيت المالك وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاد. ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلدان ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم.

كان يقول لهم: "الحمد لله الذي اصطفى لنفسه الإسلام دينا واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه والقوّام به والذابّين عنه والناصرين له. أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده. فقد جعلني على ماله قفلا إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني."

وراء أسوار القصر لبدت الصحراء. كمنت. قبعت. جثمت. هجعت. تربعت. كل حبة رمل منها بؤبؤ. لم تكن لي مفاصل لكن مفاصلي ارتعدت. كل بؤبؤ هاجس. كل بؤبؤ تهديد. الشوارع ملاعب للسيارات. الجسور الهائلة زقورات بابلية معاصرة. العمارات قلاع بهية هندسية. وكل حبة رمل بؤبؤ.

قلت لشهرزاد: "مرحبا. أحمل إليك تحيات أختك أفقزاد."

فجعلت تبكي. قلت: "ماذا يبكيك؟"

نهنهت: "أريد أن أهاجر من هذه الأرض إلى الفلك."

قلت: "هاجرت أنا وبقيت حتى تبدد لحمي وعظمي. ثم أعادني حنيني إلى البشر. مع أنني أساسا مخلوق من الكلمة. فكيف أنت!"

هزت رأسها إشفاقا علي: "أنت كاتب مقامات أنت! أعادك لأي سبب؟"

قلت: "أريد أن أسترد إنسانيتي بكتاب النفط."

اختلط اشفاقها بالسخرية: "شهريار استرد حياته بكتاب النفط. ليس إنسانيته بس. لكنه فقد الاثنين. بدل الجمال والسعادة سربلني بالبترولوجيا والتحريمات. طلب من الخليفة منع كتابي. أسكنني في القرن الرابع عشر."

قلت: "أنت محظوظة. الخليفة يسكن في القرن الثامن". وفي نوبة كرم بشرية مباغتة تناولت من جعبتي طاقية الإخفاء.

"هذه لك. من شقيقتك أفقزاد. تضعينها على رأسك فلا تعودين حتى أنت ترين جسمك."

هتفت شهرزاد مبهورة: "وأسترد حريتي!" ثم عتم وجهها: "لا يمكن. أريد حريتي عن طريق قصصي."

قلت: "لا تكوني مثالية خرقاء. أنا وعيسى ألف سنة ونحن نسعى إلى الحرية عن طريق المقامات. النتيجة:عيسى طرطور وأنا فاقد لإنسانيتي. خذيها. اختفي فيها عن عيون التكنولوجيا والتحريمات."

وهكذا كان. خلال ثوان اختفت شهرزاد عن باصرتي. سمعت صوتها يناديني من الخلف كسقسقة العصافير. التفت فسمعتها تهدل: "أنا فعلا مختفية! أنت لا تراني! وأنا لا أرى جسمي في المرآة!"

بعد صمت قصير تمتمت بخفوت: "الآن أعرف كيف أبحث عنك يا مسعود."

أفق أبلق. أرض تركض. وعينه تستحير من الهجير. في كل يوم له خلوتان يقرأ فيهما القرآن. يتربع على البساط اللبد ويتهجد للواحد الأحد. كان عابدا ناسكا في المدينة قبل الخلافة. عنه قالوا: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك دهريار بن مروان نفيطان. وأفضى إليه الأمر والمصحف في حجره وبين يديه فأطبقه وقال: هذا آخر عهدنا بك.

ذاكم هو الخليفة. في لحظة غافلة ينتفض الأعرابي في دمه. يطبق الكتاب ويخرج من ذلك الباب. يفتح كتاب النفط. يدير ظهره للقرن السابع ويمضي نحو القرن العشرين. يثب عن ظهر الهجين ويجلس وراء مقعد الليموزين. عيناه تقرّان بصفوف المطوعين وأسراب العذارى. وهو وحده لديه التكنولوجيا والحرسلوجيا. فليعد إذن إلى القرن الثامن.

الشجرة الوحيدة التي تموت خارج الصحراء: الأعرابي. لا يستطيع الخليفة أن يمكث طويلا في القرن العشرين. هو والماء ضدان. هو والتراب ضدان. لو لا أن انقطع المطر ومات الشجر لما تكوّن الأعرابي ولا النفط.

عدت إلى الخليفة بعد دهور فرأيته يستحم بنسائه. رفرفت داخل الليوان الفسيح فتوقفت النساء عن مناغشة بدنه. نظرن إلي بهلع وفضول. ابتسامة الخليفة أفهمتهن أنني بعض مقدراته. ابتسمن. هبطت رويدا رويدا وجلست إلى يساره.

قامت النساء إلى الرقص والغناء. وعزفن على النحاس والوتر. قال الخليفة: "عودتك إلي وأنا لا أستطيع السيطرة عليك تؤكد لي ولاءك." كنت أحس بانقراص في "بدني" لم أفهم سره. قال الخليفة: " أنا سأضع يدي في يدك وأعطيك عهدي". تصافحنا توكيداً للعهد. لكنني كنت أنظر إلى النساء. اشتد الانقراص. صار انحرارا. قلت: "سنثبت للبشرية يا مولاي. وللتاريخ. أن الأعراب سيبلغون المجد. ستكون لديهم صناعتهم وتكنولوجياهم وعلومهم وحضارتهم. بل وسيقيمون امبراطورية للنفط أوسع من أمبراطورية الإسلام. "

قال الخليفة: "ولكن انتبه! لا تصدع رأسي مثلما يصدعه العلماء. معروف عني أني منذ القرن السابع خطبت في الناس بعد الصلاة وقلت لهم: والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا وضربت عنقه. الإسلام شيء وتطبيقه شيء آخر. ومعروف عني أنني ضربت عنق كل من بايعني على سنة الله ورسوله. فأنا أعرف طريقي إلى الله. ومعروف عني أني خطبت في أهل المدينة، وكنت يومها معاوية بن أبي سفيان، فقلت:

ولقد روضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديدا."

قلت: "أنا مثلك يا مولاي أبحث عن خلاصي من اللغة. أريد أن يكون مقامي فوقها وليس تحتها. ولكن ماذا تنوي أن تفعل بكتاب النفط؟ "

هتف: "أنت قل لي. لا تكن مثل العلماء الذين يأتونني بأحاديث نبوية تعزز منهجي. منذ أيام أبي هريرة وهم يروون لي عن النبي أقوالاً أحب أن أسمعها."

أحسست بتلويات صعبة في بدني. كان الرقص والغناء يؤلمانني. قلت: "ولكن يجب أن تفعل شيئاً مما فعله عمر ببيت المال."

تمتم كمحسن يحرجه الفخر بنفسه: " أنا أفعل ! سبعة بلايين دولار حتى الآن دفعت لتحرير أفغانستان من الشيوعية."

قلت: "لا تذهب بعيدا يا مولاي. لو دفعت هذه البلايين لتحرير ثالث الحرمين الشريفين."

رافعا يده بينه وبيني همهم: " الرئيس فكس يخدمه خدمات لا تقدر بالبلايين."

قلت:"لكن اليهود يحتلونه يا مولاي !"

قال: "اسمع. لنتفق أن لا تتدخل أنت في السياسة". لكنني لم أحول عنه نظرتي. قال بفرح: " أنا سأفهمك. أنا أشغل الأعراب بالدين. والرئيس فكس يشغل الحضر بثالث الحرمين الشريفين. "

قلت: " لم أفهم يا مولاي. ما هي شغلة الرئيس فكس بالتحديد؟ "

لاحظت بعض المقت في وجهه. غير أنه تمتم:" فكس يجعل إسرائيل تهدد العرب الذين يهددوننا. يجعلها تكفينا شرهم فنتربع على عروشنا. لولا إسرائيل لهاجمونا نحن."

ذاكم هو الخليفة. في لحظة غافلة ينتفض الأعرابي في دمه. يطبق الكتاب ويخرج من ذلك الباب. يفتح كتاب النفط. يدير ظهره للقرن السابع ويمضي نحو القرن العشرين. يثب عن ظهر الهجين ويجلس وراء مقعد الليموزين. عيناه تقرّان بصفوف المطوعين وأسراب العذارى. وهو وحده لديه التكنولوجيا والحرسلوجيا. فليعد إذن إلى القرن الثامن.

الشجرة الوحيدة التي تموت خارج الصحراء: الأعرابي. لا يستطيع الخليفة أن يمكث طويلا في القرن العشرين. هو والماء ضدان. هو والتراب ضدان. لو لا أن انقطع المطر ومات الشجر لما تكوّن الأعرابي ولا النفط.

عدت إلى الخليفة بعد دهور فرأيته يستحم بنسائه. رفرفت داخل الليوان الفسيح فتوقفت النساء عن مناغشة بدنه. نظرن إلي بهلع وفضول. ابتسامة الخليفة أفهمتهن أنني بعض مقدراته. ابتسمن. هبطت رويدا رويدا وجلست إلى يساره.

قامت النساء إلى الرقص والغناء. وعزفن على النحاس والوتر. قال الخليفة: "عودتك إلي وأنا لا أستطيع السيطرة عليك تؤكد لي ولاءك." كنت أحس بانقراص في "بدني" لم أفهم سره. قال الخليفة: " أنا سأضع يدي في يدك وأعطيك عهدي". تصافحنا توكيداً للعهد. لكنني كنت أنظر إلى النساء. اشتد الانقراص. صار انحرارا. قلت: "سنثبت للبشرية يا مولاي. وللتاريخ. أن الأعراب سيبلغون المجد. ستكون لديهم صناعتهم وتكنولوجياهم وعلومهم وحضارتهم. بل وسيقيمون امبراطورية للنفط أوسع من أمبراطورية الإسلام. "

قال الخليفة: "ولكن انتبه! لا تصدع رأسي مثلما يصدعه العلماء. معروف عني أني منذ القرن السابع خطبت في الناس بعد الصلاة وقلت لهم: والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا وضربت عنقه. الإسلام شيء وتطبيقه شيء آخر .ومعروف عني أنني ضربت عنق كل من بايعني على سنة الله ورسوله. فأنا أعرف طريقي إلى الله. ومعروف عني أني خطبت في أهل المدينة، وكنت يومها معاوية بن أبي سفيان، فقلت:

ولقد روضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديدا."

قلت: "أنا مثلك يا مولاي أبحث عن خلاصي من اللغة. أريد أن يكون مقامي فوقها وليس تحتها. ولكن ماذا تنوي أن تفعل بكتاب النفط؟ "

هتف: "أنت قل لي. لا تكن مثل العلماء الذين يأتونني بأحاديث نبوية تعزز منهجي. منذ أيام أبي هريرة وهم يروون لي عن النبي أقوالاً أحب أن أسمعها."

أحسست بتلويات صعبة في بدني. كان الرقص والغناء يؤلمانني. قلت: "ولكن يجب أن تفعل شيئاً مما فعله عمر ببيت المال."

تمتم كمحسن يحرجه الفخر بنفسه: " أنا أفعل ! سبعة بلايين دولار حتى الآن دفعت لتحرير أفغانستان من الشيوعية."

قلت: "لا تذهب بعيدا يا مولاي. لو دفعت هذه البلايين لتحرير ثالث الحرمين الشريفين."

رافعا يده بينه وبيني همهم: " الرئيس فكس يخدمه خدمات لا تقدر بالبلايين."

قلت:"لكن اليهود يحتلونه يا مولاي !"

قال: "اسمع. لنتفق أن لا تتدخل أنت في السياسة". لكنني لم أحول عنه نظرتي. قال بفرح: " أنا سأفهمك. أنا أشغل الأعراب بالدين. والرئيس فكس يشغل الحضر بثالث الحرمين الشريفين. "

قلت: " لم أفهم يا مولاي. ما هي شغلة الرئيس فكس بالتحديد؟ "

لاحظت بعض المقت في وجهه. غير أنه تمتم:" فكس يجعل إسرائيل تهدد العرب الذين يهددوننا. يجعلها تكفينا شرهم فنتربع على عروشنا. لولا إسرائيل لهاجمونا نحن."

طغت شدة المغص على عقلي بغتة. وتفشى الألم في سائر أنحاء بدني. والحريق والانحرار. تحاملت على نفسي وقلت: " والأعراب؟ هل ستظل قلوبهم مؤلفة بهباتك وعطاياك؟ "

صاح الخليفة منطربا: "هنا تأتي مهمتك ! ألم تقل: أريد أن أسترد إنسانيتي؟ استردها بأن تقول لي كيف أجعل هؤلاء التنابل شعبا من العاملين والمشتغلين. تعرف يا فتحائيل؟ هؤلاء لا تربطهم بهذه البلاد رابطة إلا البترودولار. لولاه لهاجروا إلى الاسكندرية أو أمريكا ... وإذا لم أؤلف قلوبهم بالبترودولار مثلما أمر القرآن الكريم قاموا ليسيلوا دمي في الرمل. وإذا لم آت بالأجانب لخدمتهم في ماكينة الدولة انهارت الدولة على رؤوسهم. يريدون المناصب مقشرة من مسؤولياتها. "

نهض عن كنبته بانفعال. توقفت الموسيقا والغناء والرقص. واختفت النساء. آلام بدني انكمشت قليلا. كان دهريار محاصرا بذاته.

بهدوء تمتم: "أتعرف ماهية روحك إذا كنت أنت ابن الصحراء؟ في الصحراء لا تمتزج حبتا رمل أبدا! ملايين السنين تبقى الحبة بجوار الحبة. وتبقيان حبتين. هكذا روح ابن الصحراء . دائما وحدها. زجها بين ملايين الأرواح تبقى وحيدة. التراب يمتزج. نحن نظل رملا. نحن العرب يستحيل أن تجعل منا أمة أو شعباً ."

كنت في تلك اللحظة نهبا لآلام بدني ولتأثري من كلام دهريار. رأيتني على حق يوم أعلنت لأفقزاد تصميمي أن أجعله ثالث العمرين الراشدين. رأيت أمامي رجلا يناضل لينجو من قدر فطرته. قلت:" أنت تخيفني يا مولاي. أية إنسانية سأسترد بينكم ما دمتم ذرات لا تمتزج؟ ما دامت لغة الأسلاف وشماً في عقولنا !"

اجتاحت الآلام بدني. آلام لم أعرفها طوال ألف عام. رحت أصرخ وأتلوى. سقطت ونهضت. وسقطت ونهضت. شيء ما .. ثقل ما .. يضرب بي الأرض .. وشيء معاكس .. خفة معاكسة ترفعني. وبغير إبطاء دخل الحرس وحملوني إلى المستشفى.

قال الأطباء إنها نوبة صرع .أحدهم أكد بلا تردد : العباقرة يكونون أحيانا مصروعين. لكنهم عندما أرادوا حقني بمهدىء صعقوا. كيف يغرزون الإبرة في سديم؟

منهم جميعا سخر شهريار: "هذا عديلي وأنا أعرفه. هذا مسكون بجنية. لازم طرد الجنية منه. وهذه شغلة أبو يوسف لا شغلتكم أنتم. "

كنت ما أزال أتلوى في خضم آلامي الوثابة النافرة. والطبيب الذي أكدت له نوبة الصرع عبقريتي ما يزال مذهولا: كيف يمكن لمخلوق مكتمل أن يوجد بلا عضوية ! لقد تبين لدي بدايات معدة وأمعاء. بدايات رئتين. ودماغ وكليتين وكل شيء. بمعنى علمي: عضويا كنت ما أزال جنينا. عمليا يجب بلا تردد ولا إبطاء أن أوضع في حاضنة إنكليزية كيما يكتب لي البقاء.

بعدئذ غبت عنهم.

أواسط الليل انبثقت شهرزاد في غرفتي. لأول مرة أنتبه إلى قوامها الجميل وتحركها الساحر. بل الخارق. حقا كان جميلا إلى حد أذهلني عن أوجاعي. وكان حرا لا يكبله الخوف والارتباك من أنوثته. كل أعضائه طليقة. كل حركاته مفعمة بالثقة والاستقلال .

بعفوية تامة هتفت: "بدأت ترجع مثلنا يا أبا الفتح. هل تعذبت عندما صرت روحا مثل أفقزاد؟ "

تمتمت بعناء: "أبداً. جئتني لابسة طاقية الإخفاء؟" فاختفت بدل أن تجيبني وسقسقت. قالت: "لولا غيرة شهريار لأنزلتك في مطبخي وأطعمتك الطعام المناسب حتى تعود لك عضويتك. "

تضايقت من اختفائها . توترت أعصابي. نبرت: "بالله عليك اظهري وباني وعليك أماني ."

ظهرت. وجهها السعيد بالطاقية جعلها أجمل. بالطبع.ارتاحت نفسي. لكن بدني عانى نوعا آخر من التوتر. منعني من البقاء في السرير. طوّحت بالملاءة والبطانية ووثبت.

أحسستني متخففا من أوجاعي ولكن أمسيت أكثر هوجا. ارتمت إذ جعلت أدرز جسد شهرزاد بنظراتي. وتوجهت بانحراري وتوتري نحو تقاطيعه الربانية المستحيلة. رأيتها أمامي هلعة جزعة: "قل لي كيف أساعدك!" كانت جميلة كالنار. وكان قوامها جبلا. هفهف خصرها الأثيري وانحدر على سفوح طازجة. تعبأتها عيناي اللتان ملأتهما الأوجاع. نفذتا فيها بالرجاء والدعوة وهزتاها. "ساعديني أنا أموت!" وصاحت هي: "قل لي كيف أساعدك !." ورد عليها زنداي. انطلقا من مربط جسدي وتعبّآها. التفا عليها. كيف يعني التفا عليها؟ يعني انساحا على سفوحها الملساء الطازجة. استدارا على خصرها الأثيري. وأصابعي التقطت قمتي ردفيها اللتين توسطتا جبلا يطل على ميناء قرطاجنة. وجهي وأنفي وشفتاي وعيناي وذقني انحفرت كلها وشما بين سرتها والربلتين.

انحفرت كلها وشما. وكذلك أصابعي وجسدي. رأيت خليقة تخلق وأنا مغمض العينين. وعشتها وأنا فائر الوجع. أصابعي تشتد ومرفقاي ووجهي ووجناتي وركبتاي وكل مثنى خلقه الله في بدني ودلك المفرد. وأوجاعي ترق.

نهضت ركبتاي عن الأرض وشهرزاد ما تزال قيد يديّ. تلوى جذعها فوقي وأطبق ساعداها على أذني. سمعت دويا في جسدها وهديرا في بدني. حلحلت طوق يدي قليلا فانحدر بطنها وصدرها رويدا رويدا. انزلقت على بدني. صعد أنفي وشفتاي من سرتها إلى نهديها وإلى نحرها. وعند نقطة الصفر التقى الدوي والهدير. شفتاي اللتان صارتا لحما وأعصابا وشهوة مسحتا على جيدها الشامخ. مسحتا صعدا نحو حنكها الصغير فشفتيها المتبورتين.

وصلت لحظة الإيغاف ونحن بكامل ملابسنا. الوجد هو فوران النار في البدن فورانا يصير بردا وسلاما لحظة وصوله إلى طرف العالم. اكتمل البرد والسلام. وسمعت دمدمة شهرزاد. مزيجا من القرف والغضب

والقطيعة. ثم اختفت عيناها المذهولتان وفمها الحاشد باللغة. اختفت. وبقي صوتها ينفذ في أذني. ثم انفتح باب غرفتي وانغلق.

من كل شيء بقي في واعيتي أمر واحد: أنني استعدت بشريتي. خفيف الوطأة على كان موقف شهرزاد الأخلاقي المتزمت. ذلك أن الشهوة التي اغتلمتها معها أيقظت بقية رغباتي من رقادها. رأيتني بالكامل تحت رحمة الجوع إلى الطعام والعطش إلى الماء والحاجة إلى الهواء واكتمال الرئتين بعد اللهاث الذي أخذ بصدري خلال أربع دقائق من ممارسة الحب مع شهرزاد ... عادت كل حاجة عضوية كانت غائبة عني في فضاءات أفتراد.

اندفعت نحو زر الجرس الكهربائي كالثور الجامح. وخلت أن دهرا انقضى قبل أن تظهر الممرضتان الغبيتان وتنطقا بسؤال. صرخت أريد ماء وأريد مأدبة وبصلا وثوما وويسكي وملابس داخلية ... وفي الوقت نفسه رحت أدفعهما خارج الغرفة لئلا تضيعا مزيدا من الوقت.

جاءني الأطباء. تقدمهم الطبيب الذي أكدت له نوبة الصرع عبقريتي. وبدا لي أنه هو من يوشك أن يصاب بالنوبة. هتف نصف مذعور: "مستحيل ! كل هذه العضوية؟ فتحائيل صار آدميا مثلنا !"

تبادل الأطباء نظرة مرتهبة غامضة. وكنت ما أزال رافعا كفي أمامي بانتظار فرصة لطلب الطعام والشراب. بلع طبيب عبقريتي ريقه وغمغم متهدج الصوت: "يجب إبلاغ الخليفة فورا". وتمتم آخر: "لا طعام قبل فحصه بيولوجيا."

اندفعوا نحو هاتف الغرفة. واندفعت خارجها. التقطت أحد الممرضين. وبجهد جهيد تمالكت هياج معدتي وقلت: "عافاك الله يا أخي. أنا لا أقدر على النوم لشدة جوعي. خذني إلى المطبخ وينوبك ثواب من الله ومئة دولار مني."

كان الممرض آسيويا أسمر. وكان ما فهمه كافيا لأن يقودني إلى المطبخ.

لا لزوم للتفاصيل. لقد منعوني من الأكل. الأطباء ومدير المستشفى وكلهم. هددتهم بأني سأطير إلى أفق زاد إذا لم يطلقوني على الأكل. وسمعت صوت الخليفة قادما من البهو: "فتحائيل ! أنت نسيت أن بيننا عهدا؟ "

قلت : " طظ في العهود والمواثيق يا مولاي . لم يلتزم جائع بالعهد إلا إذا كان حماراً. أشبع بالأول وبعدها ألتزم بالعهد. "

أخذ الأطباء يدخلون في بدني أمصالا وسوائل. وقال دهريار : " إذا استرديت اللحم والدم صرت صيدا سهلا للأشرار والمتآمرين. سيكون جسدك مقتلك. "

وكانت السوائل والأمصال تتدفق في عروقي. هتفت بيأس عصبي: "يا مولاي أنا رجل لا يموت. أنا مخلوق من اللغة. اكتسبت اللحم والدم لأني عشت بين البشر فصارا طبيعة ثانية. أنا لا معنى لي بغير إنسانيتي. دع لحمي ودمي يعودا إلي وأنا كفيل بالأشرار والمتآمرين."

أفق أبلق. أرض تركض. وعينه تستجير من الهجير. بين يديه لغتان: النفط والقرآن. ولا شريك له. ما تزال خلاياه مصنوعة من الرمال ووبر الجمال. ولكن ليس طائرته وتخته وبخته .

على امتداد الصحارى راقبتْ أقماره الصناعية طيور الحبارى. متى تجيء ومتى تهاجر. والمستر دونالد فكس خبير متخصص في تكنولوجيا المداجن: غير بعيد عن القصر كان السيد المطلق لمزرعة تفريخ الصقور. إنه يزود الخليفة والأمراء بطيور رجولتهم وفحولتهم. لولاه لما أمكنهم ممارسة رياضة الملوك .

كان حائرا بين أن يسخط وأن يضحك: "هذا المتخلف شهريار يرفض المشاركة."

قال شهريار: "عفوك يا مولاي. رحلة مثل هذه جعلتني أكتشف خيانة زوجتي الأولى وقوّضت ثقتي بالمرأة والعالم. أخرجتني من جنتي إلى

دنيا الغدر والانتقام. لاأستطيع. رغم تكنولوجيا الكشف والإبلاغ التي نملكها."

هتف الخليفة: "هات شهرزاد معك. ربع نسائي راكبات معي ."

" إذا جئت بها سأحرم من بقية نسائي. ما نفع رياضة الملوك بلا نساء؟ "

ونبر الخليفة: "ستجيء معنا يعني ستجيء معنا. من ستراففك من نسائك .. هذا أمر يخصك. "

ذلكم هو الخليفة .

على كبد الصحراء أقام خيمة من الحرير الخالص والأوتاد العاجية. وإلى جانبها مسلّة اسمنتية ضخمة حملت صحن التلفزيون. حولها أقيمت الخيام. وحول الخيام زقّورات صواريخ رادارية وطائرة حماية حربية. وبقدرة نظام السيد فكس جعلت الحبارى تحوم أمامنا في الفضاء .

لكن لا الصقور اصطادت الحبارى ولا الصواريخ انطلقت ضد أعداء الخليفة. فقط دخل الخليفة الطائرة الحربية وغاب. وبعد ساعات جاء من اقتلع الحرير والعاج والنساء وترك مسلة التلفزيون .

هذه المرة لم تكن المرأة من سجل سطور الخيانة. كان رجلا وثب فجأة من أواخر القرن السابع واستولى على قبلة المسلمين . ألف من الرجال والنساء والأطفال نفروا إلى سراديب الحرم الشريف واعتصموا هناك. على رأسهم عبد الله بن الزبير .

كان قرار عبد الله بن الزبير أن يموت أو يسقط دهريار ذا معنى واحد: إعادتي إلى الكدية. مساواتي بعيسى بن هشام المتسول الذليل وبمحمد عربي محمدين الكلب والخنزير. إذا سقط الخليفة خرجت من عالم الحرية الذي أنعم به وهويت إلى عالم عيسى بن هشام. عالم الضرورة. عالم البؤس والعناء والشرشحة. عالم القرن العاشر!

ذلك ما جعل عبد الملك ضيغما وابن آوى في نظري .

قلت له: "ولماذا لا تدرزهم بالرصاص وتخلص منهم؟ "

فاندهش وهتف : "ماذا دهاك أيها الأخطل؟ أراك عدت إلى عقلية الحجاج بن يوسف !"

قلت: "هات الحجاج بن يوسف وهو يهدم الكعبة فوق رؤوسهم."

قال: "إما أنك أسرفت في معاقرة الخمرة أو أنك استمعت إلى حكاية من شهرزاد. أقتلهم وهم في الحرم الشريف؟ لدينا وسائل أرقى بكثير. لعلك نسيت أننا في القرن العشرين !"

قلت: "بل أنت الذي نسيت أننا في القرن السابع. "

فنبر بسخط ودود: "بئس الشعراء إذ يعاقرون السياسة. حتى أنك لا تعرف أن الحجاج فتح دكانا خاصا به .و لم يعد يخدمنا ."

قلت لنفسي: هذه حضارة. ذلكم هو الخليفة. قلت: ليس ضلالاً أني التزمت بهذا الرجل الفذ. التزمت بحريتي. أنا لا أحب أن يروضني عبد الله بن الزبير ولا أي قانون. القوانين خلقت للدهماء. للضعفاء. أما المتفوقون فهم فوق القانون. لأنهم يبدعون قانونهم الخاص .

منذ أول يوم أغلق الخليفة البلاد بوجه العالم. ممنوع الدخول وممنوع الخروج. أحد العاملين الغربيين أراد أن يسرب أخبارا فقطع له السياف مسعود أذنيه. وبقي الخليفة خليفة. طول النهار جلس في الإيوان الكبير. إلى يمينه أمراء البيت المالك. إلى يساره كبار رجال الدولة. وهو حبة رمل.

قال لجلسائه إن الله سبحانه وتعالى شاء أن يمتحن هذه البلاد ويختبر التفافها حول دينها وولي أمرها. قال إن هؤلاء الذين ضللهم الشيطان والشيوعية .. "والشيطان هو الشيوعية .. هؤلاء أبناؤنا .. وإخواننا .. بإذن الله .. ولهم علينا حق الهداية .. ونعطيهم الفرصة إن شاء الله .. فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .. وإن شاء الله نحن لن نبخل عليهم .. وسنعطيهم .. ونتمنى إن شاء الله .. أن يعودوا إلى رشدهم .. ويعودوا إلى صوابهم .. بإذن الله .. ويتركوا الغي والفجور والعلمانية إن شاء الله .. ويعرفوا أي منقلب سينقلبون ...."

حمحم شيخ قبيلة ممن يجلسون إلى يساره: "طال عمرك: أي شيء أنت فاعل إن شاء الله في هؤلاء المارقين؟"

هب سكون رهيب. لم يتحرك الخليفة. ولم يعبس. سرحت نظرته بالرضا والسماح: "لا شيء. إن شاء الله. إلا ما يأذن به الله. وأنا أقول ما قاله عبد المطلب قبل مئة وستة وعشرين عاماً لأبرهة الأشرم: إن لهذا البيت رباً يحميه. أنا لن أفعل إلا ما يشاء الله. إذا شاء الله قتلهم قتلتهم. وإذا شاء الله أن يغفر لهم غفرت لهم. تماماً مثلما يشاء الله. "

في الليل سرى إلى حيث قابلته أول مرة. إلى أديم الرمال بين سور القصر و جلاميد الرمل. هناك مشى ووقف وهرول وركع. وبين هذا وذاك تمتم: "لم يكن هذا ما في وجداني يا مولاي" ورفع وجهه إلى السماء. في عينه خفقة عتاب وأسى. ضرب كفيه على ظاهر فخذيه. رأسه مطرق نحو الرمال. التفت إلي: " أنا أرتكب المعاصي لكني متفق معه على ذلك". ورفع وجهه إلى السماء: "حتى الملاك الذي أرسلته صار أنسيا يطير!"

كنت مترددا في التسليم بسلامة عقل الخليفة في تلك الوهلة. هذا الذي مذ قابلته يقول لي إنه فتح قناة تصل روحه بالله. ويقول لي إن الله سبحانه وتعالى يتلقى ولكنه لا يرسل وأن على الإنسان أن يستشف عبر قوته الروحية مشيئة الله.

همهمت: "ما الذي يضنيك يا عبد الملك؟ تترك البلاد مهددة بالثورة وتأتي إلى هذه الجبيلة لتناجي ربك !"

قال: "أريد أن أعرف هل الله هو شاء عبد الله بن الزبير أن يفعل ذلك. لأنه إذا شاءه فعبد الله على حق. "

تمتمت: "لا يحدث شيء إلا بمشيئة الله. هذه بديهية. لكننا لا نعرف حكمتها."

فهتف نافد الصبر: " لا تكن غبيا مثل أبي يوسف. كأن الله لا شغل له ولا مشغلة في كل أكوانه إلا أن يقرر أفعالكم التافهة أنتم البشر".

ومشى على غير هدى. "الله خلق الكون وخلق له ناموسه. ثم تركه يتصارع مع حريته. رحم الله أبا سفيان."

هتفت مرتعدا: "عبد الملك! لا تكفر! هذا رجل مات وهو يقسم باللات والعزى!"

عاد إلي. التقط زندي بقبضتيه القويتين. شد عليهما كأنه أراد ألا تفلت مني ذرة اهتمام واحدة: "لا تسيء فهمي. أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله. إنما أعرف تماما أن الله لا يتدخل. قل لي: هل يعقل أن تكون استباحة النساء في مدينة رسول الله ثلاثة أيام.. واستباحة المدينة كلها.. تمت بمشيئة الله؟"

تركني وهرول كأنه أراد أن يتبع شيئا ما. كأن كلمة سر أوشكت أن تلج مغاليق روحه ثم تبددت بلا سبب مفهوم. أفزعني شعوره الضخم بالغربة. أحزانه الجائشة. كان مخذولا كشهريار يوم اكتشف خيانة زوجته الأولى مع العبد مسعود. أفلا تكفيهم النعم التي يرفلون فيها؟ ألا يكفيهم أنه أنزلهم عن ظهور الجمال وأجلسهم على مقاعد السيارات؟ ألا يكفيهم أنهم الشعب الوحيد في العالم الذي يعيش في بحبوحة رغيدة وهم لا يمدون أيديهم إلى أي شغل يشتغلونه؟ألا يكفيهم؟

أفق أبلق. أرض تركض. وعينه تستجير من ذاكرة ظنها حتى ذلك الحين دائرة. منذ أن فقأتها تلك الأعرابية جمد الألم فيها وغار الدم وصعد القلق. الآن صعدت الذاكرة. ذاكرة المخرز الذي فقأ. ذاكرة البواريد والأجساد التي قطّعها. والدماء التي تغور في الرمال منذ أيام عمر. ومونيكا وسونيكا وفيرونيكا ولونيكا ودونيكا اللواتي فقأن دمامل روحه. نصف مليار ذاكرة وذاكرة هبت عليه من رقادها. عادت إلى الحياة بعد أربعة أيام من تصميم ألف إنسان وإنسان على الموت.

سبعون عاما مرت على العظام التي تعرت وهو غير مطمئن إلى أن نفوس الأعراب قد استسلمت واستقرت. هذا الاعتصام الرجيم في العتبات القدسية أزاح جبال الرمال عن العظام التي دفنها عبر السنين. الأحياء

يقبلون يده لأنهم لا يستطيعون قطعها. كل الأعراب يتذكرون الآن أنه قتل آباءهم وإخوتهم. وينسون أنه قتل أخويه أيضا لينشيء لهم دولة وأرصدة وقصورا.

قلت: "إذا استمر هؤلاء المعتوهون أطول مما يجب فمن يدري متى ستقيم صحافة العالم عاشوراء جديدة للديمقراطية."

قال: "لا تخف."

قلت: "ستصير حريتنا في خطر. سنضطر للاقتصاد والحذر في عيش ليالينا الحمراء والبيضاء والخضراء والسوداء."

قال: "لا تخف." ووضع يده على كتفي: "تتكلم عن صحافة العالم كأنها يمكن أن تؤثرعلى القرن السابع."

لم يعد بوسعي أن أفهم شيئا. قلت: "كرمى لله قل لي في أي قرن نحن نعيش؟"

بلغ التوتر ذروته صبيحة أول جمعة تلت الاقتحام. صحيح أن الصلاة استحالت هناك طوال خمسة أيام. لكن صلاة الجمعة شيء آخر. إنها معشرة أمثالها أجرا وشفاعة لذلك لن يخسرها أحد من المؤمنين. وتوقفها جعل التحدي إذلالاً شخصياً للخليفة. كان منكمشا ومستوحشا. لم يخفف عناءه كوم من أخبار الصحافة المؤمنة عن "دوي في العالم المتحضر ضد الكفرة" وعن "العلمانيين الملاحدة يمنعون صلاة الجمعة"...

قلت بحرج: "أنا لا أصدق هذا الدوي. العقول المتحضرة ترائك غير ذلك."

فهز رأسه وابتسم بحبور: "أعرف كيف تراني. خلطة من تيمورلنك وراسبوتين مع جيش من الحشاشين. ولكن ماذا يهمني؟ كل ما أريده من القرن العشرين معي. وأنا أمتلك كتاب النفط. الله سبحانه وتعالى قيّضه لي. وأنا سأعمل لكي تكون كلمة هذا الكتاب هي العليا."

قلت: "أعشق هذا فيك. إنك مطلق العيش. مطلق الحرية. كل سعاسف المثل العليا والقيم الأخلاقية لا تؤثر فيك."

" كيف تعمل أدمغة أعدائي يا أخطل؟ قل لي. "

رفرفت قليلا في فضاء الليوان. أحسست بضيق مفاجيء لم أعرف سببه. قلت: " أنا أعرفهم. شقيقي واحد منهم. هؤلاء يدفعون حياتهم .. حريتهم .. لتوكيد مبادىء .. أو شوية أفكار". وعلى حين غرة خطر لي أن أشاكسه. كان يغمغم: "آح! آح!" للمسات ديونيكا المستغرقة بدلال في مهمتها. قلت: "على كل حال. هؤلاء ليسوا مثلي أنا. جبان ولا أجرؤ على رفع صوتي ضد الظلم. "

غمغم دون أن تنقطع نشوته وسرحانه: " أنت مظلوم يا أخطل؟ "

حططت أمامه وصحت: "أولا ترى؟ كل هذه النيكاوات عندك وأنا ليس عندي غير الفرجة وفوران الدم. والبلاد كلها ممنوع فيها العشق والغرام ومبتلية بشهريار ومطوعيه ."

كان ما يزال يوحوح. عبر موسيقا حلقه النشوان غمغم: "اذهب إلى رضوان. واختر منهن أربعا على مزاجك. أنت ضروري أن تستعيد إنسانيتك". وأخذت الوحوحة تصدر حمحمة من منخريه .

نسائي اللواتي هبطن علي فجأة حبسن خيالي ووعيي. تجلين تجليات جامحة في نخاعي الشوكي. لكن وحوحة عبد الملك استلتني منهن بعد حين. وكذلك نجواه الفكرية : " ما هذا الكلام الفارغ الذي تقوله عن المبادىء؟ها هو الرئيس فكس بلا مبادىء مثله مثلي. ومع ذلك .. رفعته أمته من عسكري إلى رئيس. "

وكانت رونيكا قد بدأت تمسد له عانته فصمت احتراما للحظة النشوة وأغمض عينه السليمة وراح يهز رأسه فوق تحت .

كان الخليفة قد أخبر الصحفيين والكاميرات "إننا قررنا إن شاء الله إعطاء أبنائي وإخواني الذين ضللتهم مع الأسف الضلالة الشيوعية والعلمانية .. قررنا إن شاء الله إعطاءهم فرصة ليثوبوا إلى رشدهم بإذن الله".

صبيحة اليوم الثالث والعشرين من التمرد توجهنا إليهم في وفد من شيوخ البلاد وعقلائها. لبسنا الأكفان ومشينا وراء الشيخ أبي يوسف متوقعين أنهم هم الذين سيارزوننا بالرصاص وينعمون علينا بالشهادة. فلم نجد أحدا. فقط سبعة عشر شابا في أحد الأقبية . يتوسطهم عبد الله بن الزبير.

لم أر في بدنه أي شيء مميز. فقط ذلك الشعاع في عينيه : كان مفعما بنداء وأمواج تشبه أمواج أفقزاد . إذ عندما نظرت

إليه، أنا القادم لإنقاذه من الموت، خلت أنه ينظر إلي كرجل ينقذني من العبودية . أي خيلاء وأي خرف !

أما جماعته فكانوا جالسين في حالة انتظار ووداعة. كانوا مسترخين لأنهم أنجزوا مهمتهم. دهشوا لرؤيتنا. كأنهم توقعوا نوعا آخر من الوافدين. لم يفوهوا ببنت شفة. التقت أعينهم مرارا وتكرارا. مثل من يرى صدفة أو خطأ. لكن وجوههم الصامتة نطقت بأنهم عرفوا ما حل بالآخرين وزوجاتهم وأطفالهم. عدنا بسبعة عشر أسيرا. وخارج سور الحرم تلقف شهريار الأسرى ومضى رجاله بهم. وعدنا إلى الخليفة. ركع عبد الملك رافعا إلى الله صلاة شكر. حقا إن لهذا البيت رباً يحميه. وصلينا معه. ثم خاطبنا وكان مبلبل الخاطر: "يا إخواني. في هذا الزمن لم يعد أحد يصدق المعجزات. لو نشرنا بيانا صحفيا على العالم بأنكم لم تعثروا على أثر لابن آدم في العتبات المقدسة غير هؤلاء السبعة عشر .. لما صدقونا. الإيمان بمعجزات الله هجر القلوب والأسفاه. وأخذت التكنولوجيا مكانه."

تقدم أبو يوسف فبسمل وحمد الله وأثنى عليه وعلى الخليفة. وبعد الصلاة والسلام على النبي القرشي، قال: "يا مولاي خير ما نفعله أن نعلن الحقيقة على العالم :هؤلاء العلمانيون أعلنوا توبتهم وسامحهم الخليفة، وهؤلاء السبعة عشر أبوا واستكبروا!"

ذلكم هو الخليفة .

في الأسبوع التالي توافد عليه أقرباء العلمانيين المغفور لهم فرحب بالضيوف وأنزلهم، وأخبرهم أن علماء الدين وعلماء النفس معا أحاطوه علما بأن " إخواني وأبنائي مسّتهم الشياطين ولا بد لهم من فترة علاج ونقاهة طويلة بإذن الله. "

رفض عبد الملك أن يخبرني عن دور الخبراء الأجانب في معجزة الأقبية. سألته ففهمت من سيمائه وكبريائه أنه يريدني أن أخرس. أيقنت أن أمرا فظيعا قد حدث، وأهانني أن الخليفة أخفاه عني.

بقي دماغي معطلاً قرابة أسبوع. غير أن الأسئلة كانت تفلت بين حين وحين من بين دروزه العظمية : هل قضي عليهم بالكيماويات؟ بالغاز؟ بإطلاق الكلاب البوليسية عليهم؟ أم بإطلاق النار على أماكن غير مميتة من أجسادهم؟

كنت نائما عندما جاءني جواب غريب . سمعت نباح كلاب، وسمعت هريرها. ثم تراءى لي أن عيسى وعربي وصحبهما قد أصابتهم تلك التحولات، وانتفضت من نومي. زالت الصور وبقيت الأصوات. إنها أصوات حقيقية، بل ويمكنني تحديد مصدرها. نهضت خفيفا وتتبعت وجهتها. مشيت باتجاه تصاعدها. لم تكن قوية، أو حتى مسموعة لغيري. طرت فوق الأبنية والأتينات، والأصوات رغم بهمتها ترن بنبرة إنسانية شجية بل وفاجعة. أصوات أناس يموتون ويشهقون قبل الموت.

تهاويت نحو العتبات. كانت خاوية تماما. مغلقة الأبواب. فيها صمت مرير، وأيضا أنين يسمع ولا يسمع. ندمت لأني أعطيت شهرزاد طاقية الإخفاء. الآن وقد اكتملت إنسانيتي، رأيتني أحسب حسابا للأذى. غير أني تقدمت بحزم ودخلت أحد الأقبية .

العتم والوحشة وصمت رازح كالجلمود. وتلك الأصوات غير المسموعة ترفع قدمي عن الأرض. كلما وقفت ارتفعت قدماي بي. عبثا حاولت أن أهدأ لأتفحص المكان. ورحت أرتفع للأعلى رغما عني. كان استقرار قدمي على الأرضية خرق لناموس المكان أو دوس على كرامة .

تكرر الوضع الغريب في ما لا يقل عن عشرة أقبية. قدماي تعجزان عن الحلول على الأرضية، وأذناي تسمعان تلك الهمهمة. جثوت على الأرض ما استطعت والصقت أذني بها إلا قليلا. وعندها سمعت الأنين هذه المرة. كانوا تحت البلاط السميك الذي وقفت فوقه .

طرت مذعورا خارج القبو. دخلت قبوا آخر. ذلك الأنين لا ريب فيه ذعر للسامعين. وآخر وآخر. وتلك هي أصوات من لم يمت بعد .

لطمني ضوء غريب وحلّ بي. تلبسني كالأمراس. صرت أخف وزنا بكثير. وجعل الضوء يلطمني على وجهي ومنكبي وصدري مثل " كبل " كهربائية. كل كتلة أحسستها قطعة من لحمي. ثم رأيتني ألتحم بالضوء وأنصهر وأنتشر في مجرات وأفلاك وأعلو نحو حضيض بعيد .

بقيت عليلا حتى ضحى الجمعة التالية. وفي الساعة العاشرة ضاءت الهلالات الخضراء في أرجاء فيلّتي. تحممت ولبست الجلد المسحور ثم ملابسي. في العادة لا يحضر دهريار تنفيذ الإعدام في المجرمين. لكنه هذه المرة أعلن عن أدائه الصلاة وحضوره .

لم أفاجأ أن أبا يوسف ألهب وجدان المصلين مرة أخرى بسؤال قديم: لماذا شاء الله أن يجعل في الأرض خليفة؟ وشرح لهم التكريم العميق في أن يخلف الإنسان الله في أرضه. ثم باغتهم بسؤال رهيب: كيف يمكن للخليفة أن يحقق كلمة الله في أرضه إذا كان أمثال عبد الله بن الزبير ينهضون ضده كل حين وحين؟

قلت للخليفة: "أنت مشتاق لرؤية الرؤوس البشرية تقطع بضربة سيف. تشتهي رؤيتها وهي تهوي على الأرض. وخاصة رأس عبد الله بن الزبير". فتهلل وجهه فرحا بذكائي وفهمي: "تماما مثلما في وجداني". قلت: "ولو لم تكن لديك أشهى الأطعمة، لشربت دمه وأكلت لحمه". فتهلل وجهه ثانية لدقة العبارة.

وقال أبو يوسف إنه لن يتكلم اليوم في المجردات والشموليات بل سيتكلم في مسألة ملموسة تشرئب في وجدان كل مسلم. مسألة ما كان

لها أن تثار ولا ان تستمر ولا أن تتضاعف لو لا تيار العلمانيين الملاحدة الجاحدين الداحضين الحاقدين. فهؤلاء يخرجون على الكتاب المنزل الموصي بأن ﴿أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم﴾.

قال الخليفة: "أبلغني شهريار أنك تتعرض لكوابيس فظيعة أثناء نومك. قال إنه شامت بك. وأنا أرى أنك نحلت نحولا شديدا."

قلت: "إلى هذه الدرجة أنا خاضع لمراقبة تكنولوجياك يا عبد الملك!"

فرفع سبابته وهزها بالنفي: "شهريار هو الذي يعابثك. حقنا أن نحن إلى أفقراد وتطير إليها."

ثم جاءت اللحظة التي أنبتت من لحمي حرابا وأطلقتها في بدني. لحظة قطع الرؤوس. من المسجد خرجنا إلى ساحة القصاص الملاصقة له. رأيت الساحة فارتعدت. ملت نحو دهريار وهمست: "لو تعفو عنهم يا عبد الملك يطيب ذكرك في وسائل الإعلام وفي القلوب". هز رأسه بصبر حليم: "بئس النصيحة. لماذا إذن قتلت أولادهم؟ هكذا أضمن غيابهم قرنين أو ثلاثة قرون."

كانوا قطعا من الودع رمتها بصّارة في الجو وتركتها. وعندما هدأت كل قطعة على حبيبات رملها لم تر البصارة غير مصير واحد: القتل. سبعة عشر رجلا ركعوا ليس للصلاة وإنما للموت. وفي الوسط عبد الله بن الزبير. أقدامهم الغائصة في الرمل مربوطة من الخلف بخصورهم وأحواضهم. لقد استحال عليهم النهوض. وبالحبل نفسه ربطت معاصمهم وراء ظهورهم. أما العيون فغطيت بعصابة انسدلت على الوجه كله.

في حضرة الموت لا تمييز بين البشر.

هل علم الثائرون كيف سيموتون؟

أغلب الظن أنهم علموا. هذا الإرث العظيم معروف في هذه الصحراء العظيمة. لكن سعة المسافات بينهم كانت كافية لأن لا ينتبه أحد إلى مصرع أحد. وحقا فقد أرديت الرؤوس السبعة الأولى بإتقان معجز. نحسة ودبعة في الظهر ينتفض على إثرها من جاء أجله. ينتفض.

يداه وراء ظهره. يعلو عنقه قليلاً عن كتفيه. قليلاً ولكن بما يكفي وصول السيف بيسر إلى عنقه المشرئب. والسياف بخفه الأعرابي العريق يسري كنسمة رخية. تطوح يداه بالسيف من اليمين إلى اليسار. سبع تطويحات سبعة رؤوس.

لا صوت؟ بلى. نبأة صغيرة هي آخر ما يتبسه حلق سيصير بعد ثانيتين حلقين. وإذا كانت تطويحة السيف بالقوة والإتقان الكافيين أعقب البهقةَ الصغيرةَ صوتُ ارتطام يسير. صوت مخنوق لجمجمة تنغرز في الرمل. تلك هي ميزة الرمل. إنه يخنق صوت انغراز الرؤوس المقطوعة فيه: تنغرز من ناحية العنق المقطوع؟ من حيث الوجه والعينان؟ من حيث الصدغ أو القحف أو اليافوخ؟ الله وحده يعلم. ليس للبشر أن يعرفوا أين ستنغرز الجمجمة في الرمل. المهم أن العمود الفقري يكف عن أن يكون صلة الوصل بين الدماغ والبدن.

وسرعان ما تحتفل العيون انبثاقة نوافير الدم من الجسد الرابض على الرمل. لا شك أن هؤلاء الثائرين كانوا أناسا يحبون الحياة. لقد اندفعت الدماء خارج مطوح أعناقهم بقوة صفعت وجهي وعيني. وفي علاء من الجو انكفأت. بعضها تشرشر على الثوب الأبيض للجسد الرابض وبعضها تشرشر على الرمال. قبل أن تشيح بوجهك سوف تراقب النوافير حتما وهلة من الزمن. وبإمعان. وتنسى الجسد الذي يطلقها. ولسوف تراقبها باستغراق وهي تتهابط رويدا رويدا. تتضاءل وتتكمش. ولسوف تحس أن هذا الانحسار والتلاشي إنما هما تجسد بصري لخروج الروح. حتى إذا انقطعت النافورة عدت تتذكر الجسد الذي أطلقها. وربما خطر لك أن تندفع بحركة غريزية نحو العنق المقطوع لتناشده ألا يكف عن ضخ الدماء وإلا فتلك هي النهاية. وستجد أن الدم ما يزال يسيل من العروق. ما يزال يقطر. وربما شاهدت عرقا نضب وبقي فاغرا. أو عرقا أرسل قطرته الأخيرة ثم خار عزمه فلم يدفعها إلى الخارج فتوقفت في فم الفوهة فإما هوت من حيث جاءت وإما تخثرت هناك.

لها أن تثار ولا ان تستمر ولا أن تتضاعف لو لا تيار العلمانيين الملاحدة الجاحدين الداحضين الحاقدين . فهؤلاء يخرجون على الكتاب المنزل الموصي بأن ﴿أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم﴾ .

قال الخليفة: "أبلغني شهريار أنك تتعرض لكوابيس فظيعة أثناء نومك. قال إنه شامت بك. وأنا أرى أنك نحلت نحولا شديدا ."

قلت: "إلى هذه الدرجة أنا خاضع لمراقبة تكنولوجياك يا عبد الملك !"

فرفع سبابته وهزها بالنفي: "شهريار هو الذي يعاينك. خفنا أن تحن إلى أفقزاد وتطير إليها. "

ثم جاءت اللحظة التي أنبتت من لحمي حرابا وأطلقتها في بدني. لحظة قطع الرؤوس. من المسجد خرجنا إلى ساحة القصاص الملاصقة له. رأيت الساحة فارتعدت. ملت نحو دهريار وهمست: "لو تعفو عنهم يا عبد الملك يطيب ذكرك في وسائل الإعلام وفي القلوب". هز رأسه بصبر حليم: "بئس النصيحة. لماذا إذن قتلت أولادهم؟ هكذا أضمن غيابهم قرنين أو ثلاثة قرون. "

كانوا قطعا من الودع رمتها بصّارة في الجو وتركتها. وعندما هدأت كل قطعة على حبيبات رملها لم تر البصارة غير مصير واحد: القتل. سبعة عشر رجلا ركعوا ليس للصلاة وإنما للموت. وفي الوسط عبد الله بن الزبير. أقدامهم الغائصة في الرمل مربوطة من الخلف بخصورهم وأحواضهم. لقد استحال عليهم النهوض. وبالحبل نفسه ربطت معاصمهم وراء ظهورهم. أما العيون فغطيت بعصابة انسدلت على الوجه كله.

في حضرة الموت لا تمييز بين البشر.

هل علم الثائرون كيف سيموتون؟

أغلب الظن أنهم علموا. هذا الإرث العظيم معروف في هذه الصحراء العظيمة. لكن سعة المسافات بينهم كانت كافية لأن لا ينتبه أحد إلى مصرع أحد. وحقا فقد أرديت الرؤوس السبعة الأولى بإتقان معجز. نخسة ودبعة في الظهر ينتفض على إثرها من جاء أجله . ينتفض.

يداه وراء ظهره. يعلو عنقه قليلاً عن كتفيه. قليلاً ولكن بما يكفي وصول السيف بيسر إلى عنقه المشرئب. والسياف بخفة الأعرابي العريق يسري كنسمة رخية. تطوح يداه بالسيف من اليمين إلى اليسار . سبع تطويحات سبعة رؤوس.

لا صوت؟ بلى. نبأة صغيرة هي آخر ما ينبسه حلق سيصير بعد ثانيتين حلقين . وإذا كانت تطويحة السيف بالقوة والإتقان الكافيين أعقب البهقةَ الصغيرةَ صوتُ ارتطام يسير. صوت مخنوق لجمجمة تنغرز في الرمل . تلك هي ميزة الرمل. إنه يخنق صوت انغراز الرؤوس المقطوعة فيه : تنغرز من ناحية العنق المقطوع؟ من حيث الوجه والعينان؟ من حيث الصدغ أو القحف أو اليافوخ؟ الله وحده يعلم. ليس للبشر أن يعرفوا أين ستنغرز الجمجمة في الرمل. المهم أن العمود الفقري يكف عن أن يكون صلة الوصل بين الدماغ والبدن .

وسرعان ما تحتفل العيون انبثاقة نوافير الدم من الجسد الرابض على الرمل. لا شك أن هؤلاء الثائرين كانوا أناسا يحبون الحياة . لقد اندفعت الدماء خارج مطوح أعناقهم بقوة صفعت وجهي وعيني. وفي علاء من الجو انكفأت. بعضها تشرشر على الثوب الأبيض للجسد الرابض وبعضها تشرشر على الرمال. قبل أن تشيح بوجهك سوف تراقب النوافير حتما وهلة من الزمن. وبإمعان. وتنسى الجسد الذي يطلقها. ولسوف تراقبها باستغراق وهي تتهابط رويدا رويدا. تتضاءل وتتكمش. ولسوف تحس أن هذا الانحسار والتلاشي إنما هما تجسد بصري لخروج الروح. حتى إذا انقطعت النافورة عدت تتذكر الجسد الذي أطلقها. وربما خطر لك أن تندفع بحركة غريزية نحو العنق المقطوع لتناشده ألا يكف عن ضخ الدماء وإلا فتلك هي النهاية. وستجد أن الدم ما يزال يسيل من العروق. ما يزال يقطر. وربما شاهدت عرقا نضب وبقي فاغرا. أو عرقا أرسل قطرته الأخيرة ثم خار عزمه فلم يدفعها إلى الخارج فتوقفت في فم الفوهة فإما هوت من حيث جاءت وإما تخثرت هناك .

هممت أسأل الأبدان الراكعة كيف هو الموت. وكيف هي الآن. هل فارقتها ذكرياتها ومشاعرها وأحاسيسها وحقدها على الخليفة. هل جاءها أنها تموت الآن دون أن تتحقق لها الأماني التي راوغتها.

لكن جسدي انهار دفعة واحدة. أخذ يختنق في تيارات وأمواج تنتفض من معدتي وتعلو. ويغرق في أحماض وأبخرة وفقاعات. وآخر ما أحسست به أن بؤبؤي التصقا أحدهما بالآخر.

أمضيت شهورا في منتجع بحري اختاره الخليفة لي. لم يبق أحد من رجال الدولة إلا وزارني. والأدباء والصحفيون والفنانون .. كانوا مجمعين وبإعجاب بالغ على أنني استرديت من إنسانيتي أكثر مما ينبغي. هتفت مرارا لشهرزاد التي لم تزرني ولم تكن في قصرها قط. أخيرا أدركت أنها ترفض مكالمتي. ولما ألححتُ أرسلتْ لي بالفاكس جملتين: أنت ما زلت كما خلقك بديع الزمان / لا فرق بينك وبين شهريار.

ثم جاء الخليفة لزيارتي. كان هاشّاً باشّاً. ابتدر زيارته بمداعبة رقيقة: "ما هذه الإنسانية التي استرددتها يا أخطل؟ صار يغمى عليك من منظر الدم! تباً لك."

عندئذ عادت إلى أمواج الإقياء والأبخرة. وجعلني قرف مفاجيء أتمدد على أريكة في حديقة المنتجع.

رمقني باستغراب عابث: "رجعت إلى هذا الزبل الأخلاقي يا أخطل؟ أنت عليك أن تخلص من هذه الازدواجية يا عزيزي. نحن اتفقنا أن الحرية فوق كل شيء. أترك أبناءهم ليقوموا ذات يوم ضدي؟ !"

قلت: "سيظلون يقومون ضدك. هؤلاء لعنة."

فرد بوداعة: "أعرف. أن تكون خليفة يعني أن تقتل. ولكن كلما قاموا سأقتلهم. أنت مازلت شديد الانفعال. مهما يكن .. ما دام كتاب النفط معي فلن يدينني أحد. أنا أشتري حتى الرئيس فكس بدولاراتي. أنا سيد العالم."

قلت: "أرى أن ما قالته أفقزاد صحيح."

ففرك وجهه ومنخريه بكمشة أزهار وسأل: "وماذا قالت أفقزاد؟"

"أنك بفسادك في الأرض وسفكك للدماء تؤكد أن الملائكة كانوا على حق عندما استغربوا أن يجعل الله في الأرض خليفة."

كان عزم منيع قد شبّ فيّ أثناء حديثي فأقامني عن أريكتي. فوجئت بشهريار يهرع إلي ويحضنني ثم يقبض على زندي بشدة: "تماما مثلما في وجداني. لهذا اصطفتك نفسي. وأنا أزيد فأقول .." وتركني إلى الأزهار يقطفها ويفركها براحتيه .. "لهذا قرر الله أن الأرض هي المكان الوحيد الذي ستقوم فيه قيامة. نحن البشر مثل وسخة على صفاء خلقه وعلى جمال كونه وكماله. يجب الخلاص منا. وهذا هو معنى قوله إنني أعلم ما لا تعلمون."

نظرت إليه وأنا في غاية الاندهاش. قلت: "إذن لماذا لا تحقق رغبة الله وتكون خليفة يسعى إلى الكمال؟"

مثل من يستمهل نفسه ريثما يرتب أفكاره .. رمى الأزهار من راحتيه وداسها على الأرض جيدا. ثم رد باقتضاب مهموم: "الملائكة على حق. سنظل نفسد في الأرض ونسفك الدماء. خلقنا ناقصين وسنبقى ناقصين. أما آن لك أن تدرك هذه المأساة يا أخطل؟ أعظم مأساة في الكون هي أن تعيش ناقصاً. وأعظم لذة أن تتمرغ في ما نهاك عنه الله. بلوغ الكمال يعني بلوغ الموت يا أخطل. أما آن لك أن تفهم؟"

قلت: "نحن اتفقنا أن نسكن في القرن العشرين ونحلم بغزو الفضاء. لكني أراك تعاقب بهمجية ما قبل التاريخ. قطع الأيدي وقطع الأعناق وقطع الأرزاق! قطع قطع قطع!"

غمغم الخليفة مخيبا: "إما أنك أسرفت في معاقرة الخمرة أو استمعت إلى قصة من شهرزاد. ما قرنك العشرون هذا؟ بعد قليل تطالبني بالديمقراطية. أنت نسيت أنني الحاكم بأمر الله؟"

قلت: "كان الرهان بيني وبين أفقزاد أن كتاب النفط سيجعل العرب و المسلمين ملوك التكنولوجيا. وأنا سآتيها على متن سفينة فضائية تنشر الإسلام في الكون. اعط للناس هذا الحلم. خلّهم يحلموا أننا نغزو الفضاء بسلطان من الله."

كان قد أغمض عينيه وهز رأسه هزة يأس. ثم فتحهما وحدق إلي ببطء مفترس: "إذا رددت مثل هذا الكلام مرة ثانية فسأجعل شهريار يرتب قطع عنقك. أنت تتكلم مثل العلمانيين". كان غسق أحمر يلمع فيهما وخيال شيطاني.

قلت: "ستضيعون كتاب النفط مثلما ضيعتم كتاب الله. بدل أن تخلق شعبا من العلماء وتجعل الإسلام دين العلم لا دين الخرافة وقطع الأعناق. أنت وشعبك صرتم عبيدا للميجر فكس! لو هاجم قصورك وحريمك خمسمئة جندي فلن يمكنك الدفاع عنها لولا الميجر فكس."

كانت عيناه تنطقان بأكثر مما قاله فمه: "سأجعل شهريار يرتب قطع عنقك. بعد أن استرديت إنسانيتك يجب أن تعرف أني أستطيع أن أمحقها. ألم أقل لك أني رضت نفسي على ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديدا؟"

بقفا كفه الذي كالمخباط لطمني على حنكي. هذه المرة رأيتني مجندلا أمام قدميه. قدماه اللتان تقدمتا نحوي. حاولت أنهض فركلتني اليسرى في حنكي. سقطت على ظهري دائخا من الألم. وفي ثوان استقرت قدمه اليمنى على رقبتي.

كان شهريار ومطوعوه قد التفوا حولي. رمقني الخليفة بنظرة عجفاء. نظرت إليه بإصرار. ولأول مرة أرى على وجهه وعنقه أخاديد دقيقة لم تكن لترى لولا انعكاسات الضوء والظل. لونها رصاصي ومادتها كذلك. كأنها ليست من نوع العروق واللحم اللذين استرديتهما.

ذلكم هو الخليفة.

ربطوا كاحلي بعجزي وخاصرتي وربطوا يدي وراء ظهري في ساحة القصاص الرملية تلك. رغم العصابة التي وضعوها على عيني أوشكت أراه واقفا خلفي. كنت واثقا من أنه محبط ومذهول بسببي. لقد ابتلعت دم أسناني التي خلخلها حذاؤه دون أن أصرخ. إنه يتوقع مني الآن التوسل وطلب المغفرة.

ركعت أنتظر النخسة في ظهري. كنت فقط متحيرا في كيف سيحميني جلد أفقزاد المسحور من حد السيف. مثل هذه الأحابيل تعرفها فقط حكايات شهرزاد وسيف بن ذي يزن. أما في القرن العشرين..!

اقترب مسعود السياف مني هامسا: "قل له كلمة ليغفر لك". قلت: "أنتظر من دهريار أن يفك وثاقي بيديه."

الصدق أقول أنني انشحنت بالرهبة وفاضت دقات قلبي. وفجأة تلك النخسة. وانتصابيّ. ارتفاع عنقي. ثم السيف يضرب جانب عنقي الأيسر. ثم شهقة السياف المروّعة.

أحسست بدائرة من النار تلتهب في عنقي. وبرضة عاتية تخلخل ركوعي على الرمل. وبانتهاء الرضة فجأة مثلما بدأت. وبرأسي يثب عن عنقي سنتمترا أو أكثر قليلا ثم يهوي على الرمل. سقطت العصابة عن عيني. ومن رأسي الهاوي رأيت الدم ينبجس من عنقي المقطوع وينفر في الجو. ولمحت دهريار.

بعد ثوان من الموت .. من الغياب .. أحسست برأسي فوق جسدي من جديد. اشتبكت عيناي بعين دهريار. وسمعت صوته يصرخ: "ضربة ثانية يا مسعودا!" وصوت أبي يوسف: "مولاي هذا حرام!" وصوت دهريار: "ضربة ثانية يا مسعودا!" ثم صوت أبي يوسف: "مولاي! أحياه الله بعد موته: قتله حرام!"

رأيت ذراعي السياف يعلوان فوق كتفه الأيمن وصدره يتعبأ بالهواء فوق ساقيه المنفرجتين. ثم انهالت علي ضربة السيف الثانية.

في لحظة بارقة سبقت تدحرج رأسي من جديد اشتبكت عيناي بعين دهريار. كانت تسأل: " والآن يا فتحائيل!" رأيت نابيه البارزين وعينه الشريرة وشهيته المفتوحة للدم. وسمعته يقول لأبي يوسف: "أليس هو الذي مدحني وأنا المعز لدين الله في القاهرة فقال: ما شئت لا ما شاءت الأقدار / فاحكم فأنت الواحد القهار؟ "

لم يعبأ أحد بوضع العصابة على عيني. وفي المرة الثالثة كان دهريار نفسه من سافني. وفي المرة الثالثة عاد رأسي إلى عنقي والتحم به.

كان ذلك أصعب من أن يتحمله عقل دهريار رغم تمرسه بسفك الدماء. كل شيء يمكن تفسيره بقوانين فيزيائية. أ ـ ما انفصام الرأس عن الجسد وعودته إليه.. وقوع الموت ثم بعده بثوان وقوع الحياة.. كيف لعاقل أن يصدق هذا؟ وثلاث مرات! وغمغم الخليفة: "ابن الزبير يظهر ثانية كل دهر.. أما هذا فكل ثانية!"

انقطع التواصل بين دماغه وبين جسده وبين العالم. كان واضحا له وضوح الحجر أن الله سبحانه وتعالى لا يريد لرأسي أن تقطع أو لدمي أن يسفك. وهكذا هوى دهريار العظيم على الرمال التي تشرشرت بنوافير دمي. وهوى معه شهربار وأبو يوسف والمطوعون.

تقدم مسعود السياف مني وهو يرتعد ـ لا ارتعادا من اللامعقول الذي حدث بل ارتعابا من قدرة الله تعالى. وفيما هو يتمتم: "يا رب! سامحني أنا عبد مأمور. ضربت عنق هذا الولي! الله لا إله ألا هو الحي القيوم .." حز بحد السيف أغلالي وحرر بدني. ثم توسل: " أبوس رجليك يا مبارك تشفع لي عنده سبحانه!"وعندئذ أغمي عليه.

رأيتني دائخا ومتطوحا ليس فقط بسبب ما نفر مني من دماء وإنما بسبب هول هذه المعجزة. كان الله معي! وذلك بالتأكيد ما حماني من الإغماء إلى جانب دهريار وشهريار. علوت عن الأرض قليلا ثم طرت.

لا ريب أبدا أن فرح البقاء على قيد الحياة هو أعظم أفراح الإنسان. وقد أطلقني في الفضاء. وهناك نثرت حولي نيازك وشهبا وتموجت بين

رغبات ودوافع. رأيتني في حالتي يوم استرديت إنسانيتي وعانقت شهرزاد. هجمت على قصري وقصدت المطبخ. أكلت وأكلت حتى انتفخ إبطاي. الأكل ! لذة الإنسان الوحيدة الخالية من الألم.

هجمت على مخادعي. ضاجعت كل نسائي وشربت معهن كل خموري. كل محظياتي وقياني وجواري وما ملكت يميني. نيفا وثلاثين امرأة شهية. أسبوعا كاملا.. وأنا آكل وأشرب وأضاجع وأنام وآكل ... تهدلت كل خلية من جسدي. تخمرت باللذة وتعجنت.

لكن دوافعي ورغباتي بقيت مشرئبة كرؤوس الرماح.

طرت فوق المدينة. شيء ما في جسدي كان يجعل الزمن أضعافا مضاعفة. كنت أجوع كل ساعة بدلا من ست ساعات. وأعطش كل دقيقة .. وأشتهي .. وأتعب .. وأتغوط .. وأتنفس .. وأنام ... وكان لا بد من أن أفعل شيئا يوقف بدني عن استعباد حياتي. واستهلاكها أيضا.

طرت إلى شهرزاد. كانت تهم بلبس الطاقية التي ستخفي قوامها البديع. أمسكت بمرفقها ورجوتها أن تتريث. حكيت لها كل شيء .. من تفاصيل معجزة حياتي بعد موتي إلى تفاصيل جوعي الطاعوني. قلت: "هذه المعجزة أشعلت الهجير في روحي. أمامي صار الأفق أبلق. وصارت الأرض تركض. أرجوك. أعرف أنك تسمين هذا خيانة. خاصة وأن أفتقاد أحتك. ولكن اعملي معروفا. ينابك ثواب من الله. أنت الوحيدة في هذه الديار التي يمكن أن تطفيء حرائقي. أرجوك. أريد أن أسترد إنسانيتي. اعتبريني واحدا ممن .. تبحثين عن إنسانيتك معهم. أنا محتاج إلى إنسانية بلا حرائق ! "

ردت شهرزاد بصبر مشمئز: "أنت خال من أية مفاجأة. أنا أبحث عن العبد الأسود مسعود .. وأنت لست العبد مسعود !"

قلت: "قد أكون أنا مسعود دون أن تدري !"

ابتسمت بكبرياء: "إذا لم تكن هناك شرارة لا يحدث وصال. "

"وأنا لم أطلق فيك هذه الشرارة. "

تفرست بي مليا وتمتمت: "انا لا أعرف لماذا أحبتك أختي. لا أجد فيك أي بشير بالحب."

نبرت بعصبية وتوسل: "جربي! يمكن أن تنطلق الشرارة." وضممتها إلى صدري فجأة. مثل جبل من الثلج: لم تقاوم. غمغمت فوق عنقها: "لعل الوصال يوصلنا إلى الحب." ورحت أنفث أنفاسي وأفرك بيدي جدران لحمها وأشدها إلى صدري وحوضي.

دمدمت شهرزاد بصبر: "أنت لا تفهم؟ لا تحس؟ جسدي مكرس لغيرك فكيف أنام معك؟ وكيف تقبل أنت أن تنام معي؟" ودفعني مرفقاها إلى الخلف كي أبتعد. غير أني ازددت التصاقاً بها واحتكاكاً. ولففت ساعدي عليها فخنقت اعتراضات جسدها. ولحظة بدأ وصولي غرفت بأصابعي كشحها فصرخت تألماً ودفعتني عنها بقوة خارقة.

كنت سأقبل بأية تضحية مقابل البقاء ملتصقا بشهرزاد فلا أبلغ ذروتي وحيدا مثل حبة رمل. لكن شهرزاد أفلتت. وتكورت أنا على جسدي ودفنت وجهي في راحتي ومرفقي في بطني ورحت أنعب وأنوح.

وصاحت هي مبهورة الأنفاس: "أهذه إنسانيتك؟ طظ في هكذا إنسانية!"

كنت أعاني رسوّاً وخماداً في تلك اللحظة فأمأمت بحزن كسير: "أنت نسيت أني بطل قصص من قبل أن تبدأي أنت حكاياتك؟"

"لكن أنت بطل قصص الكدية. أنا أبطالي كلهم أحرار. شف رقبتك كيف صارت الآن."

"رقبتي! رقبتي صاغ سليم! ما بها؟"

"شف دوائر القصدير التي نشأت مكان ضربة السيف. ما يصل رأسك بجسدك الآن ليس اللحم. أسلاك قصدير مضفورة هي ما يصل رأسك بجسدك. وبينها أخاديد نحيلة. سيتراكم فيها هباب أسود. وسيصير الهباب سائلا أسود وينزّ من رقبتك."

رددت بسخرية: "وماذا أيضا يا زرقاء اليمامة؟"

قالت: "ذات يوم .. سيصير جسدك كله أسلاك قصدير وصديداً ينز منه. وعندها يقع موتك."

خلال صمت قصير نذير تبادلت وشهرزاد نظرة مديدة فاحصة. بلا إرادة مددت أصابعي نحو عنقي. لمست فعلا ثلاث دوائر معدنية ناتئة بينها أخدودان. نظرت إلى رؤوس أصابعي لأتعرف على السائل اللزج الذي دبّق عليها. شممت رائحته المقززة.

رغم ذلك صحت: "خذيني إلى إحدى مراياك. أريد أن أرى في إحدى مراياك."

فتمتمت هي بهدوء أمير: "عيناي تريانك وهذا يكفي."

نهنهت بسخرية وازدراء: "أنت تكرهينني. تتمنين موتي. لأنني منافسك الوحيد في عالم الحكايات. لأني أكثر حرية منك.. أكثر حرية بما لايقاس. مقاماتي مسموح للناس بقراءتها بينما (ألف ليلة وليلة) ممنوعة."

فغمغمت هي: "سماء الفن تسع كل الطيور الصادحة. أنت أكثر مقدرة لست أكثر حرية. وأنا لا أكرهك. لكن لو شئت أن أحكي عنك حكاية لها معنى لجعلت رأسك واحداً من الرؤوس التي أينعت وحان قطافها".

٧ ـ تطوحـات محمـد عربي محمـــدين

كتفني الثامنة عندما رأيت جيوش إسرائيل ورتشرد تحاصر ثالث الحرمين الشريفين. قلت: رباه! لماذا يحبك الغزاة يا بلادي كل هذا الحب؟ قبل ثلاثة آلاف عام هاجمتها إسرائيل. وقبل ألفين هاجمتها روما. وقبل ألف عام هاجمها رتشرد. وها هي ذي إسرائيل ورتشرد تهاجمانها من جديد.

كان بوسعي أن أطير إلى خالد بن الوليد أو أبي عبيدة بن الجراح، وإلى عشرات الخالدين الساطعين في مدارات تاريخي. لكن صلاح الدين كان أقرب في الزمان، وحطين أقرب في المكان، ومعركتهما أشهر في الذاكرة.

رأيت بدلا من صلاح الدين سعلاة بقبقت في وجهي وزمجرت: "أنت يا ولد في القرن العشرين، وصلاح الدين مات في القرن الثاني عشر! ألا تخرجون أنتم العرب من ماضيكم؟"

الآن فقط أفهم كلام السعلاة الغريبة. لقد مضت أربعة أيام على تحرير نفيطية من النفط ومن خرائط المهجر فكس. وأنا الآن جالس على شرفة البرج الدوار الذي بناه بابليو النفط ليستمتعوا فيه بتناول وجباتهم.

دار بي برج بابل حتى الآن أربع دورات. الجزء الأعظم من مهمتي بات واضحا. قبل نيف وأربع ساعات وضعت أمامي خارطة للقرن العشرين وانكببت على تفحص تضاريسه وطبوغرافيته في الوطن العربي.

لم يكن على حدوده، البالغة مليون سنة ضوئية، مسافة تستمر عشرين كيلومترا دون أن تخترقها فجوة من هذا القرن أو ثغرة من ذاك: قرصنة من القرن الخامس عشر؛ غزوة من القرن الخامس؛ جناز من القرن السادس قبل الميلاد؛ قافلة قرود من القرن السادس؛ قصيدة من القرن العاشر؛ طفلة موؤدة من القرن السابع عشر؛ طمي من عصر عبد الحميد؛ مملوك من الرابع عشر؛ صليب من الثاني عشر؛ قربان لإله الموت من الألف الثاني قبل الميلاد ... لكن أكثر القرون اختراقا للخارطة، أكثرها تغلغلا في بواديها وسهوها وجبالها هو بلا شك الثالث الهجري، قرن الأئمة.

باختصار: هذا الذي نسميه القرن العشرين ونحن نتوهم أنه رقعة زمنية صافية، واضحة الحدود، واضحة المعاني، بيّنة التوجهات، ليس سوى لوحة سوريالية تعبث فيها الاختلاطات، الاختراقات، التشوشات، الفجوات .. بالأحرى، ليس سوى غابة هائلة تعيش فيها خمسون مليون سنة من كائنات تشارلز داروين - منذ أول أميبا وأول ديناصور، إلى نعومي وفيروز.

ولكن كان علي قبل كل شيء أن أنتهي من كائن كتم على أنفاسي طوال ثماني سنوات عشتها في نفيطية. كائن فكك أبنية عقلي: ذلك الجمل، أو ذانك الجملان في مكتبة الكلية.

أخرجت الجملين من المكتبة وأطلقت عليهما النار. اقتدتهما عبر المرج الأخضر إلى باب عمادة الكلية، ورحت أطلق عليهما النار حتى خرّا صريعين. كانت هناك جمهرة من طلاب المقررات الصيفية، وبعض الدكاترة. كالعادة وقفوا يتفرجون بلا تعليق. وتدفق الدم حتى غمر المرج الأخضر.

هذه المرة لن يكون بوسع أحد أن يتظاهر بأنه لا يرى جملا. فقط لو أن عيسى بن هشام حاضر.

صاح المقدم حردان منطربا: "ما هذا يا دكتور عربي؟ أنت قتلت رمزنا القومي!"

قلت باشمئناط: "بل قتلت اللامعقول."

أربعين عاما وأنا أبحث عن صلاح الدين. عدوت هنا وهناك وصرخت وناديت، حتى كلّت قدماي. رأيت مليون صلاح الدين ولم أر صلاح الدين. وفقط عندما عرفت أننا يجب أن ندك معاقل القرن الثامن، رأيته. كان قابعا في أحشائي.

هتف المقدم حردان مناكفاً: " لا تكن واثقاً إلى هذا الحد. لن يقول أحد منهم أنه شاف جملين يعدمان ."

دخلت مكتب العميد بالبارودة والبوط العسكري لكي أذلّه وأهينه؛ فنهض عن كرسي عمادته، وفي منتصف الغرفة استقبلني ضاربا كعبيه أحدهما بالآخر كتحية عسكرية. ثم عانقني ثلاثا على الطريقة الأعرابية، وأجلسني في صدر المكان.

هذا الكائن فيما مضى، كان كلما التقاني عاجلني بصبر معلن وتأفف مستتر، وعاجلني بابتسامة متقلصة وشرود متمدد. لسان حاله يقول: ماذا جئت تتسولني أيها البدون؟ إنه أصيل مادة أولى. النفط أوصل عائلته إلى رفّ عائلات هابسبرغ وتيودور وهاشم.

وهو العميد. ويزيده فخرا وأصالة أن الدكتور الركتور اختاره عميدا قبل بدء انتخابات العمادة. لقد تشكلت لجنة اختيار العميد بحسب الأصول الديمقراطية. وخلال شهرين مارست جميع مستلزمات الديمقراطية. استمزجت واستخرجت آراء مئتي دكتور، واشتغلت مئة وثماني ساعات لتتأكد من إجماع الأساتذة على عميد يخلف الدكتور حمدون. لكن مدير الجامعة كان قد أخبره أنه اختاره عميدا. وجاء تقرير اللجنة مؤيدا للاختيار .

كيف يمكن أن أرسم خارطة البشر في هذه البلاد؟

على القمة يوجد "الأصيل"، تسمية تطلق على عشر عائلات أخطبوطية هي التي تملك البلاد ومعها ألف مليار بترودولار تزداد كل عام.

كل المواطنين الآخرين "سكان" و"بالتجنيس". الدولة ملك للذين "بالتأسيس": الخلافة، البرلمان، حق الانتخاب، الوزارة، الإدارة، المؤسسات. الذين "بالتجنيس" مجرد موظفين من تحت. وطبعا يستحيل الزواج بين الطبقتين. ثم هناك البدون والوافدون .

هذه الأجناس الأربعة تنقسم أيضا بين عرق وعرق: شرقي، شمالي، غربي، جنوبي. هناك بالطبع السنة والشيعة: لا تزاوج، لا تساكن، لا تعايش .. علاقات تجارية وحسب. السنّة مقسومة بحسب الجهات الأربع، وكذلك الشيعة. وكل جهة سنشعية مسنشعة مسنوشعة: لا تزاوج، لا تساكن، لا تعايش. هؤلاء ليسوا مجتمعا بأي معنى، ليسوا دولة؛ إنهم شركة، وكل عضو فيها يريد أن يفوز بأقصى المرابح – كما قال أحد أمرائهم.

هناك أيضا هذه التصانيف الدستورية: أصيل مادة أولى، عرب مادة ثانية، عشائر مادة سابعة، أصيل مادة خامسة، بدون مادة سابعة عشرة، داخل السور، برّات السور، الشرق، القبلة، مغْفل، صامدون، مرابطون، أهل البادية، حضري، عسكري بدون، عوازم، عنوز، إخوان، جناعات، مطران، خوالد، رشايدة، شمامرة، حساوية، بستكية، قوميون، سلفيون، منحاش، هارب، عجمان، عشائر، فخوذ ...

وهؤلاء: لا تزاوج، لا ... عشرون قومية هي هذه البلاد التي بحجم خرم الإبرة. عشرون ولاء، وعشرون جبهة حرب، عشرون بغضا، وعشرون تحالفا، وعشرون خيانة، وعشرون خنجرا، وعشرون فنجان قهوة مسموما، وعشرون غدرا. عشرون لغة، وعشرون دينا، وعشرون نظاما أخلاقيا .. عشرون حقلا للنفط .

للتاريخ مناخ. شممته، ورأيت أنه يعتدل الآن. زرع الميجر فكس في ثالث الحرمين الشريفين مليون شوكة صهيونية. خلال أربعين عاما، بدد سكان الحواضر عمرهم وعقلهم ومواردهم وهم يحاولون اقتلاع الشوك من خصورهم. دفع البدو شيكات لحرب الحضر، وحمدوا الله والرئيس

فكس على قيام إسرائيل. القبائل التي وحدها محمد في خير أمة أخرجت للناس، صارت دولا، تتصارع فيما بينها وتحتمي الواحدة من الأخرى بإسرائيل وبالرئيس فكس.

لأجل أن تصير كثبان من الرمال دولا وعائلات مالكة، ضاع وطني. من كان يعلم أن تثبيت الخلفاء سيكلفنا ثالث الحرمين الشريفين؟

التقاني الخضر صباح يوم التحرير وناولني لفافة ورقية، "لأنك مثلي جوّال أزمنة وجوّاب آفاق". فتحتها وإذا هي حفنة من رماد. وقال لي: "سنقضي على التنين، وهذا الرماد هو رماد العنقاء الذي يبعث حيا. وقد جاء الآن زمن البعث. سيرد الأمة العربية كلها إلى الحياة. أما النفط فسنجعله خلّنا الوفي. "

قلت للعميد بصيغة المفرد: "بما أنك الآن تقوم بأعمال المدير، لأنه يقضي الصيف في وطنه الثاني، انكلترة، فرأيي أن تتأكد من استمرار البرامج الصيفية بكل دقة. وخاصة استمرار التدريس. "

فابتسم معاتبا: "ولو يا دكتور عربي! أنا بنفسي متابع الموضوع. في الجامعة كلها، لا في الآداب وحدها."

قلت: "نريد أن نؤكد أن الأمور طبيعية. وأنت تعرف: البلد كلها لم تقاوم ؛ فلا داعي للخزعبلات في الكلية."

قال وهو ما يزال يبتسم: "التعليم سيستمر تحت أي ظرف."

فجأة فضا من داخلي احتقان كان يدفعني للتضييق على العميد وإهانته. ليس هذا ما لأجله دكّت جيوش صلاح الدين قصور النفط. أحسست بالخواء والتفاهة. قلت له:" أنا آسف. "وبدا لي أنه تشجع، فقبض على قلمه بسبابته وإبهامه، وقال: "بصراحة، نحن بطرنا. ولازم ندفع الثمن."

هبّ بي ذلك الهبوب، وعصفت بي تلك العاصفة، ودمدمت: "أنتم القرية التي أراد الله هلاكها فأمر مترفيها ففسدوا فيها فدمّرها تدميرا."

أين أنت الآن يا إلهام البكري؟ لا شك أنك تسمعين الأخبار. ولكن قد لا يخطر لك أن الخنزير الذي عافت نفسك قُباعه ورائحته، يصحح خارطة إنسانيته مرة وإلى الأبد. أنت هاجعة ولا بد في أحضان حبيبك الاسكتلندي، غافلة عن تاريخ يجري تصحيحه بالدبابة. طبعا، كل شي انقضى وفات أوانه. وأنا لم أعد بالنسبة لك غير ذكرى رمادية. نصف قرن من الشتات والمنافي، يكفي لمحو أبجدية الروح. هذه الصبوات النابضة والخلجات الطالعة من عمق الجسد، ارتمت على صدر الفارس الأشقر. قطعت علاقاتها مع التين والزيتون وطور سينين، وحطّت على أفق الضباب والثلج.

لا يبقى أحد على فطرته الأولى يا عزيزتي. ويجب أن تعترفي لي بأني، ونحن نكابد حياتنا معا، لم أكن يوما أقل من مواطن للقرن العشرين. رفضت أن أمتلكك باسم أي إمام من أئمة التابوات والتوابيت. قلت: إما أن تحبيني باختيارك، وتقبلي بانقضاضات الحيوانات الدنيا على عضويتي، أو تحبي من شئت.

مهما يكن فقد نجوت. ومعك نجا فراس وفارس. ذلك هو عزائي الحزين. أعرف أني غدوت ثلجا وضبابا في ذاكرتهما، ولكن لا بأس. إن لهما الآن وطنا: المملكة المتحدة. ولهما بيت في إدنبره: هديتي لهما، ولك أنت. أنتم الثلاثة تعيشون في نعمة النعم: القانون والمعقول؛ وليس الأئمة واللامعقول. ذلك هو عزائي الشقي. مناعتي ضد الجنون والفوضى. فقط تمنيتكم أن تشهدوا حطين الثانية، وصلاح الدين يخوضها ضد الصليبيين العرب. سنمحو خطوط الميجر فكس التي مزق بها وطني وضيّع بلادي.

قلت للعميد:" يقال إن في الهند ثلاثمئة لغة. ومع ذلك، الهند بلاد واحدة. لها حكومة واحدة. وفي كل من تركيا وإيران، أربع أمم. ومع ذلك إيران بلاد واحدة، وتركيا بلاد واحدة. أما نحن العرب فاثنان وعشرون بلادا .. وحكومة، وعملة، ودينا، ولغة، ونزاعا، ومؤامرة،

ومذلة وخيانة، ومئتا مليون ذليل ... لكي يكون لك أنت بيوت بالجملة، في أوروبا وأمريكا، وأرصدة لا تأكلها النيران ..."

ولكن كان لا بد أولاً من تصحيح الخارطة. يجب أن نطهر هذه الأرض من حدود الميجر فكس.

أعرف أن رسم خارطة سليمة واحدة يتطلب اقتلاعات كثيرة.

عند الصباح لم يبد أن شيئا غريبا قد حدث. لكن أربعين من شقق الأساتذة الخمسمئة كانت قد نهبت في الليل. الوجوه هادئة والعيون بريئة. الأصوات نصف مبحوحة في ذلك القيظ الخاثر. حتى تلك الرائحة صعدت من شاطىء المجارير. حتى المقدم حردان، الذي بدا مرعبا وهو يحقق مع العسكر والساكنين والشغيلة والخدم، سرعان ما صار رخوا وغير مكترث. تبرّم من استعصاء الحقيقة. ثم بدا وكأن الأمر كله لا يعدو كونه انفجارا صغيرا لفقاعة نفسية تافهة نبقت من سطح ساكن.

نظرت إلى المدينة من إفريز البرج البابلي الدوار، ورأيتها تغتسل من خطايا نفطها. من الآن فصاعدا سيقطنها مواطنون ليس بينهم (بدون) واحد، ولديهم كلهم جوازات سفر. سينتهي ليل الغرباء الذين ولدوا وعاشوا هنا بلا وطن.

تذكرت الخارطة. وأمرت فأقلتني سيارة إليها. وصلت ورأيت العجب. رأيت الشعرة الغولية عصفا مأكولا مثل فيلة أبرهة الأشرم. ورأيت ذريرات رماد العنقاء التي رششتها تبتسم لي بأعينها البراقة الواجدة. لملمت الرماد وركضت به عبر البطاح. رششته على كل تلك الجذور والجذوع والأغصان.

توقف الرماد عند خطوط الميجر فكس التي رسمها في الرمال. عندها علمت أنه إذا لم يتقدم جنود حطين ليحرروا الحرم الشريفة الثلاثة، فلن يمكن للهذا الوطن أن يبعث حياً. داهمتني قشعريرة البكاء.

انفجار صغير آخر لفقاعة أخرى نبقت من تحت سطح ساكن: إحدى الممرضات اغتصبت. قيل إن الجاني عسكري، وقيل إنه مدني، وقيل أعرابي. لكن الجريمة لم تكتمل. وشددت الحراسة على المشافي والمستوصفات.

قلت لنفسي: ما زال الناس يجرؤون على الاغتصاب رغم مئات آلاف الأئمة الذين يرصعون تاريخنا. مئات آلاف الفتاوى، ومئات آلاف النصوص. وعندها وقف شعر رأسي.

هؤلاء الأئمة، وليس الحجاج بن يوسف، سبب انشباحي وضياعي بين العصور والأزمنة.

هرعت إلى زاد الخضر. كل شرخ خلّفوه في رأسي بفتاواهم رششته من ثم بذرة من رماد العنقاء. نيفا ومئة ذرة رششت في تلك التجاويف الخفية المخاتلة. وبلمح البصر جاءني الإحساس الرحماني بأني لن أصير كلبا بعد اليوم. تلمست جمجمتي ورأيتها سليمة. اختفت الفوهات. لقد بعثت من جديد.

أمرت الجنود فجمعوا لي الأئمة من سائر العصور والدهور، وحشروهم في ساحة المدينة. لم أستطع أن أميز أيهم ينتمي إلى أي قرن. أول الذين أعرفهم عاش بعد قرن من وفاة النبي، والذين لا أعرفهم ينتمون إلى عصر طيبه وبابل، وربما العصر الحجري. فقط تلك الهواتف ودفتر الشيكات.

مليون جلباب. عشرة ملايين. مئة مليون. كيف اتسعت لهم ساحة التاريخ !

قلت لهم: " أين تكاثرتم، ورسول الله حظر نشوءكم؟ "

قال أبو يوسف: "في مفارخ الخلفاء يا سيادة الجنرال. "

قلت: "أنتم متهمون بأنكم ألغيتم إسلام عمر وعلي، وأحللتم محله إسلام العائلات المالكة. ومتهمون بأنكم أفتيتم فاستعبدتم الناس وقد

ولدتهم أمهاتهم أحرارا. وفصّلتم الإسلام على قدّ الحلفاء. وعطّلتم العقل وقد بني عليه الإسلام. وعطلتم الشورى وباركتم الاستبداد. "

قال أبو يوسف: "نحن أطعنا الله ورسوله وأولي الأمر منا. ولا اجتهاد في ما فيه نص."

قلت: "أنتم متهمون بتجاهلكم لأن عمر أوقف العمل بنص قرآني أوانه انقضى، واجتهد في آخر، وزاد على آخر. ومتهمون بأنكم تجاهلتم قول علي: القرآن حمال أوجه. وبأنكم تنكرتم لقول عمر: جرّدوا القرآن وأقلوا من الرواية عن رسول الله. أحكامكم التي لا تتوقف غيبت عصر النبوة من خارطتي بالكامل. كل العصور موجودة في خارطتي إلا عصر النبوة .وحضوركم سبب هذا الغياب. يجب أن نحرر الإسلام منكم."

قال أبو يوسف: " أمرك يا سيادة الجنرال. فماذا أنت فاعل بنا؟"

قلت: "سأرشكم بهذا الرماد. وستنامون أربعمئة عام. فمن أفاق منكم وفي وجدانه عمر وعلي، عاش. ومن أفاق ، في جمجمته أحكام وفتاوى وشروح، باد مثل ثمود وعاد. "

كانوا من الهشاشة بحيث أن كل ذرة من زاد الخضر نوّمت عشرة آلاف. وأمرت فسحبت أبدانهم إلى كهوف في الرمال المترامية وراء خطوط الميجر فكس.

عدت إلى الخارطة وسددت منافذهم إلى القرن العشرين.

انفجار ثالث: جمعيتنا الاستهلاكية الخاصة بالكلية، نهبت. صارت قاعا صفصفا. المقاسم، الرفوف، البرادات، الثلاجات، الكراتين ، التي احتشدت بما لا يمكن لشهرزاد أن تتخيله على مائدة هارون الرشيد، هذه كلها فضت وحل محلها فراغ كئيب. لم يخربوا شيئا في الجمعية. كأنهم كانوا يشترون احتياجاتهم ويغادرون. كل الخشب والمعدن والزجاج ظل سليما. فقط اختفى الرز واللحم والجبن والخضار والفاكهة والأدوات

والألعاب ... كان المكان المقفر حريا بوقفة على الأطلال لو أن الطعام الزائل يثير الحزن مثلما يثيره الحبيب الزائل.

رأيتني معجبا بهذا الرقي الذي صاحب عملية النهب. من كان يظن أن العبيد والخدم، هؤلاء الحبربش والبدون، يملكون إحساسا بقيمة الملكية العامة؟ ما أبعدهم عن أبناء السادة الذين يشترون ثم يحطمون مثل جراء وحيوانات برية ...

وانفجار رابع لفقاعة رابعة: اختفاء إطارات السيارات. لم أدر ماذا أفعل: هل أغضب أم أضحك. الدواليب ! السيارات التي تركها الأساتذة آمنة بين المساكن، وطاروا لقضاء الصيف في بلدانهم، طلع عليها الصباح فوجدها جاثمة على دعامات خشبية أو حجرية، وبلا دواليب .

ونوع آخر من الانفجارات: الجنسية. لطالما حيرني ابتهاج الرجال الهمجي باغتصاب النساء. أي فرح وأي معنى يجد رجل في اغتصاب امرأة؟ كيف ينام معها وهي تأبى وتمتنع؟ لكن هذه الانفجارات كانت شيئا آخر أيضا. ليس فقط أن الجنود تخففوا من أثقال قديمة مرهقة، بل وانتقموا أيضا. ممن؟ لا أعرف. لطالما رأيت أن ممارسة الجنس الصرف بقية باقية من ممارسات أكل لحم البشر. لكن الجنود - ومعهم المرضى، ثم الأطباء، ثم الزائرون (لأن الاغتصابات بدأت بالممرضات في المشافي)، وكل من انتقلت العدوى إليهم - كانوا ينتقمون من عدو مجهول، من متسلط خفي أرهق حياتهم بالممنوعات، وفجأة تلاشى سلطانه فعادت إليهم شهوتهم المذلولة المقموعة. وسرعان ما بدا أن هذه الجرائم تحصيل حاصل، وأنها كما قال المقدم حردان: "طفح لا بد منه لخروج القيح."

وانفجار تلا انفجارا. مجمع حارثة، ومجمع الصالحين، وسوق الاتحاد، ومركز سوني للإلكترونيات ... تنين ساكن، انطلقت من جوفه نفثات كهربارية وشققت خواصره. خلال أسابيع غدا بحرا هائجا مزبدا. لم يستطع بطش المقدم حردان شيئا إزاءه. هو نفسه كان يعيش نوعا من الصدمة والذهول: "هذه البلاد، حتى جدرانها تطفح دولارات!

ضع بطاقة في فرجة في جدار، تخرج لك من الجدار دولارات كأنها العفاريت! فكيف لا يسعى المحرومون إلى حصة منها؟"

متى يتوقف اللامعقول ويبدأ المعقول؟لايسو البنطلونات يفتكون بلابسي الدشاديش إن لم يكن جسديا، فشعوريا وعقليا. يعترضونهم في الشارع أو يقتحمون أبواب بيوتهم، ويفتحون عليهم نيران لغة حاقدة. كل ما يخطر على بال السفهاء من الشتائم والتحقير والتهديد، تنفتح حنفياته من أفواههم على ذوي الدشاديش. كل العبارات الجريحة عن الذل القديم والمهانة القديمة، وكل التهديدات المروعة بمعاملة بالمثل، بالانتقام والتشفي وتمريغ الوجوه. وبعدئذ قمة الفاجعة: اغتصاب النساء والرجال!

لفت جدران المدينة كأثواب من الزنك حول دواليب سيارتي وخواصر الشوارع.

ثم سمعت أن مجمع حارثة يتم نهبه في وضح النهار.

ركبت السيارة مع المقدم حردان واندفعنا في شارع جمال عبد الناصر مطلقين الزمور الشبيه بنفير إسرافيل. وأمام المجمع كانت المفاجأة البهيجة. هذا البناء الشامخ الذي نصفه لسيارات زبائنه، ونصفه شقق للإيجار، ونصفه متاجر، المنتصب وسط ساحات من المرمر الإيطالي، مرطبة بالنوافير وعاكسة لصور العابرين عليها، وبيارقه تخفق للريح والقيظ، وأشجار نخيله تهجع في دعة.. كان صامتا كأبي الهول، ساكنا كالأهرام.

تبادلت والمقدم حردان نظرة استغراب. وقال هو: "أعدك أني سأجبر بخاطر ابن الموطوءة الذي أبلغنا هذا البلاغ الكاذب."

وفي الداخل كانت المفاجأة الثانية.

إذا كنتم رأيتم أسرابا من النورس هاجعة على أديم البحر، يغيِّر أفرادها مواقعهم بين الفينة والفينة، فيمنحون سكونها الحالم حسا بالحركة الرشيقة الشائقة، فهكذا كان مجمع حارثة من الداخل.

أوَ رأيتم مرجا محتشدا بالأزهار من كل لون، وعلى كل زهرة نحلة أو نحلتان، وفرادى النحل تندّ بحركة سريعة قصيرة عن زهرة إلى أخرى، وتناهى إلى مسامعكم الطنين المتناغم والمتنافر لملايين الكلمات التي يتبادلها النحل، فهكذا كان مجمع حارثة من الداخل.

لم نسمع لغة، رغم تقاطع الدمدمات، ورغم حوالي دزينة من اللغات تطايرت من أفواه ملأت المكان. الهدوء والخفة والتأدب الجم. لم يكن أحد مستعجلا ولا متنافسا. كان هناك العربي والهندي والأوروبي، والفيليبيني والسريلانكي والأمريكي والباكستاني والماليزي والكوري، وأربعة أو خمسة من أحفاد بوذا.

سوى أن الرفوف والمتاجر والأسواق كانت شبه خاوية، وأكياس النايلون المنتفخة والحقائب المنتبجة توشك أن تسد الممرات، وتتراكم حتى لتعلو عن الرؤوس. خلال دقائق من المرور المهرول على كافة الطوابق، بات واضحا لنا أن المسألة مسألة وقت، وأن مغارة علي بابا هذه من المجوهرات والساعات والكهربائيات والتكنولوجيا والمنزليات والأحذية والملابس... ستغدو بعد وهلة صحراء من الخشب والمعدن.

كل قانون عرفته هذه البلاد، اختفى. اختفت الأمانة، وشرعية الملكية، واحترام حقوق الآخرين المادية، والخوف من الشرطة، ومن قطع الأيدي جزاء السرقة. وحلت محلها قيم أخرى، مشاعية.

قال المقدم حردان وقد انطرب لانصعاقي: "أنا يهمني أن لا تصير فوضى ولا يصير عنف. وأهم شيء، أن لا تعود حدود الميجر فكس إلى الظهور."

نظرت إليه بعينين فارغتين. ثم استدرت نحو الحرامية، الذين كانوا حتى البارحة شغيلة البلاد الشرفاء القانتين الشاكرين الخانعين. رأيتهم مثل حاك شيراك لباقة وتهذيبا. يعامل أحدهم الآخر كسيد حقيقي يعرف مكانه وحدوده وحقوقه. وقد بدا لنا نحن الاثنين أنهم انفرزوا إلى جماعات، كل واحدة تمركزت في منطقة استهلاكية، وتعاونت في الحمل

والترتيب والنقل إلى الخارج. ولم يبق لنا سوى أن نتفرج على هذا النظام العالمي الجديد المستتب، والدماثة المطلقة في اقتسام تكنولوجيا اليابان وأمريكا وأوروبا، وثريات وسجاد العالم، وجواهر علي بابا، وساعات سويسرا، وأحذية إيطاليا، وعطور فرنسا ... لم يبق شيء سوى المكتبة ! كان واضحا أن الثقافة والإيديولوجيا لم تخطرا على بالهم. ومنها تناولت بعض القواميس، ثم بعض الكتب، بصورة خاصة بعض كتب النكات بالإنكليزية. وأمرت فنقلت إلى سيارتي.

تمتم المقدم حردان بتفلسف مفاجئ: "يكون الإنسان إنسانا، فقط عندما تتأمن حاجياته."

قلت مغتنما الفرصة: " اسمع يا صديقي. هناك حوادث اغتصاب. وهذا شيء فظيع."

نظر إلي بارتباك صامت. وارتعش شارباه قليلا قبل أن يغمغم: "أكون صادقا وإياك يا دكتور، أنا أفهم هذه الدوافع، لأني بصراحة أحس بها."

هتفت جزعا: "دوافع، فهمنا. المهم أن تبقى محصورة في الداخل."

تركته يتابع الإشراف على لصوصه الشرفاء، وخرجت. تنقلت بين أعمدة الشوارع وانعكاسات صورتي على زجاج الدكاكين. تذكرت فراس وفارس: الآن صارا يستحقان اسميهما. ثماني سنوات الآن. وهم صاروا مراهقين. هل سأستعيد أولادي؟ هل ستكون القربى أقوى من الشتات؟ هل سيختارون العودة معي إلى ثالث الحرمين الشريفين، ونعيش في وئام؟

هرعت إلى ساحة المدينة. بدل الأعراس والموسيقا والغناء والرقص، أمرت فجيء لي بخمسة آلاف تأسيس مادة أولى ويسري وتأسيس مادة خامسة. وأمرت فربطت أيديهم على أقفيتهم، وأركعوهم على ركبهم، وربطوا كواحلهم بأيديهم.

حاولت أصنفهم في طوابير بحسب لائحة الاتهام. لكن ذلك كان مستحيلا. هذه الآلاف كلها مذنبة بانهيار إنسانيتها أمام غوايات النفط؛

بالأمس فقط كان آباؤهم يتركون المال والمتاع في عرض الشارع ويمضون إلى صلاة الظهر والعصر، فلا تحدث سرقة واحدة. بالأمس فقط، كان آباؤهم يكرمون الضيف، يغيثون الملهوف، ينصرون المظلوم، يعينون المحتاج .. واليوم: هذا البطر، هذه القحة والصلف والعجرفة.. هؤلاء كلهم مذنبون بجريمة خسة الروح، وبجريمة احتقار البشر، وبجريمة العطالة والبطالة والجشع والبشع، وبسريان شعرة معاوية في مسام أبدانهم...

قلت أصنفهم بحسب جرائم أخف وطأة.

وأمرت فاندرج في طابور واحد جميع السماسرة. قلت: "أنتم متهمون بأنكم قبضتم مئة دولار عن كل مادة اشترتها الدولة وكان ثمنها خمسين دولارا. والدولة تستحي في العادة من شراء مادة ليس ثمنها مئات الملايين".

وأمرت فاندرج في طابور ثان جميع المهربين. وضعت في المقدمة الأمير نفطون،الذي يتولى شؤون الويسكي وشقيقاتها، ويبيع كل زجاجة بمئة وثمانين دولارا. اقتربت منه مبتسما: "وأنت أيضا تقود الحملة الدينية الشرسة ضد شرب الخمرة في جميع أنحاء البلاد .. بكم تبيع ليتر الويسكي لسعادات السفراء؟أين عدالة جدك وإيثاره، وقد كان يوزع الرز على المواطنين؟"

وأمرت فانصف في طابور واحد مالكو الشوارع. قلت: "وضعتم أيديكم على أراضي وأراضي. أخذتم قروضا من الدولة وبنيتم على الأراضي مباني. أنتم لم تدفعوا شيئا. عمليا أنتم لم توجعكم مفاصلكم إلا من كثرة الراحة. الآن لدى كل منكم شوارع من الشقق السكنية، تؤجرونها للذين يبيعون عمرهم في هذه الصحراء من دون حتى أن تتصلوا بهاتف، يقبض أحدكم ما بين خمسمئة وخمسة آلاف دولار شهريا عن كل شقة .أما إذا كانت الشقة مؤجرة لرجل يزني بامرأة جاره أو صديقه، فمؤشر داو جونز لا يستطيع اللحاق بدخولكم. في هذه الحالة أنتم تغضبون الله، وغضب الله لا يعوض إلا بأعلى الإيجارات."

للمرة الأولى يرد علي أحد المتهمين – رجل لم يبق في فمه سن ولا ضرس، قال: "وهل أنت ضد من يعملون معروفا مع العشاق، يا جنرال؟" قلت: "لولا البترودولار لما انتشر هذا الزنا الذي تسميه أنت حبا. نساء لا يعملن حتى في تربية أولادهن، ورجال تثقل عليهم فوائض المال والوقت. يمارسون تدنيس الجسد ويسمون ذلك حبا. "

وأمرت فتراصف في طابور واحد مالكو التراخيص: امبراطور التويوتا، امبراطور المرسيدس، امبراطور الشفر، امبراطور سوني، امبراطور براون، امبراطور كوداك، ... جميع الأباطرة الذين اشترت الدولة ولاءهم بمنح كل منهم ترخيصا محصورا به فقط لاستيراد واحدة من هذه الامبراطوريات .

وفي طابور سادس جمعت القائمين على الدعارة السرية. قلت: "أعرفكم أنتم أكثر من غيركم. وأعرف بيوتكم. الجدران الإهليلجية المفصّلة بشكل حجرات يصدح في كل منها نوع من الموسيقا، يقصده طالب الجنس. وراء كل حجرة غرفة نوم!أين شرف آبائكم الأولين وتقواهم؟ "

وأمرت فتكأكأ أمامي طابور تجار الخدم. كانت وجوههم أشد صفرة من وجوه سابقيهم. قلت: "أنتم جعلتم البشر بضاعة. غزوتم أقطار آسيا لتستأجروا خادمات يعملن هنا. يعملن: خادمات، مربيات، عشيقات، عاهرات، طابخات، مدلكات، ساعيات بريد لعلاقات جنسية سرية . وفوق كل شيء، يتلقين الضرب والركل والجلد والاغتصاب والبصق والشتم والصراخ والسجن .. وينتهين بغايا على أرصفة الشوارع. وليس في دستوركم قانون يحميهم أو حتى يعترف بوجود أجسادهم: مقابل مئة وعشرين دولاراً في الشهر. أين بساطة آبائكم الأولين وإنسانيتهم؟ "

كان الطابور الحادي عشر أضخم الطوابير. وكان أقلها تدقيقا. نظرت إلى وجوههم الغائمة، الخالية تقريبا من الملامح. قلت: "أنتم متهمون بترويج البشاعة والقبح في بيئة لم تعد تنتج الجمال. أنتم تسمحون لأطفالكم

بالانفلات على الأطعمة انفلات الوحوش. تجعلونهم يأكلون ويأكلون حتى تضج خلاياهم من استيعاباتها. ليس فقط من باب الشراهة والجشع، وإنما أيضا لأن الأكل الكثير عندكم معيار للكرامة والفخار. كبرياؤكم مقترنة بضخامتكم. والنتيجة؟ هذه المداحل المتدحرجة في المحلات العامة. أنا أعتبر جلدا على عظم بالنسبة لهم. ألا ترون بأعينكم أن طفلا في العاشرة من عمره لا يمكن أن يكون وزنه سبعين كيلوغراما؟ ألم تسمعوا بشيءاسمه الجمال؟ الرشاقة؟ انظروا إليهم وهم يمشون ! أيديهم تدور حول "خصورهم" في نصف دائرة لئلا تصطدم بأكداس اللحم تحت آباطهم. وأرجلهم تمشي في نصف قوس إلى الخارج لكي لا يهترىء لحم أفخاذهم من الاحتكاك. أين رشاقة آبائكم الأولين؟ أين جمال قوامهم؟ "

الطابور الثاني عشر كان قليلا نسبيا. نظرت إليهم و لم أعرف بماذا أبدأ. لكل واحد منهم وجه يشع منه العلم والموهبة. قلت:" لطالما رأيت نفسي عاهرا في هذه الجامعة النتنة، وتاجرا يبيع أخلاقه وعلمه مقابل حفنة من الدولارات لأناس يذلونه ويهددونه. ولكن، أنتم! خزيت العين من حولكم ! مسلسلات البدو والبداوة التي تعملونها للتلفزيونات النفطية، هذه فاقت كل تصنيف. هذه عوضت عن مسلسلات الخيال العلمي. عوضت عن العلم نفسه، وعن الفن كله، ونقلتنا نقلة نوعية إلى القرن الحادي والعشرين. فكأن المدن لم تبن بعد. وكأن الكمبيوتر لم يخترع. وكأن الانسان لم يحل على سطح القمر. وكأن الناس لم تعرف بعد النظام الجمهوري ومجالس النواب، وكأن الديناصورات لم تنقرض. فقط الخيام والملابس البدوية واللهجات البدوية ! والقرف البدوي .طوبى لكم هذه المباغي التي تعمل فيها عقولكم ومواهبكم ."

وعندها ضربت بروؤس أصابعي على جبيني. كيف نسيت؟! وأمرت فجيء لي بطابور من أصحاب الأرصدة. المليارديرية الذين لا يعرفون ماذا يفعلون بأموالهم. نظرت إليهم حاسري الرؤوس تحت شواظ الشمس

الكافرة، ونصف مغمضي الأعين: تلك كانت تجربة التجارب في حياتهم، هم الذين عاشوا بين مكيف ومكيف طول ربع القرن الأخير من حياتهم.

لحظة هممت بمخاطبتهم لحتها: الأستاذة الدكتورة أم خمسة وأربعين بحثا. أية صدفة ألقت بها بين هؤلاء العمالقة! إن ثروتها لا تزيد عن مليار دولار إلا قليلا. توجهت إليها مبتسما: "سمعنا أن المرحوم أورثك سبعمئة مليون دولار". لم ترد علي. قلت: "وأنه أورث إخوتك الخمسة ألفا وخمسمئة مليون، لكل منهم". لم ترد علي. قلت: "يعني أبوك كان يمتلك ثمانية مليارات دولار. لماذا؟ أين هي؟ كيف امتلكها؟ من أين حصل عليها؟ ماذا فعل لتأتيه ثروة مدوخة بهذا الشكل؟ قولي لي ماذا فعل ليصير معه ثمانية مليارات دولار؟ أتظنين ثمانية مليارات لعبة؟ هل أنشأ صناعة؟ أنشأ تكنولوجيا؟ أنشأ زراعة؟ كتب قصيدة؟ رسم لوحة؟ اخترع اختراعا؟ أبدا. أين هي أمواله؟ في بنوك العم سام! وأنا؟ أنا يكفيني وأولادي مدى الحياة ثمن السيارة التي أهداها لك زوجك في عيد ميلادك الأخير."

لم ترد علي. قلت: "أنت اشتريت شهادة الدكتوراه قبل عشرين عاما بمئة وعشرين ألف دولار". لم ترد علي. قلت: "صديقي الدكتور نزار كتب لك خمسة بحوث من السبعة التي ترقيت بها إلى أستاذة مساعدة. وساهم في "تنقيح" الاثنين الباقيين. وكتب لك تسعة من الأثني عشر التي ترقيت بها إلى أستاذة، وساهم في "تنقيح" الثلاثة الباقية. كم دفعت له؟ هو عربي مثلك. كم دفعت له؟" لم ترد علي. قلت: "أنا أقول لك. دفعت له عقدا للعمل في الكلية. هذا هو كل ما دفعت. يا دكتورة! يا أستاذة! مليار دولار لديك، من الأموال السائلة، المجمدة في حسابك خارج البلد. وتدفعين له: عقدا للعمل! يا عيب الشؤم! أين هو كرم آبائك الأولين؟ أورثوك المال، ألم يورثوك الشهامة؟ يقولون أنك مرشحة لتصيري رئيسة الجامعة بعد سنتين. تصوري! أنت التي لا تعرفين نظريات فيثاغورث، تصيرين رئيسة جامعة! ومرشحة للملك قبل أن تتم (الانتخابات الديمقراطية) لرئيس الجامعة المقبل! وهذا العبقري الجائع يبيعك

عقله.. بعقد عمل! صحيح، الذين استحوا ماتوا. أكلّ هذا لأنك بالصدفة تكونت في رحم من النفط؟ ما الذي فيك يساوي دولاراً واحدا؟ ها؟"

التفت إليهم كلهم وقلت:" سأرشكم برماد العنقاء. وستنامون أربعمئة عام. الذي يفيق منكم على بساطة آبائه، وإنسانيتهم، وأماناتهم، وحبهم للعمل، يعيش. والذي لا .. ينام أربعمئة عام آخر." ورششت عليهم كمشة من رماد الانبعاث.

هتف المقدم حردان جذلان صاخبا:" الاقتصاد يا دكتور عربي، الاقتصاد! أنت تبدد ثروة الشعب!"

الله! مر زمن كان فيه لهذه الكلمة وقع كالسحر. الشعب! إذا الشعب يوما أراد الحياة / فلا بد أن يستجيب القدر: أبو القاسم الشابي التونسي. ما كان لي أن أحتفي بالشمس / لو لم أركم / تغتسلون الصبح في النيل وفي الأردن والفرات / من دمغة الخطيئة: خليل حاوي اللبناني.
أين الشعب في هذه الأيام؟

عندما وصل جنود الفتح والتحرير، جنود حطين الثانية، وجدوا البدون وسكان المدن: الشعب الذي عاد لا يطيق الحياة. أما الباقون ففي لندن وواشنطن (يطيرون إلى هناك فيخلعون جلابياتهم وكوفياتهم، ويستأجرون بيوتا وسط الحدائق الغناء ومافيات البغاء، ثم يأكلون وينامون ويتغوطون وكأنهم ما يزالون في نفيطية: لا مسرح، لا متحف، لا سينما، لا معرض، وطبعا لامكتبة، حتى ولا فرجة على تلك الحدائق الغناء).

ولكن ها هي ذي: شاشات التلفزيون وأصوات المذياع: كلها مشغولة بالهبوب الانفجاري الكاسح للشعب الذي يريد الحياة. اندفعوا إلى ساحات المدن وشوارعها، وجعلوا المكاتب والمقاهي منصات هائجة لإعلان حقوق الإنسان. لأول مرة منذ عشرين عاما يخرج الشعب، الشعوب، في مظاهرة من المحيط إلى الخليج.

أيتها العنقاء التي ظننتها احترقت ورمادها لن يعود للحياة قط! ها أنت ذي تبعثين الآن بالملايين، تعيشين البعث، تملأين أسماع العالم وأبصاره

بقبضاتك المشدودة وأصوات حناجرك الصادحة. تعلنين سقوط خرائط الميجر فكس. وإني لأرى خرائط قد أينعت وحان قطافها. وستحترق تلك الجغرافيا في نار غضبك وانتفاضتك. الملايين خرجت إلى الساحات والشوارع. كلهم. أقاموا أعراسهم هناك. من الأطلنطي إلى الخليج. يريدون عصر النبوة ومليارات البترودولار لأجل أطفالهم. والذين لم يخرجوا، فلأن الحجاج بن يوسف منعهم.

ولقد جلست على الرمال بين الفيلات التي خلّفها الإنكليز، واستعدت الصور. استعدت الأصوات والصور والهتافات، ووجوه الرئيس فكس وحلفائه وسط ذهولهم وخيبتهم. وكانت أصابعي تداعب الرمل، هذا التبر الناعم الذي أنجب محمدا. تمسد عليه بين أنسام الليل التي يتداخل فيها برد الشمال ورمضاء الجنوب ورطوبة البحر وجفاف الصحراء. هذا المناخ الرهيب المخاتل. كل يوم فيه يحمل الفصول الأربعة.

مرة أخرى أهدر الصفحات المخصصة لي دون أن ألتقط الجوهر من معاناتي. أنا بلا منازع بطل العالم في الهدر. أنا الهادر المهدور المستهدر. أهدرت حياتي في المنافي، وموهبتي في التعليم، وإنسانيتي في استرضاء المنافيط. أهدرت رغباتي ومشاعري وإمكاناتي. أمكنتي وعلاقاتي ويقيني. كل ذلك كرمى للقمة ضاعت بضياع وطني. اشتريت بيتا في وطن آخر: اسكوتلندا؛ ليسكنه غرباء: ولداي ومطلقتي. وصرت متسكعا على أرصفة العالم، ضائعاً في الخمارات والمباغي والمطارات والمرافىء.

حسنا. إنه النشاز الأخير قبل أن أختم صفحاتي وأختم تطوحاتي بسؤال رهيب: هل سنجعل عصر النفط عصر نبوّة أم عصر انحطاط؟

كنت في كلية البنات، منهمكا في مصادرة كراتين الويسكي التي انكشفت فجأة في مكتب العميدة. حمل العريف غضبان كرتونة، وهرول ورائي إلى سيارتي مقابل المبنى الخامس.

هناك سمعنا الأصوات. بمجرد وحشيتها انتضيت البارودة. ارتقيت الدرج عدوا، واندفعت داخل المبنى. كانت الأصوات تصدر من مكتبي. وجدت

الباب مقفلا من الداخل. كان صوت صالحة مميزا - وكيف لا؟ - ليس فقط لأنوثته الموغلة بل لصرخاته المتطاولة، التي اتقدت بالغضب والتصدي أكثر مما احتقنت بالخوف والخذلان. وكانت أصواتهم - هم، الذكور - خليطا وحشيا من الفحيح والحشرجة والمقاطع المبتورة، والقباع والخمخمة والجعير. وكان هسيس الأقدام والأجسام يرسل للخيال صورا لبشر يتحركون حول كتلة منطرحة أرضا.

كان الجنود قد ازدحموا حولي. وقبل أن أعثر على المفتاح، كان العريف غضبان قد أطلق على القفل رصاصتين عموديتين محكمتين. حتى تلك اللحظة كانت الأصوات في أوج فحيحها. لكن الباب انفتح وسط صمت قبوريّ. ولست أدري هل كان بوسع المشهد الجامد الذي رأيناه أن يتكلم بلغة أفصح لو أنه رافقته الحركة. كان مشهدا ساكنا كالموت، ولم يكن ميتا. كأنك اخترت أن توقف فيلم فيديو على صورة صاعقة.

من حسن حظها أن صالحة أغمي عليها أخيرا. ولا شك أنها كانت في أمس الحاجة إلى ذلك الإغماء. لقد وصلت إلى حالة من الاستلاب والعجز جعلت كل مقاومة مستحيلة. وأضحت هي محتاجة فقط لأن تغيب عن رؤية ما يحدث لها.

أية صورة! مغمى على صالحة ومطروحة أرضا، ولكن عارية تماما. عارية تماما. وهم أنصاف عراة. وعيونهم عارية، وأفواههم الفاغرة تشير إلى حجم الدهشة التي ضربتهم بسبب دخولنا العنيف.

كانت الصورة تشير أيضا إلى أنهم أوشكوا أخيرا أن يقتسموا المرأة - قسمة آنية غير متوازنة، لكنهم ارتضوها تحت ضغط غرائزهم الفائرة. فعند رأس صالحة جثم طالب سمين قصير نسبيا، وفمه على فمها. يده اليمنى على جيدها ونحرها، ويده اليسرى متغلغلة في شعرها الفاحم الطويل.

عند نهديها جثم طالب آخر نحيل، وما زالت ساق بنطاله عالقة بقدمه. يداه غائصتان في النهدين، وفمه يعلك الحلمة.

أما الباقي فكيف يمكن الحديث عنه؟

تبدلت الصورة كما لو أنك طويت شريط الفيديو بسرعة. انتفض الطلاب الثلاثة واقفين، مثل من أرادوا قطع علاقتهم بما حدث. ثم لم يعرفوا ماذا بعد. وتوقفت الصورة من جديد. كانوا مصعوقين، فلم يحاول أحد منهم أن يصنع من يده ورقة توت.

لم نضع وقتا. لملمنا الشباب الثلاثة وثيابهم، واقتادهم الجنود إلى الزنزانة مع توصية خاصة مني بإعطائهم درسا كالوشم لا يمحى. أغلقت الباب بهدوء، وأحكمت عليه كنبة. لملمت ملابس صالحة، وهممت أغطيها قبل أن تفيق وتهلع. غير أني ألقيت نظرة. نظرة واحدة وحسب. فهذا الجسم كان خلال عامين حلما ملتهبا في خيالي مطوقا بأسلاك الشرف الشائكة، وأمنية طالما لطمتها قبضة المستحيل.

يجب أن ألبسها مِعْوَرَها على الأقل.

بحثت عن المعور مرتعشا متوترا. ومر دهر قبل أن أجده نصف ممزق عند مصراع الباب.

أخذت أصابعي تحترق إذ بدأت أمرر المعور حول قدمي صالحة. عندها صارت راحتاي فرنين صغيرين لا يطاقان. ليس فقط للامتلاء التدريجي الفاتك في تلك المساحة، وليس فقط لكون ملاستها وطزاجتها فراتا ودجلة من لذات النعيم، وإنما أيضا لكون تلك الخليقة هامدة على الأرض وتتطلب زحزحة واغترافا.

أحسستني ضائعا. ومحروما. وأعمى .وأني أعيش أقل من معشار حياتي. وأن كل شيء يعطي لحياتي طعما أو لونا أو صدقا، مفقود منها. وأنني جائم حول جسد امرأة مغمى عليها أستجدي منه لمسة و ضغطة ومنظرا، مثل كلب يستجدي أن يلحس عظمة عارية. وأن حياتي خاوية وجافة، لا حب فيها، ولا جمال، ولا فرح، ولا إنسانية. بعد عمر هو نصف قرن، تكون الحقيقة الأعظم في حياتي هي الجوع والوجع والوجع والجوع.

لذلك تركت القدمين، ودسست وجهي بين نهديها. وراح فمي يغمغم ويخمخم ويهبع حول حلمتها النافرة. وصارت يداي سيلين على كشحها وسرتها وظهرها، وبين رخامتيها.

جاءني صوتها الواهن، ولكن الهادىء والترير. لم أكترث. كنت على وشك أن أجيء وأنا مرتص على لحمها داخل ملابسي. وفجأة تطوحت عنها بقوة دفع رهيبة نفرت من جسدها المنهك المرضوض.

"وأنت مثلهم ! تفوه !" دمدمت بلا هياج، ونهضت إلى عباءتها.

٨ - صلوات مقتضبة من الرئيس فكس

٥ /٨/ ١٩٩٠

أبانا الذي في السماء، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء، كذلك على الأرض.

أطلب المغفرة أيها الرب لأني أصلي لك الآن وأمامي خارطة وورائي صاروخ. فهذا الثور البابلي وقع أخيرا في مصيدة إيبريل غلاسبي واخترق بجيشه الخطوط التي رسمناها في الرمال كاشفا عن رؤوس قد أينعت وحان قطافها. عندما تقع أخطاء في الجغرافيا، على السياسة أن تحمل صاروخا وتقوم بتصحيح الخرائط.

أنا لست يسوع المسيح؛ لست نبياً. لأجل هذا أصلي طويلاً وكثيراً قبل أن أعرف ماذا تريد. وأنت تعرف أن صديقي دهريار نفيطان هو الذي أرشدني إلى هذه الممارسة الروحية. يقول إن هذه هي تجربة الأنبياء معك. وحقا فإن بوسع كل مخلوق أن يتصل بك، إذا تمكن من تركيز هرموناته الروحية وتوجيهها إلى حيث يجدك، رغم أنك لا تخاطب أحدا.

يبدو لي أني نجحت في هذه الممارسة أبعد مما استطاعه صديقي دهريار. دائما نحن أنجح من هؤلاء الشرقيين. فأنا استشففت مشيئتك واتخذت قراري منذ أن جاءني من (إيبريل) أن الثور البابلي سينطح خطوطنا في الجنوب. وأستطيع أن أقول إنني بتّ أعرف المعايير الروحية

التي سلكها موسى إليك. الخليفة ما زال يستشيرك حتى الآن. حتى بعد أربعة أيام من تخندق عجول الثور في نفيطية كاف. لم يطلب حتى الآن مساعدتي. يبدو أن قواه الروحية قد ضلت طريقها إليك، فهو شخصية ضلالية، وإلا لوصلته رسالتك التي وصلتني. كيف أستطيع تنفيذ مشيئتك، وتصحيح خارطة الصحراء، إذا ظل على تردده المشين؟

تعرف يا أبي أنني طول سنتين وأنا أستدرج هذا الثور إلى حظيرة صغيرة لأحصره فيها وأقتلع قرنيه. وحقا فإن قرنيه قد طالا في السنوات العشر الأخيرات حتى أطلا كالرماح على بحار النفط كلها وأخافا حتى صديقتي الشجاعة ماغي. أنت تعرف يا أبي، أنا لا يمكنني السماح لهذا الرجل أن يسيطر على ثلث إنتاج الصحراء اليوم، وثلثي احتياطي العالم من النفط غدا.

هذا هو السبب المادي العملي وراء حملي للصاروخ والخارطة. لكن السبب الروحي الذي بموجبه أنشد رضاك على حربي القادمة هو التالي.

خلال عصور جيولوجية سحيقة، توزعت خامات الطبيعة في المحيطات والقارات ثم استقرت على النحو الذي نراه الآن. كان من حظ هؤلاء العرب أن انتشرت الصحراء في ثمانين بالمئة من وطنهم، وشاءت المصادفات الجيولوجية أن يترقرق النفط تحت ثمانين بالمئة من تلك الثمانين بالمئة. لا اعتراض على مشيئتك يا ربي.

لكن يا أبي، عدالة الطبيعة ليست متوافقة مع عدالة البشرية. ولو لم ننجح في تقسيمهم إلى عشرين دولة، لكان بوسع راكبي الجمل هؤلاء أن يجبروا كل يانكي من هذه البلاد أن يركع على قدميه. فهم يمتلكون ثلاثة وستين بالمئة من احتياط النفط العالمي، و ألف مليار دولار موظفة خارج وطنهم، و اثنين وعشرين بالمئة من احتياطي الغاز في العالم .. لو أنهم فقط عرفوا كيف يتصرفون ببترودولاراتهم. إن أحدا لا يفهم لماذا تفضل نخبتهم أن تنشىء أنظمة حكم إقليمية وتمزقهم بها على أن توحدهم في أمة

واحدة. ولكن شكرا فعلا لهذه النخبة. لو كان حظهم من العقل مثل حظهم من النفط لكنت الآن موظفا صغيرا في إحدى شركاتهم.

كان بوسعهم أن ينشئوا جامعات حقيقية، ومراكز بحوث حقيقية، وصناعات حقيقة، وبشرا حقيقيين، وتكنولوجيا تصل إلى مستوانا، ربما، أو مستوى اليابانيين على الأقل، بدلا من تبديد ثروتهم على إنتاج الخيار من الصحراء وهم يستطيعون إنتاجه بعشر الكلفة في العشرين بالمئة المخصبة من بلادهم. قال لهم كتابهم: اقرأ. وقال لهم نبيهم: اطلبوا العلم ولو في الصين. فقرأوا الإعلانات عن المباغي - أرجو معذرتك يا أبي - وطلبوا النساء والسيارات والخمرة والقمار من آسيا وأمريكا وأوروبا.

إذن أنت ترى يا أبي أن الطبيعة، بإعطاء راكبي الجمل هؤلاء تلك الثروة الفاحشة، قد كافأت الكسالى والمتخلفين والحمقى، واضطرت المتفوقين والمتطورين أن يتعاملوا معهم، وعلى قدم المساواة. لدى هؤلاء يا أبي أعلى نسبة عالمية من الحواسيب والسيارات والهواتف والصيدليات والفاكسات والبيجرات والتلفزيونات والمكيفات والمدفئات. ومع ذلك، ليس لديهم عالم واحد. لو هاجمهم خمسمئة جندي فلن يمكنهم الدفاع عن أنفسهم، لولانا.

ماذا نفعل بمعجزة النفط هذه؟هؤلاء الجمالون ! نجعلهم يشترون ويشترون ويشترون. كل مشتقات الجنس والتكنولوجيا والترف. ومع ذلك تبقى لديهم بلايين بلايين الدولارات من مشتقات النفط. ويدّعون إن هذه فضل منك. يجب أن نجد وسيلة لسحب هذا الادعاء. البترودولار يهدد الدولار.

نحن يا أبي مضطرون لتصحيح أخطاء المصادفات الجيولوجية. منذ سبعة عشر عاما ومليارات البترودولار تتراكم في حسابات الجمالين هؤلاء. إننا نجعلهم يشترون ثلث ما يشتريه العالم كله من الأسلحة. ثلث! ومع ذلك لا تنضب ملياراتهم! وإذا حدث وتصالح حاكم واحد منهم مع

شعبه، فسنكون نحن في خطر. سوف لن يكون مضطرا لطلب حمايتنا ولا لإيداع دولاراته في مصارفنا.

أي خير ممكن للبشرية في هذه المليارات يا أبي؟لا شيء. أي خير ممكن لشعوبهم هم؟ لا شيء. نحن الذين نعمل ونجدّ لتحصل البشرية على العلم والتكنولوجيا. وهم الذين ينزلقون عن أفخاذ نسائهم ليحرروا صكا يشترون به علمنا وتكنولوجيانا. ليس هذا عدلا بين البشر. وأنا شخصيا لم أجد وسيلة لتعديل هذا الخلل المستطير في الجيولوجيا المالية إلا بأن أجعل هؤلاء الجمالين يتحاربون فيما بينهم، كما كانت عادتهم منذ ما قبل محمد، ومن ثم يطلبون المساعدة مني.

يجب أن نخلق لهم أوضاعا، يكونون فيها على الدوام بحاجة إلى الدفاع عن أنظمتهم من تهديد شعوبهم لها أو من تهديد أحدهم للآخر، بحيث يتوسلون إلينا نحن أن نحميهم ويدفعوا الثمن الذي نطلب. وهذه الآن هي أكبر صفقة من هذا النوع في تاريخ علاقاتنا معهم. بهذه الحرب سيدفعون ما لا يقل عن مئة مليار دولار، سنربحها نحن، وبذلك نعيد توازننا إلى قيمة الإنسان أخلّت به المصادفات الجيولوجية.

لأجل هذا، يا أبي، أعتقد أنك ستمنحني بسهولة البركة التي أطلبها لأمضي قدما في هذه الحرب. ليتقدس اسمك. ليتعال ملكوتك. كما في السماء. كذلك على الأرض.

١٩٩٠/٨/١٩

مرة أخرى خلال أسبوعين أتأكد أن صديقي دهريار نفيطان على حق. قال لي (ديك) إنه لحظة التقاه استطاع أن يقرأ في وجهه نبوءة، وأن النبوءة أبلغته أنها هبطت على دهريار في الفترة بين هبوط (ديك) من الطائرة ومثوله أمام جلالة الخليفة. أخيرا ! أمكنه الوصول إليك. لماذا لا يستطيع دهريار نفيطان أن يقرأ مشيئتك بسرعة قراءتي لها؟ ها أنت ترى: حتى في الأمور الروحية، نسبقهم !

أعرف أن الخليفة شخصية مركبة. لا أحد يمكنه أن يعرف في أي عصر يعيش. لا أحد يمكنه حتى أن يعرف عمره، أو عمر أي من هؤلاء العرب ! لا أحد يستطيع أن يعرف فلسفته في الحياة أو نظام القيم في وجدانه. لكل مقام عنده مقال ومبدأ وقيمة أخلاقية .حقا إن مصادفات البيولوجيا أشد إذهالا من مصادفات الجيولوجيا. إن بوسع عشرة آلاف من نخبته الحاكمة على الأقل أن يجعلوني أقسم على أن نبيهم محمدا لم يولد بعد. فوثنية طباعهم وقيمهم ووثنية تعاملهم توحي بأنهم لم يعرفوا الأنبياء قط. الخليفة شخصية مركبة . ربما غاب في الصحراء يومين أو ثلاثة، مقلدا بذلك محمدا، قبل أن يعود إلى إخوانه وعلى وجهه المتثعلب تلك النبوءة المذهلة، وبين حاجبيه المعقودين أنتين تلفزيوني.يطلع من حوله على قراراته. انتهى: الديمقراطية، أو الشورى كما يسمونها، هي إعطاؤهم فرصة للموافقة على قراراته .

هذه المرة كان حادا في قلقه وارتباكه. ولي العهد الأول وولي العهد الثاني، كلاهما يريدان حل المشكلة محليا .. حتى لو تطلب الأمر التخلي عن "قطعة من الأرض للأشقاء". وأعترف لك أن هذا الحل المحلي أوشك أن يصير كابوسا في رأسي، أنا الذي، لقوة إيماني، لم أعرف الكوابيس

قط. كان كفيلا بتبديد جهد استمر عامين كاملين، وفرصة للمجد لم تلح لرئيس أمريكي قبلي. ولكن شكرا لك يا أبي. لقد أوحيت للخليفة بالفكرة الصحيحة. الحق أنه انتزع عقله أخيرا من دوامة العصور واقتحم القرن العشرين بلا تلكؤ لكي يلاقيني. صحيح أن القرن العشرين يرهقه ويثقل على روحه، لكنه يدخله عندما يتوجب عليه دخوله .

ومع ذلك فلولا جون لما أمكنني دخول متاهات عقله المتدهرنة. جون هو الذي ذكرني أن وصول المسيحيين، وخاصة الجنود المسيحيين، إلى مشارف الحرمين الشريفين، سيلهب مشاعر لاعقلانية في نفوس المسلمين، وقد يزعزع خضوعهم لأنظمتهم، ويزعزع صورة الخليفة كخليفة. الآن يجب أن أعترف بأن جلالته اتخذ قرارا شجاعا. إذ لم يسبق لأية جماعة غير إسلامية، ناهيك بجيش مسيحي، أن اقتربت من الحرمين الشريفين منذ أبرهة الأشرم.

عندما دخل الجنرال أللنبي دمشق عام1916 ، طاردا فلول العثمانيين من هناك، كان أول شيء فعله بعد ذلك أنه زار ضريح صلاح الدين وقال له: "ها نحن عدنا يا صلاح الدين". ترى، من سأخاطب منهم عندما أذهب بعد ثلاثة أشهر لقضاء عيد الشكر مع فتياننا وفتياتنا الذين سيكون عددهم قد صار نصف مليون؟ سنكون وراء خطوط صلاح الدين بألف ميل. عند خطوط مرسومة في الرمال ولكنها لا تمحى. وسنكون قد أقمنا قلاعا من الأسلحة والفتيان والفتيات حول حجرهم الأسود. كم قرنا سيلزمهم بعد ليندمل جرح كرامتهم؟

١٩٩٠/٩/٩

أبي، إنما ألجأ إليك لأن الأنبياء، كما قال يسوع، غرباء بين أهلهم. صحيح أن حولي عصابة رائعة من أفضل العقول. لكنهم عاجزون عن الرؤيا. كولن، مثلاً، أراد منذ البداية تصحيح الانطباع الذي تركته (إبريل) لدى الثور البابلي عن عدم تدخلنا في الصراعات العربية العربية. كولن لا يمكنه أن يدرك أن ذلك الانطباع هو الفخ الذي اصطدنا فيه التاريخ حتى خمسين سنة قادمة. من دونه ما كان للثور البابلي أن يجن وينطح المتولاريا. ولسوف نفعل المستحيل لكي لا يخرج طوعا من المصيدة. كولن يعتقد أن عقوبات الأمم المتحدة كافية. هذا العسكري لا يعرف أننا لن نقبل بأقل من إزالة القوة العسكرية من بابلون. كولن ليس كاوبوي.

وقال برنت إن الشعوب العربية تعارضنا وأنهم يتظاهرون ضدنا. يا لضيق الأفق في رجل يحمل مسؤوليات برنت. متى أبدانا الشعوب العربية؟ ليتظاهروا. فقد مات عبد الناصر. وكأننا خلال عشرين سنة لم نرسخ في السلطة أصدقاء لنا يعرفون كيف يتعاملون مع معارضة غوغائهم.

لكن وليم هو الأقل نباهة. قال إن عربا كثيرين سيقتلون، ومع الأيام سينسى الناس هدفنا النبيل من الحرب ويتذكرون القتل. وعندها ستقوم بينهم عاشوراء. ونكون نحن من الخاسرين. تعجبني إنسانية هذا الفتى وليم، ولكن ليس سذاجته. وليم جاهل بحقيقة أن العرب لا يحبون إلا قاتليهم. لا يطيعون إلا مصطهديهم. وإذا لم يجدوا من يصنع لهم كربلاء، صنعوها بأنفسهم. إن بعضهم يصرخون ويزعقون: نريد قمة عربية! أتساءل: ألن يكون هؤلاء جديين يوما؟ قمة عربية لمشكلة تتطلب حلا حاسما!

رأني وليم مصمما على المضي قدما عبر الخط الذي رسمته في الرمال، فحوّل معارضته الإنسانية إلى سؤال ماكر: "ومن سيتحمل الأعباء

الاقتصادية للحرب؟" وأجاب ديك: "التقدير أن البترو عرب سيدفعون". وزجرته أنا بمزيج من الدعابة والتحذير: "إذا كانت الولايات المتحدة مستعدة لأن تعطي الدم، فلا أقل من أن يعطي هؤلاء المال".

ماغي هي الوحيدة التي تعرف قدسية هذه الحرب. باركها يا أبي.

٧/ ١٠ /١٩٩٠

كيف يمكن أن أقنع الشعب الأمريكي بقدسية هذه الحرب دون أن أكشف له عن الأسباب، يا أبي؟ رغم كل ما كشفته ماغي من أسباب فاضحة محرجة (الحقيقة أنني ارتجفت هلعا من صيحتها القتالية أننا لن نسمح للثور البابلي أن يضع يده على ثلث إنتاج النفط في العالم) فهم لا يريدون هذه الحرب. يجب أن ندمر القوة العسكرية للثور، يا أبي، ومعها القوة المالية للخلفاء ! الآن وقد سقط الاتحاد السوفييتي لم يعد هناك بعبع يخافون منه فيلجأون إلينا. ونحن لا يسعنا أن نترك لهم الحد الأدنى من القوة – أية قوة. وإسرائيل لم تعد مجدية، يا أبي. مهمتها انتهت. في النظام العالمي الجديد لا دور لعساكر اسرائيل ولا مكان لأية حروب.

نريد العرب الآن أن يتحاربوا فيما بينهم؛ لا أن تنهض إسرائيل ضدهم فتوحدهم كما حدث قبل سبعة عشر عاما. يا للغرابة ! إنها فعلا سبعة عشر عاما، ويوم زيادة.

مولاي، أدم عليهم نعمة الأنظمة، ونعمة الجامعة العربية، ونعمة اتفاقية الدفاع المشترك، ونعمة اتفاقية الوحدة الاقتصادية، ونعمة القومية العربية، وأدم عليهم نعمة الإسلام، واجعلهم ينغمسون في ملذات الدنيا ويتحرقون شوقا إلى الآخرة، ويخسرون الاثنين معا، وينسون كل شيء بينهما.

٢٥/ ١١ / ١٩٩٠

جيم يطوف العالم، وفي كل رحلة له يحصل على تعهد بالموافقة على الحرب أو المشاركة فيها. ومازال الشعب الأمريكي يعارض الحرب. آه يا أبي، كم أحسد الخليفة على هذه الجمال التي يحكمها. ببعض المال والرخص التجارية، يمنحونه كل حقوقهم السياسية، وخاصة حق الاعتراض. تصور بلادا بلا معارضة! إن هذا لا يوجد إلا عندك في ملكوت السماء .قل لي، أرجوك، ماذا أفعل. هؤلاء المهرجون في الكونغرس يريدون إخضاع خططي لموافقتهم. يقولون إني لاأستطيع الذهاب إلى الحرب من دون الكونغرس! وأنا أقول إني سأفعل ذلك. هذا القرار اتخذته وانتهينا. المطروح الآن هو فقط خطط العمل لتحقيق هذا المجد. خلال الأيام المقبلة يوافق مجلس الأمن على الحرب. يوافق العالم على الحرب. وهؤلاء المتسلقون في الكونغرس ما زالوا مقفصين داخل مصالحهم الانتخابية أو، في حالات قليلة جديرة بالانتباه، داخل رغبتهم في إخضاع الرئيس لمشيئتهم.

أنا أخضع لمشيئتك فقط يا أبي. وقد وافقتني حتى الآن، خطوة بخطوة، منذ بدأنا نعمل معا على اصطياد الثور البابلي وتذويب كثبان البترودولار. إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها في تلك الصحراء. ولقد بطروا وتغطرسوا، وانتفخوا. ولإيمانهم أننا سنعيد رسم الخطوط كما كانت في الرمال، مازالوا يتصرفون بنفس الصلف والبطر والغطرسة في فنادقنا. ولماذا لا؟: لقد دفعوا ثمن سلامتهم الوطنية !

إنما، ماذا أفعل لفتل عقول الشعب الأمريكي كي يقبل بقطاف الرؤوس؟ قدمنا لهم إحصاءات عن أن لدى الثور رابع أقوى جيش في العالم، وظلوا يعارضون. وهؤلاء الجمالون الحمقى يصرفون آلاف ملايين الدولارات لترقية خيار الحرب بين الأمريكيين ورشوة أعضاء في الأمم

المتحدة ومجلس الأمن (لا يفقهون أننا سنحارب حتى ولو لم يدفعوا دولاراً واحداً)، فماذا يقول اليانكي؟

لقد صنع الإعلام لدافعي الضرائب، الآن وفتياننا يعدون نصف مليون تقريبا في الصحراء، صورة مؤثرة لشباب ورجال أمريكيين انتزعتهم التعبئة من زوجات لا يخفين دموعهن، وأطفال يمكن أن يذوقوا اليتم إذا اشتدت ضراوة المعركة في حرب بعيدة، في بلاد بعيدة لا يعرفون عنها شيئا سوى أن سكانها يركبون الجمال والنساء، ويسكنون الخيام، ويملكون نفطا يتقاسمون أرباحه مع شركات كبرى هي دائما موضع ريبة دافعي الضرائب. العناوين تقول: "لماذا يموت شبابنا ورجالنا لكي يحيى بعض قردة الصحاري في بذخ، ولكي تتراكم الأرصدة في حساب بعض الشركات؟" وتقول: "هم يشربون البيرة ويعاشرون النساء في فنادقنا. بينما نرسل شبابنا إلى الموت لأجلهم." وتقول: "إن حياتهم لم تتغير رغم احتلال بلادهم. شعب بأكمله تصله رواتبه باستمرار فردا فردا حيث يعيشون في فنادق خمسة نجوم بانتظار تحريرنا لبلادهم المحتلة."

ساعدني يا أبي. أنت لم تخذلني حتى الآن. لقد رسمت خطا في الرمال، وأريد لهذا الخط أن يتحفر عميقا ويمتد حتى الأناضول والبحر العربي. إني أبتهل إليك في هذه الصحراء التي يتهلل فيها الخليفة، وشعوري هو أن ثمة شيئا يراوغني ولا أعرف ما هو. لقد صليت مع فتياننا هذا النهار صلاة عيد الشكر. قلت لهم إننا سننتصر. قلت لهم: "الثور البابلي جعلها معركة، إما أن يبقى هو فيها أو يبقى رئيسكم". وقلت لهم: "لسوف نذهب إلى بغداد ونرتل هناك نشيدنا الوطني". كانوا رائعين. كلهم مستمتعون نشطون. مؤمنون بالنصر. لكني أحس أن ثمة شيئا يراوغني. لا أشعر هنا مثلما أشعر وأنا أصلي لك في واشنطن.

١٩٩١/١/١٣

أبانا الذي في السماء، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء، كذلك على الأرض. مرة أخرى يا أبي، أطلب مغفرتك، فقد جئت أصلي لك وأمامي خارطة وورائي صاروخ. يبدو وكأن قطاف الرؤوس قد حان.

كلنا نفد صبره. كلنا يتحرق للحرب، وأنا أكثرهم. أعرف أن يسوع قال لنا: من ضربك على خدك الأيمن فحول له الأيسر؛ لكن يسوع عنى بذلك العلاقات البشرية الفردية. إن أحدا لم يضربنا على وجهنا بالطبع. لكن مصالحنا هي التي ضربت. فرص العمل للأمريكيين، أسلوب حياتنا، أمننا القومي، حريتنا، حرية أصدقائنا في سائر أنحاء العالم، هيبتنا .. كل هذا صار مهددا باختلال نسب السيطرة على النفط.

ولكن، يا أبي، النفط ليس كل شيء، ونحن لم يضربنا أحد على وجهنا. هذه المنازلة ليست لأجل النفط. أرجو ألا يخطر لك أننا نحن الأمريكيين فريسيّون يعيشون في القرن العشرين. لا. إننا نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله. ولكن نحن نحمي النظام العالمي برمته، فكيف يهدد سلام العالم رغم أنفنا؟ إن مبدأ (العين بالعين والسن بالسن) ما يزال نصا في الكتاب المقدس.

لذلك أعتقد أنك توافقني على أن أعطي الأوامر لنصف مليون من فتياننا وفتياتنا أن يهبوا بعد يومين كالعاصفة، ويعيدوا حفر الخط الذي رسمناه في الرمال. إن استراتيجيتنا بسيطة، كما يقول نورمان: سوف نعزلهم بين الرمال ومن ثم نقتلهم. بسيطة جداً.

الطائش دوغان قال كلاما، وعزلناه بسببه. هذا الكلام كان يجب أن أقوله أنا وحدي وليس واحداً من أتباعي: على القوات الجوية أن توجه

ضربات قاصمة لكل هدف عسكري أو مدني معاد. عليها أن تدك كل منشأة وكل مرفق. لا بد أن تكون حربنا صاعقة، وليس هناك داع للتصعيد التدريجي ولا لدفن القتلى. لدى سلاح الجو على مسرح العمليات قوة هائلة، ولا بد أن نفكر بطريقة جريئة وفعالة. أعني أن نضرب وندمر ونقتل، وليس أن نحرر مدننا أو نطهرها .. هذه مهمة يمكن أن يقوم بها الفرنسيون أو الإنكليز. أما نحن فلدينا ما هو أهم. نحن مقبلون على حرب مع بلد من بلدان العالم الثالث، ومع ذلك فيجب أن ندخلها وكأنها الحرب العالمية الثالثة.

إن الألف طائرة .. الجاهزة للعمل .. في العراق .. تستطيع أن تقذف به .. ليعود .. من جديد .. إلى العصر الحجري .....

ساعدنا يا رب.. وسلّم أولادنا .... ليتقدس اسمك

....

١٧/ ٢/ ١٩٩١

أنا لست رساما، يا أبي. لكني سأريك على هذا الجدار كيف يمكن للحرب أن ترسم خرائط تصير لوحات لا يمكن لبيكاسو أو حتى سلفادور دالي أن يرسمها.

هذا هو البحر الأحمر. هنا كان الرومان يرهبون أعداءهم؛ وهنا يرهب الأمريكيون أعداءهم. على بقعته الزرقاء سألوّن مواقع الحاملات الأربع لطائراتنا. لم يكن لدى الرومان طائرات ولا حاملات لها. هنا، وهنا، وهنا، وهنا. ساراتوغا، بالأبيض. كنيدي، بالأصفر. تيودور روزفلت، بالأخضر الفاتح. أمريكا، بالأحمر. كل يوم، تطلق هذه صواريخ كروز، هكذا، هكذا، في هذا القوس الذي أرسمه بألوان قوس المطر. هذه الأقواس بالأحرى، تتقاطع فتشكل مهرجان ألوان ضوئية في عنان السماء. أليست هذه الألوان قناطر من الزينة فوق صفرة الصحراء؟

في الخليج الفارسي، ثمة البارجتان ميزوري و وسكونسن، مع حاملتي طائرات: ميدواي و رينجر. الرومان لم يصلوا إلى هنا، لكن اليونان فعلوا. يقال إن الإسكندر عسكر في إحدى جزر نفيطية كاف لدى عودته. سألوّن مكانيهما بالبرتقالي. هذه أيضا ترسم على الخارطة أقواس المطر. وفي البحر المتوسط، هناك الأسطول السادس العريق، الذي طالما أرهبنا به ذلك الحوض الأكثر عراقة. هنا، هنا، هنا، وهنا. جميع ما لدى الطبيعة من تدرجات الألوان. وفي الصحراء، لدينا ثلاث قواعد كبرى، هنا وهنا وهنا؛ وشبكة إطلاق استراتيجية، هنا؛ وثمانئة طائرة. لا أحب هذه الدبابيس، لكن رؤوسها ملساء جميلة، ولبلكها أملس جميل. وفي المحيط الهندي، حيث لا رومان وصلوا ولا يونان، لدينا دييغو غارسيا.

هذا الحب والحنان مكرسان برمتهما لسلامة الصحراء، يا أبي.

بهذا الون الليلكي، الذي طالما حولناه إلى شمس ساطعة في هذا الشهر الشتوي المنصرم، دمرنا تماما نظام السيطرة والقيادة والاتصال. لم يعد بوسع الثور أن ينطح. بوسعه فقط أن يخور، وإن أحدا لن يسمعه خارج دائرة قطرها خمسة أميال. سألوّنها بالأسود، هنا.

بهذه الوطاويط الهائلة دمرنا نظام الدفاع الجوي والرادار. ماذا يكون لونها؟ أنا أحب الرمادي، لكنه ليس لونا فرحا. حسن. سألونها لك بالكحلي، يا أبي. وطاويطنا بزّت خفافيشهم. دمرت أمواجها الاستشعارية.

آ، وهنا! سألون المطارات وقواعد إطلاق الصواريخ، التي صارت شيئا من الماضي، بهذه المسامير .. السوداء ! أجل، السوداء.

هنا .. وهنا.. وهنا، مرافق لسنا متأكدين من أنها تنتج وتخزن الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وإنما الصور الفضائية أوحت لنا بذلك. كنا مضطرين لتدميرها على كل حال. وكنا مضطرين أيضاً لقصف ستمئة بئر من نفط أصدقائنا سرعان ما خلقت جهنم على الآرض، لكي نمنع الثور البابلي من تغطية مياه الخليج بالنفط ليمنع بوارجنا من ضربه .وبعدها دمرنا ثلاثة وعشرين مرفقا، هنا وهنا، وهنا وهنا، وهناك، بالأصفر الليموني. ظننا أنها لإنتاج وتخزين الكيماويات والبيولوجيات. وبعدئذ، سبعة وأربعون هدفا، قالت الصور إن كل واحد منها قد يكون مقر المفاعل النووي. بهذه الدبابيس الزيتونية. يا ربنا الكريم! كل هذه الألوان! من كان يظن أن خارطة العراق والصحراء حوله ستغدو جميلة بهذا الشكل! هذه الدبابيس جعلتها قطعة من هوليوود. لوحة من النوع المسمى "طبيعة صامتة".

طائراتنا دمرت ثماني فرق من الحرس الجمهوري. هنا، في هذه المواقع التي سألوّنها بالأحمر الناري. نحن لا نحدث خسائر. تسقط القذيفة على البناء، تدمره نحو الداخل وليس نحو الخارج، ثم تحفر له قبرا تحته، تطمره تحت أنقاضه.

ودمرنا كذلك شبكة الإمداد، التي سألون خطوطها المتعرجة بالعسلي. نحن قلنا إننا سنمحو خرائطهم ونحفر خرائطنا. وقد تم هذا يا أبي. ودمرنا

مخازن المؤن والذخائر. أما هذه الخطوط القصيرة المفلوعة، التي سألونها بالبني وأرشها بالأصفر، فهي الطرق والجسور والسكك الحديدية التي دمرناها، بل محوناها تماما. وسيتعين على الثور البابلي أن يركب عربة يجرها ثوران مثله، وليس سيارة مصفحة، إذا شاء أن يتحرك، لأنه لم تعد هناك طرق للسيارات. وسيتعين عليه أن يمضي في النهار، لأن الليل بات دامسا تماما، وخاليا إلا من برق قاذفاتنا وقذائفنا، ووهج الانفجارات الشبيه بأقواس المطر. ثلاثة آلاف طائرة! هللويا! المسيح قام! وحدك أنت، يا أبي، تستطيع أن تتخيلها كلها وهي تدك هذه البلاد العاقة المتمردة، وهي تصير سحبا فوق سماء بابيلون، ولكن سحب ليست رمادية، إنها سحب صنعت أعيادا وكرنفالات في ملكوت سمائك، يا أبي، وكأنها تنشد: هللويا! المسيح قام! أنت تعرف، يا أبي، تفوقنا كان يجب أن يكون صاعقا وحاسما، شيئا مثل رؤيا يوحنا للقيامة، بحيث لا تجيءفترة شك تؤثر على أسعار النفط في الأسواق العالمية .

بابيلون الآن هي الأرض الخراب التي رآها ت س إليوت. ولم يبق لكي يكتمل لها ذلك سوى أن تهب عاصفتنا أخيرا على ٤٠٠,٠٠٠ جندي ضائعين في الرمال. الحقيقة أننا منذ اليوم الأول تحقق لنا النصر؛ ولكن لم يتحقق لنا الدمار الذي أردناه. لقد طلعنا عليهم 221000 طلعة طيران، أي بمعدل خمسة آلاف وخمسمئة طلعة في اليوم. وقذفناهم بمئة وسبعة وأربعين ألف طن من القذائف. وبلغت تكلفة ذلك كله 283 مليون دولار في اليوم!

أنت بلا شك راض عن هذه الأعياد والمهرجانات، يا أبي، وراض عني. فالذين ماتوا في الحرب من فتياننا لا يتجاوزون ستين فردا. هؤلاء، من بين نصف مليون، كان يمكن أن يموتوا في وقت السلم.

على الأرض السلام، وفي الناس المحبة.

٩ـ كربــــلاء

حارا تماما كان ذلك الصيف الأخير في بغداد لكن بنت تمبلر لن تشكو من الحر أبدا. في تاريخ العالم ثلاث مدن خرجت من دوائر الجغرافيا والسياسة إلى أفق الأساطير والرموز الثقافية. اثنتان منها هنا: بابل وبغداد، باب الإله، وعطية الإله؛ والثالثة هي روما. ويومها كنت في بغداد.

بغداد. الشاطئ الآخر للحلم والهجرة. عشرين عاما وأنا أحمل بدني وحنيني وجنوني إليها. أحملها من براري العالم الجاهل في سينت لويس، أو أي مكان آخر على وجه الأرض، إلى تينك الضفتين الجليلتين، المنسابتين منذ مئة ألف عام .. منذ مليون عام .. هناك حيث ترعرعت بابل وبغداد. أصل في آخر أسبوع من (جولاي)، الذي يسمونه تموز، وأمكث طوال (أوغست)، الذي يسمون آب، وبعضا من (سبتمبر)، الذي يسمونه أيلول. هناك سحر فريد في أشهر منحت أسماء الآلهة: تموز، آب، أيلول. لن تجده في أشهر سميت بأسماء أبطال من البشر: يوليوس، أغسطس. تحسه مثلما تحس بالامتلاء والنضارة في جذور الغابات، وتعيشها مثلما عاشها غلغامش وإنكيدو وروبن هود.

مع فارق صغير . كنت أعيشها مع صلاح الدين.

رغم هذا، بل ربما بسببه، أنا لا أعرف بغداد. أقول عنها ما قال توماس وولف عن حارة من حواري نيويورك أمضى فيها معظم حياته: لا يمكنك أن تعرف بروكلين قط. كنت أعرق وأغرق مع صلاح الدين

طوال نيف وأربعين يوما. وكانت بغداد تصيره وهو يصيرها وأنا أصيرهما معا. وكان يخصبني بالحب والبذار، ويسحب من عروقي احتقانات ستة شهور مضت علي في سينت لويس أو مكان آخر من العالم. وإذ يحين الوداع، أحس أنني أغادر، ليس صلاح الدين وحسب وإنما بغداد ذاتها.

ليس مهما أن أعرف الخريطة والجغرافيا. أنا ضد الخرائط. ضد كل خط يرسم على الورق بين بلاد وبلاد فيصير حدودا ومخافر على التراب. لطالما التقيت بعرب زاروا نيويورك وسينت لويس، وجعلوا يعددون لي أسماء الشوارع والمتاجر والملاهي والفنادق والأبنية - أسماء لم أكن أنا لأعرفها في المدينتين. وبعدئذ؟ لا شيء. إنهم مثل قرص وضعته في الحاسوب ونقلت إليه ألف معلومة. لم يعرفوا الجذور (هي لا تقارن بجذور بغداد، لكنها جذور على كل حال)، ولا رائحة الهواء، أو طعم الأمكنة، أو متعة التسكع خارج طاحونة سينت لويس السياحية والتجارية.

غير أني أعرف التراب في بغداد . والأعشاب التي تنمو في فجوات الأرصفة والأطفال الحفاة أنصاف العراة الذين يلعبون بكرة مفتوتة في ساحة عفراء. وأعرف مقامين للخضر / القديس جورج في ضواحيها. وطالما وقفت بجوار فرن صلصالي في أحد الزواريب، والخباز يرشق رقاق العجين المدورة على جدرانه اللاهبة، وبعد ثوان يتقدم خباز آخر فيلتقطها بحيث تطير خارج الفرن إلى يديه المستعدتين. خمسة آلاف عام عمر هذا الخبز الشهي. الخبز نفسه الذي أكل منه غلغامش وإنكيدو، ثم صلاح الدين.

صلاح الدين. كان مسليا لقاؤنا الأول. أراد أن يلفت انتباهي إليه، فبادرني بحديث أبعد ما يكون عن الاهتمام الشخصي: "هل تعرفين أن القديس جورج في المسيحية هو نفسه الخضر في الإسلام؟" ولم يكن يعرف أن جورج هو القديس الذي تعمدت على اسمه. أما أنا فقد عرفت للتو أن صلاح الدين مهتم بي أنا وليس بالقديس جورج أو الخضر. ضحكت. وسألته بمجاراة له: "وهل الخضر عندكم يطعن التنين برمحه في

الحلق فيرديه قتيلا؟" فأجاب بجدية قائلة: "لا. هناك هـذا الفـرق: الخضر والتنين عندنا لا يلتقيان. الخضر يطارده دائما، فيهرب. وبهذا الهرب يمنعه الخضر من أفعال الدمار والقتل".

وهكذا نجح صلاح الدين في إثارتي، فهذا الصراع الأبدي بين الخير والشر، الكن المؤجلة نهايته إلى مالانهاية، مفهوم جميل ومأساوي في حين واحد.

وعندما صار لا بد لي من أن أغويه وأتحرش بجسده ذلك المساء، بعد أن أينع الحب داخلنا، بدا هو جزعا ومترددا. بالطبع صلاح الدين فارس، ولن يريد أن ينتزع خوذته أو يترجل عن فرسه. لقد أمضى شهورا وهو يطارد جسدي، وعندما تفتحت له، صار وجهه ميدان معركة. تلبّد بالانفعالات واعتكر بالحسابات.

أخيرا قال: "بث، علي أن أخبرك أننا قد لا نتزوج". فوجئت بهذا الدرب التافه في تفكيره. قلت له وأنا أطوق خاصرتيه بذراعي: "أيها الأحمق، من يتكلم في الزواج؟ الزواج مسألة خطيرة ولا يمكن أن نقررها الآن. أريدك أن تحبني لا أن تتزوجني. ربما فكرنا في الزواج فيما بعد".

كيف أصف لكم تهلل الوجه الذي كان منفرا قبل ثوان؟ لقد أسقطت عن كتفي صلاح الدين أحمالا وأزحت عن صدره هموم الدنيا. منذ صغري وأنا أعرف الفرق بين الحرية والعبودية، لكنني فقط في ذلك المساء لمسته.

خاض صلاح الدين معي حطبي الجسد والشبق. بهجمة واحدة كان قرنه قد اخترق جغرافية جسدي وتضاريسه، وأزال تلك الهشاشة التي كنت أدخرها لمن سأحبه. وبعد أن هدأت دوامة اللذة والألم، سألته لماذا استعجل، فابتسم محرجا ومشوشا: "كنت خائفا."

كان صعبا عليه في البداية أن نظهر معا في الوسط الجامعي كحبيبين لن يتزوجا. ألن يحتقرنا الطلاب؟ ماذا لو نقل أحدهم أخبارنا إلى بغداد؟ هل ستؤثر علاقتنا في موقف أستاذه المشرف على أطروحته؟

أنا شخصيا لم تكن لي مصلحة في الزواج. أما هو فقد رزح تحت أعباء التناقض. ظهورنا معا دون ارتباط قانوني (أو ديني، بالنسبة له) بات يملؤه بالكبرياء والثقة، لأن بث تميلر، الشقراء الزرقاء العينين، التي تساويه في الطول، هي حبيبته ولا تطالبه بالزواج كما تفعل بنات بلده. وفي الوقت نفسه، كان ظهورنا معا دون ارتباط قانوني يرهقه بفكرة الحرام.

أعتقد أن أكبر الفروق بين ثقافتنا نحن الأمريكيين وثقافة العرب هو هذا: بينما ننظر نحن إلى أخطاء السلوك بمنظار الذنب ينظرون هم إليها بمنظار العيب. نحن لدينا القانوني وغير القانوني؛ وهم لديهم الحلال والحرام. إذا استطاعوا تجنب العيب فالذنب لا يرهق ضمائرهم.

لم يهدأ خوفه إلا بمعاهدة سرية عقدها مع نفسه: ما دامت هذه العلاقة عابرة، فسيبررها أمام الأوصياء على وجدانه بأي كلام. سيقول إنه كان يتسلى وتاب الآن. أو أن بث تميلر امرأة مسيحية، أو مشركة، وهو ليس مسؤولا أخلاقيا عنها. سيقول أنني أنا التي أغويته ـ وخاصة أنني كامرأة عرضة لأن يركب الشيطان عقلي بسهولة، فهؤلاء العرب يؤمنون فعلا أن هناك شياطين بالمعنى الجسدي الفيزيولوجي، ويمكن أن يدخلوا حجرات الدماغ ويسيطروا على عملياتها ـ مثلما يدخل فيروس في كمبيوتر.

خوف آخر سكنه بعد أن أخلاه خوفه على سمعته عند أهله. ذلك هو خوفه من أن يخسرني. ما دمت غير مربوطة به بعقد زواج، فأية ضمانة لديه على أني لن أدير له ظهري ذات يوم وأمضي؟ وقد جعل من خوفه مبررا للإغارة على حريتي والتضييق علي.

قلت له بحنق: "اسمع. إنه أنا التي تقرر تركك أو المتابعة معك؛ لا عقد الزواج ولا الذين أختلط بهم."

فرد بلا عصبية: "قد يجعلك واحد منهم تعتقدين أنه أفضل مني، فتتركينني إليه".

قلت: "هذا حقي. أنا ما زلت أجرب الحياة، ولم أقم بالتزامات نهائية بعد. وحقك أنت أيضا أن تتركني إلى امرأة أفضل."

فابتسم بخبث الثعالب وقال: "ألن تقولي عندها: تفوه! صلاح واحد خائن !؟ "

امتنعت عن المتابعة وكنت قرفة .

عندها تشظى صلاح في واحد من انفجاراته الرجيمة،وصرخ:"هكذا إذن ! أنتم" (أنتم: الأمريكيون كلهم) "بوضوح جماعة بلا وفاء ولا إخلاص، جماعة لا تحس بالخجل من أية ممارسة قذرة أو مشينة. تتنقلين من رجل إلى رجل، هكذا، بكل سهولة، من فراش إلى فراش، دون أن تحسي بشيء !"

كان واضحا أنه يرى شرفه مطمورا في أعضائي التناسلية .

قلت بقنوط: "رجاء، كف عن أن تراني مومساً. "

كانت كلمة (مومس) مفاجأة صاعقة له. نظر إلي بدهشة جلمودية، و بصوت خافت كدت لا أسمعه، غمغم: "مومس! أنا أراك مومساً؟ أنا أحبك، بث. وأنا فقط أريد حمايتك. "

كانت عبارته هذه كافية لأن تبقيني معه، بعد أن كدت أغادر شقته غضبا، مرة وإلى الأبد. قلت له وأنا ألتهب من الداخل: "صلاح، كف عن وصايتك علي. أنا أحبك لكني لست محتاجة إلى حمايتك. وأنا لن أعطيك صكا بخضوعي لك. الحب حرية لا تبعية !"

أحبني بعدها مباشرة. كان الخوف قد جعل منه ثلاثة رجال في واحد. ظل يحبني حتى تجرحت مهابلي وتهدل حوضي. لا أدري كم مرة جئت. أحسستها سلسلة، ثم صارت مثل حبات المسبحة التي يحملها والده. وكل مرة كان صلاح يقبل إلي كأنها أول مرة. وقد قلت له: "أنت تنين. أشك في أن يكون القديس جورج نفسه قادرا على إيقافك". فابتسم باسترخاء، وكان واضحا أن وجدانه ووعيته قد غادرا سينت لويس إلى بلاد الرافدين.

عندما كان ينجح في أن يوجد كصلاح وحسب، بلا إلحاقات ثقافية، ولا رزوح تحت عبء سميّه الشهير الذي هزمنا في كنعان، كان يشف ويروع إلى درجة لا تصدق. وكان بوسعي أن ارى فيه، بلا أي نشاز أو مفارقة، رجولة غلغامش وفطرة إنكيدو. وأنا لا أزعم أنـي روّضت صلاح مثلما روضتْ سمحة إنسان الفلوات والغابات ذاك، لكنني يمكنني الفخر بأني أيقظت فرديته.

وبعدئذ تلك السلسلة. تلك الذرى من النشوة والانشراح. اجتياحاته الكونية. الدخول فيّ، الذي يستمر ساعة أو ساعتين بلا توقف. لقد أراد أن يمتلكني بأن دمغ أعضائي بوشم شبقي لا يمحى. وهكذا كان. سمحت له بهذه الملكية. بل وربما لم أستطع مقاومتها.

كان أثناء واحدة من تلك السعادات أن انفجر بالبكاء بينما وجهه، جبينه وعيناه وأنفه وخداه وشارباه وذقنه، كلها مدفونة في عنقي الأيسر. سبتها في الثواني الأولى ارتعاشات إضافية جاءته وهو يدخل في ذروته. وقد جن جنون جسدي لها واندفع معها. غير أن تلك الجبال السامقة تلاشت بلمح البصر عندما أحسست بدمعه على جلدي وعرفت أنه كان يبكي.

وضعت صدغه على نهدي، وضممته إلي كأنه وليدي الذي خرج من رحمي. قلت:" خبرني ."

قال: "أنا أعرف، أنا متأكد، أنني إذا لم أتزوجك لن يكون لحياتي طعم. سأبقى بالضبط الشيء الذي أعدّني مجتمعي لأكونه: فوتوكوبي عن الشخصية الجماعية لهذا المجتمع، خالية من أية ألوان فردية. لكن هذا مستحيل. أنا لست حجرا. لن يمكنني العودة إلى بغداد لأكون فوتوكوبي، وأتزوج فوتوكوبي، وأعيش حياة فوتوكوبي، وأصير أستاذ جامعة فوتوكوبي. مستحيل. وفي الوقت نفسه أنا يستحيل أن أتزوجك. يجب أن أكون صادقا معك يا بث. مع أني ما زلت أؤمن أن أجمل ما يقدمه رجل لامرأة يحبها هو الزواج."

جلس وواجهني. سألني: "ما الحل؟ "

قلت: "أنا آتيك إلى بغداد في الصيف. وعليك ترتيب لقاءاتنا على النحو الذي يحفظ سمعتك. وأنت تأتيني إلى سينت لويس في عيد الميلاد ورأس السنة، وأنا أرتب لقاءاتنا على النحو الذي يريحك."

رأيته ينظر إلي بحيرة واضطراب. وما لبث أن قال: "وإذا تزوجت؟"

قلت: " كيف أتزوج غيرك وأنا أحبك أيها الأهبل؟ أعتقد أنني لن أتزوج. "

هز رأسه باستياء: " أنت مجنونة. وتعيشين بلا أولاد؟ "

قلت: "هذه مشكلتي أنا. أنا مسؤولة عن اختياراتي. "

لهذا السبب أحمل منوشي معي إلى سائر أنحاء العالم. كلما ماتت واحدة جئت بأخرى، عمّدتها على بركة القديس جورج وسميتها منوشي، واستخرجت لها جواز سفر وشهادات أطباء، وحملتها معي إلى سائر أنحاء العالم. ذلك لأنه بعد عودة "الدكتور" صلاح الدين إلى بغداد لم يعد بوسع سينت لويس أن تبقى كما هي: وطنا هنيئا لقلبي. حصلت على الدكتوراه خلال العامين التاليين، وخلال عامين بعدهما بدأت مؤسسة روكفللر مشوارها الطويل معي. صرت مدرسة تنتدبها المؤسسة وتدفع لها للتدريس في هذه أو تلك من جامعات العالم. وقد بدأت بمراكش، أعني المغرب. وهناك التقطت أول منوشي.

منوشي كلمة مكونة من ثلاثة أقسام. القسم الأول يأتي من الفرنسية، ويعني قطيطة. والثاني، إضافة مغربية. أما الياء فهي للملكية بالعربية. عشرين عاما وأنا أحمل منوشي (الأولى والثانية والثالثة ...) من مكان ما على سطح الأرض وأجيء بها إلى بغداد. بل هي ثلاثة وعشرون عاما بالضبط ؛ أعني يوم أقلتني الطائرة إلى بغداد مساء يوم الأحد الأخير من تموز عام 1990 .

لقد تقبلت كل ما فرضته علي طواطم الثقافات وأعرافها ومحرماتها. ساويت بين قديسي وشفيعي جورج والقديس الذي يحبه صلاح الدين،

الذي يسمونه الخضر. أحببت عشتار التي لا مثيل لها في ثقافتنا. ووجدت بكاءها على تموز ثم لقاءها به شبيهين بفراقي عن صلاح ولقائي به. لم أجد مشكلة في تحمل عائلته الضخمة، ونظراتهم الأضخم إلي، والاحترام الذي قدموه لي كما لو أنني مريم المجدلية. قبلت أن أرتبط بصلاح الدين دون أن نتزوج، بسبب ثقافته الآيلة إلى السقوط كمنزل آل أشر في قصة إدغار ألان بو. وتدبرت أن أنجو بهذا الحب ليظل حقيقة حياتي العظمى، من جميع غصات العيش والوحدة، والحاجة إلى منوشي تصنع من لحمي ودمي. تقبلت الخبوّ التدريجي الموجع لشعلة الجسد، التمدد الأفقي الكئيب في جسدي وجسد صلاح، ورتابة العالم كله.

أما أن تتدخل الحرب، أن يتدخل هؤلاء المجانين بالسلطة والمال والانتصارات العسكرية، عشاق التدمير والقتل، فهذا ما أقض سلام عقلي. وعندما حللت في بغداد ذلك المساء، كنت مبلبلة من كيف سيرى صلاح جسمي الذي ازداد شيخوخة سبعة أشهر أخرى منذ لقائنا الأخير. لم يكن ليخطر لي أنه لن يراه قط.

حللت في فندق عشتار. ولحظة وجدت نفسي أخيرا في غرفتي، ناديت منوشي فجاءت. أجلستها على ركبتي ومسحت على ظهرها ورأسها. قلت لها: "غدا صباحا سنلتقي دادي صلاح الدين". وتابعت مسحي عليها فيما هي تخرخر بلا حماس.

مضى يومان ولم يظهر صلاح الدين. وفي اليوم الثالث قيل لنا إنها الحرب.

طبيعي أن يكون صلاح الدين في الحرب. عرفت ذلك دون أن يقوله لي أحد. صلاح لم يخذلني يوما ؛ فكيف يتركني هكذا ثلاثة أيام. كان كلما حللت في الفندق يخف إلي وقد خلع شخصيته الفوتوكوبي وعانقني في عري فرديته واتساعها: صلاح الفارس، والشاعر، والفحل، والخادم، والسيد، والطفل، والمتسول، والكريم، والمستبد، والمجنون، والغيور .. صلاح الطوفان. كانت آخر رسائله لي هي هذه (سأوردها رغم تهديدات

المؤلف لي أن أختصر): "متى تأتين إلي أيتها المرأة الأمريكية المقدسة؟ متى تأتين مثل ثمرة نارية طازجة، يقذفها كف القمر، وتحملها الأمطار الملونة إلى صدري اليابس؟ متى تأتين فوق فراش وحدتي، تعلمينني لغة النجوم وكيف أرسم لون البرق الغامق؟ متى تأتين مثل عصفورة اللهب، تنقر قطعة من جسدي المر، ثم تمضي شظية للحلم وللريح؟"

كان محتما أن أمضي إليه في أية ساحة من ساحات تلك الحرب الرجيمة. عشرون سنة مضت مذ فاض الهوى بقطرات دمي، وهو تحيّ فوقي، فيّ. وما يزال. إنه يدعوني إلى الحياة، هذا المتدثر بأضلعي. لم يعد لي كأس يشتهي غيره، ولا عشب ينمو حولي دونما خوف. كل صباح ينزع عني ثوب المساء، وكل مساء ينزع عني ثوب الصباح. يتعلق حول عنقي كصليب محترق، ويبث معاني لا أقصدها، يرتجل أغنية للخضر وللقديس جورج، ويغزل عني الأساطير.

قلت للضابط الذي أشرف بمجموعة من الجند على حراسة الفندق منذ اليوم الخامس، إنني جئت خصيصا لملاقاة صلاح الدين، ولن أقبل شيئا أقل من ذلك. قلت إنه حتى ولو كان يخوض معركة حطين جديدة، فأنا ذاهبة إليه، وسأبقى معه في وحدة الإسعافات، في حالة أن الولايات المتحدة حين جنونها وأعانت عليه الحرب.

لكن فصاحتي كلها ذهبت أدراج الرياح. بغمضة عين وجدت نفسي أسيرة حرب لم تقع بعد! جئت إلى موعدي السنوي مع الحب، مثلما كانت عشتار تجيء إلى موعدها السنوي مع انبعاث تموز؛ صرت أسيرة حرب. وفي ليلة دامسة، نقلت ومنوشي عبر شوارع دامسة إلى منشأة إسمنتية تحت أرض بغداد كانت أشد دماسة.

عندما "أفرغونا" هناك من الباص، وتوجهنا في البصيص الأعمى للمبات زرقاء بحجم كرة الطاولة، اختفت منوشي. فجأة فرغت يداي منها. صرخت: "منوشي!" ولم أكن أعرف أن صراخي ليس فقط لأجل منوشي. سمعته وأدركت أنه ليس فقط لأجلها. فقد اندفع في صدري مثل

هزة أرضية وخرج من فمي مثل صاعقة. وهرع الحرس إلي بسرعة مستطيرة. وصرخت بهم أيضا: "ما هذا؟ منوشي اختفت وأنتم مسؤولون عنها! أريدها الآن، الآن تماما!" تحلقوا حولي وأحسست باهتمامهم، فتأدبت وأمسكت عن الصراخ.. تكلموا فيما بينهم، وسمعت اسم رئيسنا جورج بوش، وبدا أنهم يتداولون أمرا. صرخت عن حمنت أنه قائدهم: "كان عليكم أن تسألوني أنا ما إذا كنت أريد هذه الحرب أم لا، قبل أن تعتقلوني".

ثم بدا أنهم اتفقوا على أمر. وسطع الضوء فجأة في ذلك الجوف الجهنمي الذي لم يطرأ على خاطر دانتي. جعل الجنود يتفرقون في مختلف الاتجاهات، بينما أشارت قبضة القائد وسبابته الممدودة إلى إشارة تحذير، وقال بالإنكليزية: "قفي في موضعك."

أتيح لي، أتيح لنا كلنا أن يتأمل بعضنا بعضا. أحسست ببعض الأمن، فجميعنا كان من العرق الأبيض حوالي اثني عشر شخصا. أحدهم خاطبني بلكنة ألمانية مرحة: "هل نصدق أنهم أشعلوا الضوء وتركونا هكذا، فقط ليبحثوا عن قطتك؟"

لمحت في عمق أحد السراديب عسكريا يقبل مهرولا. اقترب ولمحت منوشي بين يديه الممدودتين أمامه. أتراه مدهما هكذا ليريني منوشي أم ليبعدها عن ملابسه فلا تلتصق به؟ لا أعرف. أعرف فقط أني لحظة استرددتها، لحظة تحلق الحرس حولنا من جديد، وسط صيحات الاستحسان والغبطة، أحسست أني استرددت شيئا من صلاح الدين. ثم انطفأت الأضواء فجأة مثلما ضاءت وعدنا إلى جحيم دانتي.

لا يمكنني القول، هل كانت الأشباح التي رأيتها أثناء الثواني اللاحقة حقيقية أم زيغة بصر. ما كان لواحدة مثلي أن تؤمن بالأشباح. من المؤكد أن اصطدام الضوء بالظلام، ثم اصطدام الظلام بالضوء هو ما زغلل بصري. شيء ما يحدث للعقل عندئذ فتنفلت منه أخاييل ورؤى يرفض الإقرار بها. لقد انبثقت صورة تبين أبيض مباشرة بعد الصدام الثاني.

ظهرت واختفت وظهرت واختفت، في أقل من لمح البصر، بلون أبيض وخلفية سوداء، وبلون أسود وخلفية بيضاء! وصرنا كلنا أذرعة له: أنا والألماني والآخرون. تصوروا فقط! نحن أذرعة للتنين!

بقينا في الجوف الاسمنتي .. أسابيع؟ شهورا؟ لا أعرف. قالوا لنا إننا رهائن حرب، وإننا إذا ما سوّلت لجورج بوش نفسه أن يقصف البلاد فسنموت تحت وبين هذه الجدران الاسمنتية. نقلونا إلى جوف آخر وآخر وآخر. وكل مرة المصادفة المستحيلة اللامعقولة نفسها: تنفلت منوشي عن حضني وساعدي لحظة ندخل جوف السرداب ويعمينا بصيصه الخافت؛ تختفي؛ أصرخ؛ يتقاطر الجنود نحوي؛ يسطع الضوء؛ يعود أحد الجنود بمنوشي؛ يدلهم الظلام وينبثق التنين الأبيض!

تكرر ذلك الظهور - يا لهذه الكلمة التي لا يعرف المسيحيون إلا المعنى السماوي لها - حتى غدا كابوسا. وكان لا بد في النهاية من أن أتطير. خلال نيف وشهرين، استطاع هذا الظهور أن يغزو مخيلتي كيقين ثابت بنهاية فاجعة: منوشي تهرب بقوة دافع رهيب ما، فيظهر التنين الأخطبوط متمضيا في الفضاء، ويموت صلاح الدين.

هذا كله انفرط يوم جاءتنا بشرى صغيرة: المسنون والأطفال من الرهائن أفرج عنهم. فبشرى أخرى صغيرة: عدد كبير من الفرنسيين عادوا إلى بلادهم. عندما بات واضحا أننا جميعا سنعود إلى بلداننا، توقفت منوشي عن الانفلات، وتوقف الشبح عن الظهور. أعادونا إلى الفنادق وقالوا لنا: "أنتم ضيوف الدولة"!

كان ذلك كفيلا ببعث الأمل في نفسي. إن الحرب لم تقم، وبالتالي فإن صلاحي لم يمت.

لكننا سرعان ما علمنا أن جورج بوش، في فترة كموننا تحت الأرض، قد هيّأ العالم كله للحرب. وعلمنا أن نصف مليون جندي أمريكي، ونصف هذا العدد من دول العالم، يتهيأون للقيام بها. وقد بات واضحا لي أن رؤيا الجحيم التي شاهدها يوحنا الرسول ستبدأ في بابيلون.

قلت للضابط - نفسه الذي أعاد إلي منوشي في الهروب الأول - إنني جئت لرؤية صلاح الدين، جريا على عادتي كل عام، ولن أغادر بغداد إلا بعد ذلك، وإني أرفض هذه الحرب، وأريد أن أعبر عمليا عن رفضي. وقلت له إن حكومته أخطأت بإطلاق الرهائن، لأنه إذا كانت كل هذه الدول مصممة على الحرب، فلا أقل من أن تعرف، عبر هلاك مواطنيها معكم، معنى أن تهدر الحياة في الحرب.

نظر الضابط إلي بحب رسولي ولكن يائس:"افعلي ما تشائين، ولكن أرجوك أن تكتبي لنا أنك بقيت هنا بإرادتك، وتوقعي على الورقة."

وقد فعلت. والتفت إليه:" قلت لي أن أفعل ما أشاء: أريد أن أنضم إلى صلاح الدين في خندقه. أين هو؟"

نظر حوله بذعر كتيم أسود، وقال: "رجاء خفضي صوتك. أنا لو عرفت فلن يمكنني أن أخبرك."

قلت: "خذني إليه دون أن تخبرني بمكانه. خذني إليه معصوبة العينين. فقط خذني إليه. أنا عشتار الأمريكية التي جاءت تبحث عن تموز البابلي. ألا ترى؟ هذه قصة حب. أسطورة. عمرها ربع قرن. هل ستسمح للحرب بأن تدمرها؟"

دون أن ينظر باتجاهي (لأن ثقافته تعتبر إشاحته عني حشمة وتأدبا!)، أنصت إلي صامتا، مهموما ومتوترا. كأن اللغة لم تعد ذات قيمة لديه إزاء الفجيعة المنتظرة. قلت: "إذا كان صلاح سيموت في هذه الحرب، فأنا أريد أن أموت معه. هذا هو ما أريد. هكذا أريد أن تختتم أسطورتي."

نظر إلي وقالت عيناه:أنت مجنونة لكنني سأقبل هذا الجنون اللهوف. وقال فمه: "طيب. اعطيني أسبوعا. كرمى للدكتور صلاح، وتكريما لهذا الحب الذي بينكما، سأحاول أن أفعل شيئا لأجلك."

كم وددت لو أن ثقافته سمحت، إذن لعانقته بكل قوتي. قلت:"أنت تعرفه؟ تعرف صلاح؟" قال بأريحية: "أعرفه شخصيا!" قلت:" أنتما أصدقاء؟" فهز رأسه بالنفي: "لا يقدر صلاح أن يعرف كل من يعرفونه."

هممت أسأله المزيد. لكن وعيا مفاجئا سقط علينا نحن الاثنين بسلطة الآذان الخفية، وجعلنا ننظر حولنا بخوف بارد: هل في بهو الفندق من سيرفع تقريرا إلى السلطات بأن ضابطا يتباسط مع امرأة أمريكية؟ وانسحب هو بهدوء إلى قمرته، بينما رحت أمسح على ظهر منوشي.

خلال ذلك الأسبوع حاولت الاتصال بأهل صلاح الدين، أخيه، أبيه، زوجته ... ولكن لا هاتف ولا خبر. في اليوم الخامس أخذت تاكسي وانطلقت إلى داره العربية وراء الكرادة. على غير المعتاد، كان باب الدار مغلقا. بقيت واقفة دقائق. لم أر أطفالا ولا كرة مفخوتة. لم أر أحدا. تجرأت فخرجت من السيارة وطرقت الباب. لا صوت. لا جواب.

كان قلبي قد تقوض من ضغط التوقعات. وعاد فتقوض من تلاشيها. ذلك هو البيت الذي شهد عددا من أسعد أيام حياتي: أيام كانت زوجة صلاح تأتي بصينية الطعام إلى العلية التي تبات فيها "ضيفة" زوجها، دون أن يخطر لها قط أن تلك الضيفة حبيبته، التي كانت تثير فضول صغاره إلى التلصص علي والبصبصة نحوي من بين العرائش الكثيفة على السطح الممتد أمام العلية.

عدت إلى الفندق محبطة وشبه منهارة. لا أحب لعالمي أن يخلو هذا الخلو، أن يغيب عنه أناس أحببتهم وأمكنة أحببتها. هل تعمد صلاح الدين إبعاد أهله عني؟ ستكون لطخة سوداء على وجهه لو أنه اعتبرني عدوة لبلاده، لمجرد أن جورج بوش منسحر بهذه الحرب.

لم أظفر من الضابط بأية معلومة عن أهل صلاح. طريقته في مراوغة الجواب أكدت لي أنه يعرف أمورا كثيرة لا يريد أو لا يمكنه الإفصاح عنها. قلت له: "يستحيل على صلاح أن يقود جنودا. أنا أعرفه. هو فارس حياة وليس فارس حرب."

هز الضابط رأسه بالموافقة: "وأنا أعرفه. كان أكثر حرية من أن يتحمل أية سلطة."

قلت: "وأظن هذا سيساعدنا على تحديد مكانه". فهز رأسه مرة أخرى: "صحيح. هو لم يذهب بعيدا".

انتفضت عن كنبتي في بهو الفندق وغرفت ذراعي الضابط - كان اسمه حمدان. صحت: "وإذن فأنت تعرف مكانه!"

ابتسم بصبر حزين خيبني: "يستحيل أن نعرف. لكن إذا ركبنا سيارة، ومضينا جنوبا، وسألنا، فسنهتدي إليه."

نظرت إلى هذا الأعجوبة الذكائية بخيبة أمل نكراء. "ضابط حمدان"، قلت له، " أظنك تعرف أني لا أملك سيارة ولا يسعني استئجار واحدة".

ضحك هازئا من ضحالة تفكيري: "حتى لو كان عندك سيارة. أنا أتكلم عن سيارة عسكرية".

قلت له بحسم: " اسمع، أنا أعرف أنكم العرب تفضلون الإقامة في عالم اللغة على الإقامة في عالم الواقع. لذلك لا تتعب نفسك في جرجرتي عبر متاهاتها. خبرني بالوقائع البسيطة وكفى."

ظل يضحك ولكن من غير هزء:" إذا أمّنت سيارة عسكرية لك أكون قد سلمتك نصف الوقائع. سيكون معك تفويض رسمي بالدخول إلى المناطق العسكرية والاستفسار عن العقيد صلاح، وسائق عسكري يعرف أين يتوجه في تلك الأمكنة."

قلت له متضرعة تقريبا: "ومتى نستلم نصف الوقائع؟"

فنظر إلي بتعاطف مبتسم وحزين: " تعرفين يا دكتورة، كل شيء يلزمه وقت. خاتم شبيك لبيك ليس من صنع هذا الزمان. إنه خرافة من خرافات شهرزاد."

آه ! ليت أن خرافات شهرزاد هي الواقع، والواقع الذي أنا فيه هو الخرافة.

الوقت الذي لزمنا لتدبير سيارة كان أطول من الوقت الذي تبقى أمام جورج بوش لتدمير الرافدين.

يا رب! ما من خلقت القديس جورج والخضر، كيف خلقت جورج بوش؟ ستة وثلاثين يوما وهو يربني بالدليل الساطع أن الأمريكيين قادرون على تدمير الحضارة. وأنا واثقة من أنها كانت ستبلغ مئة يوم، بل مئة أسبوع، لو بقي في الرافدين شيء لم تدمره القذائف والصواريخ.

كنت قد سمعت أن أحد العسكريين الأمريكيين قال إن لديهم ألف طائرة ستعيد هذه البلد إلى العصر الحجري. أنا امرأة لا تعبأ كثيرا باللغة، ويضايقني أني مضطرة إلى استعمالها. لكن وحق السماء، إن كلام هذا الهمجي لم يكن مجرد لغة. لقد خرجت إلى شوارع بغداد ونهرها، ورأيت الوقائع. طوال أسبوع تذكرت مراثي إرميا وعويله على أورشليم، التي دمرها البابليون قبل ستة وعشرين قرنا. وبعد أسبوعين، تذكرت حكاية صلاح الدين عن تدمير هولاكو لبغداد قبل سبعمئة عام، وكيف ظل النهر أسود من حبر الكتب شهرا كاملا. ولكن بعد أسبوعين لم أدر ماذا أتذكر ولم أجد ما أتذكره. أنا لا أتكلم عن المباني ولا عن الجسور، أو الفنادق (انهار فندق عشتار الذي حللت فيه لقربه من محطة تقوية كهربائية دفن صاروخ أشلاءها في جوف الأرض)، أو شبكة الكهرباء، أو شبكة السكك الحديدية، أو الصناعات وخاصة صناعة الأدوية، أو، أو ... ليس لأني أقبل بتدميرها وإنما لأني توقعت تدميرها.

لا تستطيع لغة أن تصف الدمار. كيف أصف تحول شارع سعدون إلى خرائب؟ أو كيف أصف روتين غارات النهار على منطقة الكرادة أو حي المسبح؟ أو ما حلّ بحديقة النصر، أو ميدان التحرير، أو شارع تونس؟ هذا مستحيل. أريد أن أتكلم عن النهر، الذي رضع منه التراب والنخيل والأطفال خلال عشرات آلاف السنين. والتراب الذي صنعت منه أولى البيوت والقرى والمدن. والنخيل الذي أدلى عناقيده نحو سطوح نام عليها العشاق والآلهة. شاهدت التراب وهو يحترق، والنخيل وهو يحترق، والعيون وهي تحترق: الأطفال الذين أجبروا على ترك المدرسة فجعلوا يتفرجون كيف تنشق بوابات السماء عن صواعق زيوس وأفران مارس. وشاهدتهم وهم يموتون فجأة، يقتلون قبل أن ينتبهوا. قبل أن يفهموا أن جورج زيوس ونورمان مارس يستهدفانهم، يخنقان قلوبهم بالرعب، إن لم يكن بالغازات والكيمياء والنار، يردمان مخيلاتهم إلى الأبد بصور الدمار المتوحش، بصور بلادهم وهي تتقيأ النار والشظايا والتراب اليباب.

كم وجعا ووجعا يمكن أن أصف على هذا الورق؟

لقد كان هناك أن عاد ذلك التنين ذو الأذرع الثمانية إلى الظهور. لم أكن خائفة فأقول إن الخوف استنسل مني رؤى الجحيم. كنت حزينة. تفرجت على الجسر .. أطلال الجسر .. دعامة قطرها متران وارتفاعها متران. هذا هو كل ما بقي من جسر كان يصل الضفتين والأفقين، ويحمل على أكتافه الشمس والعشاق، ويمنح الطبيعة لمسة البشر الذين أنشأوه.

من تلك الدعامة نتأ زوج من الأذرع، واستطال. ثم زوج آخر، وآخر. وامتلأ الفراغ بينها فصار التنين، واندفع متقوسا نحو الشاطىء الآخر. اندفع في الفضاء ليصير نارا وشرارا، ثم ليصير دخانا ويتلاشى، ثم يولد من ذاته ثانية. رأيت الشرر ينبثق من لسانه الأفعواني، ثم يلتقي بذاته قادما من الضفة الأخرى، أشبه بقوس قزح .. وأنا قابعة في السيارة العسكرية أعاني ولاداته ووفياته، وأظل عاجزة عجزا مطلقا عن تكذيبها.

بعد هذا كله أعود إلى الفندق. أجلس مع نزلائه الستة الآخرين مقابل شاشة تلفزيونية يغذيها مولد كهربائي، ونتفرج على جورج بوش. بعد ثلاثين يوما من التجسيد الحرفي لرؤيا يوحنا للقيامة، يطل علينا بحاجبيه المتهدلين فوق عينيه ويخنخن قائلا إنه يصلي لكي لا يصاب أطفال العراق بأذى!

بعد ثمانية أيام تتوقف رؤيا يوحنا. على الأقل يتوقف منها كل ما شطر جسد الأفلاك والسماء.

ويقول لي المقدم حمدان إن بوسعنا الآن أن نمضي جنوبا بسيارتنا، علنا نلتقي صلاح الدين قبل ... قبل؟

قال: "بصراحة، نحن في سباق مع الزمن. لا أظنهم سيكونون على الأرض أرحم مما كانوا في السماء."

قلت: "هيا بنا."

قال إنا مضطرون لقضاء أربع وعشرين ساعة أخرى ريثما نحصل على تصريح بدخول خطوط القتال. . وهو التصريح الذي سيمكننا من الحصول على البنزين ايضا.

عرفت مرات كثيرة استيقظت فيها من النوم وأنا مضعضعة تماما من بكائي على حياتي التي ضاعت كرمى للحب. في تلك المنامات كنت أبكي وأبكي، وأنا أسمع صوتا من جوفي ينوح أني لست عشتار ولا شهرزاد، ولا شيء.. أنا فقط امرأة أمريكية ضائعة.

لكن لم يخطر لي يوما أني ساصير امرأة مسكونة بكابوس. البلاد التي كانت مهدا لنوح، عشتار، تموز، ابراهيم، سميراميس، نبوخذنصّر، وهارون الرشيد والليالي العربية، هي التي أخرجها عالمي الأمريكي المدجج ورماها بين أشداق التنين.

بعيد تركنا بغداد وراءنا، أوقفنا حاجز عسكري. قرأ الجنود التصريح، نظروا إلى منوشي بفضول متجهم، فإلى ثيابي الخاكي، وأشار لنا أحدهم أن نمضي قدما.

مضينا قدما. التفت ورأيت عينيها غائمتين بالدخان ومتأججتين باللهب. لم تكن منوشي منوشي.

التفت إلى المقدم حمدان وراء مقوده، ورأيت وجهه فاترا سارحا. شكرا لله فعيناه كانتا خاليتين من الدخان ومن اللهب. وتسللت منوشي عائدة إلى حضني، حيث قبعت مغمضة العينين.

قلت لحمدان: "احك لي عن صلاح الدين."

التفت إلي بابتسامة ماكرة، ثم عاد وراقب الطريق. ظل مبتسما: "أنا مندهش كيف قدر هذا الرجل العاشق للحرية أن يخفي طوال ربع قرن .. أن يخفي عن الجميع عشقه لك."

قلت أستفزه: "تعني أنت تراه الآن ذا وجهين وجبانا؟"

نظر إلي نظرة مفترسة دامت دهرا. ثم نظر عبر الشجيرات، وشد ذراعيه، اللتين صارتا قضيبين صلبين مستقيمين، ثم قبض براحتيه على المقود.

قلت بخافق مرتجف: "هيا يا حمدان، أنت تعرف أني كنت أمزح."

قال: "أعرف. لو كان صلاح ما ذكرت، لرأيته الآن نائبا لرئيس الوزراء، أو رئيسا لأركان الجيش، أو رئيسا لجامعة على الأقل. الذي عنيته يا مدام أن حبه لك كان أسمى وأجمل من ان يبوح به لأحد. لم يسمح بأن يصير مادة لحديث الألسنة النتنة."

انطلق حمدان بالسيارة في صمت مديد.

.أمكنني هكذا أن أطلق عيني نحو الأرض التي سأرى في مكان ما منها صلاح الدين.

غير أن سلام عقلي كان قد أصيب بورم صغير. وعندما وصلنا إلى حاجز ثان، وهمت منوشي بأن تثب وثبتها تلك، كنت متهيئة تماما بحيث أخمدت حركتها داخل القماط. هذا النجاح الحاسم في معركة خاطفة، ولكن مصيرية بالنسبة لسلام عقلي، بدا وكأنه جعل الورم يتسع. وتعاركت منوشي مع يدي لتفلت، فانغرزت مخالبها في فخذي وشقت لحمي.

كان لا بد من إدخالها في قفصها البغيض.

أمكنني هكذا أن أرسل عيني نحو الأرض التي سأرى في مكان منها صلاح الدين. انطلقت بنا السيارة عبر سهول أخذت تفقد رونقها وألوانها بالتدريج، وتكتلح باتجاه البادية. أحسست بالورم يتسع في لحمي. لكني

كنت ما أزال قادرة على لجم أية لاعقلانيات محتملة. أما الصليبيون الجدد، كما أسمعتني BBC عبر ترانزستور صغير، فقد أوغلوا في اليوم الرابع من عملياتهم البرية التي سموها، ويا للعجب، "المجد للعذراء"! حتى عشتار خلقوا لها بديلا.

لحظة أخبرنا عسكري أن هذا هو الحاجز الأخير، أطلقت تنهيدة ارتياح وحمدت الله، رغم أن الورم كان قد تفشى حتى في عظامي.

الحاجز الأخير؟ نعم.

وبعدئذ الرمال، بعدئذ الصحراء.

هناك أحسستني واحداً من الكثبان الرملية التي ليست رملا. نصف كتلته فراغات ونصفها الآخر تائر. كنا في اليوم الخامس من عملية"المجد للعذراء"، لكننا لم نشاهد أثرا لحرب برية. كنا في ساحة القتال فعلا لكن معلوماتنا أخذناها من الترانزستور. أخرج حمدان خارطة وتفحصها. بدا خائفا ومشوشا. نظر إلى الصحراء كمن يحس بتهديد غامض. وبدا أخيرا كأنه حزم أمره، ولكن بنصف قلب، فقاد السيارة ببطء فوق شبه طريق.

انطلقنا في فضاء أخرس. بعد ما يقرب من ساعتين انتبهت إلى الأرض ترتفع من كل جانب. ولتوي رأيت صلاح الدين أخيرا، جاثيا وراء ذروة الهضبة، منتظرا وصولنا لنعيده إلى بغداد. كان داخل ملابس عسكرية بالطبع، لكن وجهه وعينيه لم تكن لها علاقة بملابسه، وكان لسانه أبتر.

قال حمدان: "وراء هذه التلة، يفترض أن تكون وحدة عسكرية قوامها ثلاثة أو أربعة آلاف رجل."

بالكاد سمعته. كنت أرى رجلا واحداً وليس أربعة آلاف. وكنت مذعورة من الخلخلة والفراغ في كتلتي.

على القمة تماما حيث كان صلاح، انفتحت أمامنا منحدرات ووديان، وحولها تلال تتلو تلالاً. اخذت منوشي تتخبط وتزأر في قفصها؛ فتركتها وغادرت السيارة. ونظرت أمامي إلى الوادي.

أنعمت النظر جيدا في القاع المنبسط السحيق. رأيت تلتين من الغرب وأخرى من الشمال مدروزات بما يشبه مضارب أو برّاكات. الحقيقة أني رأيت ألوانا وظلالاً أكثر منها أشكالاً وحجوماً. وقد امتدت الألوان والظلال من التلال الثلاث إلى فسحة الوادي، وهذه كلها كانت جثثاً.

قال حمدان: "ادخلي وخلينا نرجع."

سمعت صوت منوشي يفح ويزأر. وكنت واثقة من أنها توشك أن تفلت من بين جدران القفص. وسمعت صوت حمدان يصرخ طالبا مني العودة: "هؤلاء كلهم مقتولون! منظرهم سيقتلك!" غير أن الهواء الرطب لم يعد يسمح لي بأي التفات. في الفضاء الحائل انتشرت روائح بارود وخشب متفحم، ولحم منسوس، ومعادن ذائبة. ذلك كله وسط ضباب من الغازات العالقة بالهواء، يعبرها الهواء فيخلخلها قليلا ويبتعد. وللتو تسفعها الجوارح المحمومة المحوّمة.

حوّمت أنا أيضا بين الجثث. قلّبتها بعيني. و قلّبتها بيدي. انفلتت الأفاعي بينها، ثم بين قدمي. وقلبتها بيدي. هسهست ونعبت فوق رأسي الطيور. بعد مئة جثة، تعبت يداي. وكان قد بقي أكثر من ثلاثة آلاف. عدت أقلب الجثث بعيني. بعد خمسمئة جثة تعبت عيناي. لم أعثر على جثة صلاح. لكن الشظايا والشواظ عادت إلى الظهور. لم أعد أرى جثثا. صارت عيناي مثل عيني منوشي.

رحت أشهد ولادة التنين غصبا عني. ولما انتبهت كان قد فات الأوان على كل حيطة. بإحدى أذرعته اختطفني كأنني نفثة غازية. وعندما استقر بدني على صهوة حصانه، كنت مثل نثرة خامدة رغم حجمي الهائل. شظايا وشواظ: ذلك ما كانت ألسنته تطلق حول بدنه. مثل أطفال منهمكين في ألعابهم النارية السعيدة.

قلت: "إلى أين أنت آخذي يا قديسي؟"

اندفع بي نحو الأسفل. بلمح البصر جعلني أنساب الهوينى فوق فسطاط الجثث الشاسع والمركبات العسكرية المحطمة. رأيت كل جثة مرمية هناك: وراء مقود سيارة، على مقعد، بين دولابين، بين سيارتين، فوق باب سيارة متأرجح، على الرمل، داخل أجمة عشبية صَغيرة، فوق جثة أخرى، تحت هيكل سيارة...

لم يكن صلاح بينهم. لكن إقيائي طغى على اطمئناني الحزين. وتمتمت: "أربعة آلاف! أكان هذا الموت كله ضروريا يا جورج؟"

انقذفت بغتة عن صهوة الجواد وتدحرجت بين الركام والجثث. وسمعت الألسنة الملتهبة تزمجر: "أنت عمياء؟ بعد كل ما رأيت تقولين جورج!"

قال حمدان: "ما كان يجب أن تهبطي إلى هذا الجحيم." وقدم لي كرسي مركبة منخلعا. وضعت ساعدي على الكرسي. تلحلحت وارتكزت على ركبتي. نهضت نصف نهوض، ثم عجزت تماما. هويت بصدري على الكرسي، فارتكزت بمرفقيّ بدلا من صدري ورحت أتقيأ.

لم يكن في بطني غير الحليب والتفاحة اللذين تناولتهما في الصباح. غير أني تقيأت بعدهما صفراء معدتي. ورحت ألهث.

رفع حمدان رأسي ورشق وجهي بماء من إحدى مطرات القتلى. "يبدو أنهم ماتوا هذا الفجر .. على أبعد تقدير". وأجلسني. تمضمضت. وعلمت أن الورم بارحني فتلملمت روحي. راقبته وهو يفرغ البنزين من عدة مركبات، ويملؤه في جرادل وصفائح معدنية، ويضع هذه في السيارة.

سألته: "هل تظن أننا سنراه؟"

لم يرد مباشرة على سؤالي. قال :"إذا مشينا في هذا الاتجاه فلن نلتقي بغير ما التقينا به هنا، هذه وجبات نورمان شوارزكوف"، وأشار إلى الآلاف القتيلة، "لذلك سنسلك طريقا يكون فيه احتمال للحياة".

كانت منوشي نائمة ! وبعد أن جلسنا في السيارة أمسك حمدان بالمقود مطولا دون أن يشعل المرجل. قلت:" ما بك؟ " قال: " أعتقد أن شوارزكوف سبقونا إلى بغداد. "

قلت: "عندما أعود إلى سينت لويس سأقول للأمريكيين كلهم أن جورج بوش تعمد تدمير بلدكم. "

لم ينبض وجهه باختلاجة واحدة. كان تفكيره ما يزال في بغداد، وقال: "مع ذلك فهو سيبقي على رأس الأفعى. لن يمسه بسوء وسيحميه. قولي لهم ذلك. قولي لهم إنه سيظل يشتمه ويحافظ عليه". وأشعل المرجل.

بعد كيلومترات قليلة أحسست بحاجتي للأكل. أكلت موزتين وشربت حليبا. أمكنني هكذا أن أخرج من أناي وأفكر في الحرب. رأيتني مثل من تقوم بسياحة ولكن بين خطوط الموت المرسومة علىالرمال . أين أصوات المدافع وأين المدافع؟ وأين الذين يشهقون ثم يخرّون من رصاصة محكمة، أو يطيرون في الهواء من قوة انفجار قبل أن يموتوا؟ لا شيء من كل ما رأيناه في الأفلام الأمريكية عن فييتنام. مؤكد أن جورج بوش مخرج حرب من نوع حديث تماما.

قلت لحمدان: "أنت تعرف الأماكن المحتملة لتجمعات جنودكم ؛ خذني إليها. "

لم يرد علي. استمر يقود السيارة زمناً حتى خلت أنه لم يسمعني. كررت جملتي بصوت أعلى. وعندها غمغم:" لن تكون هناك أماكن تجمعات إلا من النوع الذي رأيت. "

نظرت حولي بهلع مباغت. وأردف هو:" هذه كربلاء جديدة. قبل ألف وثلاثمئة سنة، قتلوا هنا نسل رسول الله. واليوم يقتلون أمته. "

نظرت حولي . وإذن فإن صلاح الدين .. لم يعد ...

كانت السيارة تندفع فوق تحت بحسب تموجات الأرض. وشخرت منوشي شخرة مصحوبة برعد قاصف، وأخذت تغرف قضبان القفص بمخالبها، ترتد عنها ثم تغرفها. لطالما حيرتني الفظاعة والرعب من هكذا أصوات تخرجها أداه ضئيلة كهذه الحنجرة. التفت ورأيت عبرٍ القضبان أذرع التنين تنبثق من الفضاء. رأيت الحصان الأخضر مجللاً باللهب والانفجارات. والاثنان، التنين والحصان، يطاردان قديسي جورج. كان يهرب منهما في حركات روغانية يائسة. يتفادى مخالبهما وشواظهما بتخبط بهلواني مذعور. لم يبق من كراماته شيء سوى الصمت الذي التزم به. وأدركه أخيرا مخلب من المخالب وشق رداءه الأخضر في خط مائل على ظهره. سقط الثوب عن إليتيه، واستحييت من أنه لا يرتدي ملابس داخلية. رأيت خط الانهدام بين إليتيه واستحييت. لكن عيني لم تتحولا عنه. كانتا قد صارتا رهينتين. أيقنت أنني إذا صرخت أو جعرت فسيعني ذلك أن ما يحدث أمام عيني حقيقي. وأنا لم أقبل بأن أصدقه. وكنت أيضا موقنة من أن التنين يعلن بسعادة نارية عن ربوة من الجثث المطمورة في الرمل والإسمنت الطري، وبينها جثة صلاح الدين، مبتورة من عند الركبة، ربما، أو ربما مقلوعة العين، أو مشطورة الصدر .. تتقدم نحوي وهي تمشي على ركبتيها، وتحمل ساقيها بيديها، وتهتف لي: "بث، هاتي لي طبيبا يلحم الساقين بالركبتين. "

أمضيت هكذا حوالي ثلاثين ساعة. هل سيكتب العالم يوما عن بحيرات الجثث التي رأيتها في الرمال؟ وهل سينهض واحد من نسل العم سام ليصور بكاميرات متطورة رؤية بث تمبلر للجحيم؟بقيت مسكونة ثلاثين ساعة. أتطوح بين أقصيين: ثالوث غير مقدس مكون من منوشي والتنين ورؤيا جورج بوش للقيامة، ثم فراغ مطلق يغمره الصمت والذهول والخماد، هو أشبه باستراحة بين جهنمين. لم تكن فترة الفراغ

راحة حقيقية في الواقع. صحيح أن الجحيم لم يكن مستعر النار، غير أنه كان في داخلي .

لا في الأقصى الأول ولا الثاني التقيت صلاح الدين. أين أبحث عنه؟ أصغر بحيرة من الجثث، كانت أول بحيرة. أين أبحث عنه؟ بين أربعة آلاف فما فوق؟ لم ألتق بجندي واحد هناك على قيد الحياة ؛ فكيف أفترض أنه حي لم يمت؟

إنني أذكر الأصيل الحزين الذي وصلنا فيه فجأة إلى الطريق الدولي المسفلت بين العراق والكويت. على غير انتظار رأينا أنفسنا هناك - على بعد كيلومتر أو أقل. كنت في الأقصى الثاني، في حالة الفراغ والصمت والخماد. التفت حمدان نحوي (ليعاين حالتي العقلية ولا ريب)، وإذ وجدني ساكنة اقترح وجهه أن نمضي إلى الطريق. هززت رأسي بالقبول. ولأول مرة بكيت. أيضا بصمت وهدوء. لقد انتهى كل شيء. صلاح الدين يستحيل أن يكون حيا.

هز حمدان رأسه بارتياح:" هذا أفضل. "

نظرت إليه باستغفار: "هل كنت فظيعة في الأيام الماضية؟" فهز رأسه بالتوكيد. "فظيعة جدا؟" وهز رأسه. "إلى أي درجة فظيعة؟" قال وهو يدير محرك السيارة: "جننتني. "

بعدها صمتنا. ورحنا نقترب من الطريق. لقد رفعت أصابعي العشرة: صلاح الدين مات حتما. اسطورتي انتهت. الحب الذي غطيت بوشاحه القارات الخمس، حرقوه بالقنابل.

غمغمت لحمدان: "وأنت. ماذا حدث لك؟ ألم تتأثر بشيء؟ "

ابتسم بصفراوية: "أنا رددت عنك النساء العربيات. "

سألته بارتياب خامد: "النساء العربيات؟ عني أنا؟ "

قال بخمول: "تعنين أنت لم تريهن؟ "

قلت: "أرى من؟ "

التفت إلي: "كلما انطلقت إلى مقبرة للجنود، كانت واحدة أو اثنتان تنطلقان وراءك. وكنت أنا أنطلق وراءكن. لأمنع الأذى عنك .. أقصد من باب الاحتمال. نساء لا يحصين، نبقن من لا مكان وطرن إليك".

التفت إليه بتماسك: "نساء يطرن ورائي أنا !"

ابتسم دون أن يغيب تجهمه: "كانت أولاهن خولة بنت الأزور. وفي المرة الثانية ظهرت الخنساء. ثم زينب، وبلقيس، وزليخة، وهند، وكلثوم، وميسون، وزبيدة .. وكثيرات. لكن أكثرهن إلحاحا كانت امرأة عمورية التي استنجدت بالمعتصم. وكنت أصل في اللحظة الحاسمة لأمنع تحرشهن بك. وفيما أنت تقلبين الجثث بحثا عن .. عن الدكتور .. كنت أنا أحاول إقناعهن أنك لست زرقاء اليمامة. طبعا أنت لا تعرفين هذه الأسماء. "

قلت: "زرقاء اليمامة !"

قال:" المتنبئة الشهيرة في تاريخ العرب. وكن يسألنني: أليست هذه - يقصدنك أنت لأن عينيك زرقاوان - زرقاء اليمامة؟ ثم يبكين ويغولن طالبات أن أعرف منك هل قتل أبناؤهن أو إخوتهن أو أزواجهن أو .. حتى تلك المرأة من عمورية كلمتني في المقبرة الأخيرة، وكانت تبحث عن خليفة اسمه المعتصم ؛ ويا للغرابة !"

بعد كوابيسي اليقظة مع التنين، لم تفاجئني هلوسات حمدان. إن أمرا ما قد أنهك عقله، وترك صفراوية هامدة في وجهه. وما عدا ذلك فقد آثرت الصمت الذي لم يبق غيره بعد كل هذا الموت. ماذا أفعل؟ حتى لو أصابه الجنون فهو رفيقي الوحيد. عشرات من النساء، ولا أرى واحدة ! من الذي كوبست عليه هذه الحرب: هو أم أنا؟

من التراب إلى الإسفلت رأينا هياكل سيارات عسكرية محطمة من مختلف الأنواع. وإذ تقدمت سيارتنا الفولكسفاغن بمحاذاتها بحثا عن منفذ، نفرت أمامنا كلاب وضباع، وربما ثعالب وذئاب أيضا، وجأرت ونبحت وعوت.

نفذنا إلى الإسفلت. خط طويل طويل من الوسائط، بدايته في الأفق الجنوبي وغايته في الأفق المقابل. انطلقنا نحو الشمال. كل الوسائط كانت للنقل: شاحنات وسيارات. وكلها بلا استثناء جنحت إلى جانبي الطريق. ولا سيارة واحدة على الإسفلت. كأن صاعقة من نوع لا نعرفه في الطبيعة قد هوت، والشيء الوحيد الذي استطاعه السائقون للنجاة منها هو أن يجنحوا إلى التراب، حيث لاقتهم هناك أيضا.

رأينا الجثث أخيرا. ما بين أربع وعشر جثث في كل ناقلة. غير التي تشوهت على الأرض. الذين في الناقلات ماتوا فطسا. أو أن لحومهم انفلقت، فماتوا. كأنهم نفخت أبدانهم بمادة فالعة. وبعضهم مات برشات رصاص في رأسه وكتفه. جثث في الداخل. جثث فوق الهياكل. جثث على الأرض. جثث في كل مكان. والوحوش تنهشها. وكان عرض المشهد على كل جانب حوالي ثلاثين مترا.

كان لا بد بعدها من أن نرى تفاصيل أخرى، لكنها كانت من نوع لا يخطر على البال. أكثرها إدهاشا وحزنا كان التالي: كل سعة في ناقلة من تلك الناقلات حملت أداة ما من أدوات الحياة المدنية: غسالة، براد، طنجرة، مكواة، شافطة غبار، علبة كلينكس، علبة كوتكس، كرسي، براغي، مفكات، أسلاك كهرباء، مسجلة، راديو، تلفزيون، أنتين، إبريق شاي، مغرفة، حذاء، شامبو، بخاخ معطر، بخاخ حشرات، مفك، ملاعق صحون، مناشف، شراشف، مملحة، مبهرة، مروحة كهربائية، بطانية، كرسي، تربيزة، فرشاة أسنان، معجون حلاقة، صابون...

لم تكن هناك قطعة سلاح واحدة!

لم نصادف أية مشكلة مع وحوش الجثث. فمثلما اجتمعت، هي التي لا تجتمع قط، وتقبلت المضغ الجماعي للجثث، تقبلتنا نحن وقد أدركت بفطرة ما أننا لسنا منافسين في وليمتها. وكانت وليمة لم تسنح لهم خلال عشرين ألف عام مضى. مشينا الهوينى، وبعد أن كانت تجعر وتهرب

قليلا، وتعود إلى أماكنها في هذا اليوبيل، اكتفت بعد كيلومتر أو اثنين برفع رؤوسها برهة، لتعود فتنكب على قصعاتها.

مضينا ببطء، حوالي عشرين أو ثلاثين كيلومترا، بين المركبات والجثث والوحوش والأدوات المنزلية. غابت الشمس وأخذت تسحب وراءها ضوءها. لكن الضوء الذي تلملم على الأفق الغربي أخلى مكانا لضوء أخذ يلمع في الشمال. أمسكت بمقعدي بكلتا يدي.

تمتم حمدان منقطع النفس: "إنهم يحرقون النخيل". ثم غمغم: "قد يلتهم الحريق مليون نخلة".

كانت النار تزغرد وتصدح في الأعالي. هذه المرة كان الفضاء هو المسكون، وليس مجرد مخي. اقتربنا فاتسع أفق النار شرقا وغربا. وأيضا انحدر باتجاه التراب.

هكذا بدا الفضاء لنا: أرضا تلد براكين ساعرة.

توقفت السيارة فجأة. وأوشك رأسي أن يصطدم بالواجهة الزجاجية. "ما هذا!" هتفت مرتعدة. تمتم حمدان: "ساقية من النهر مسحوبة إلى هنا لسقاية الأراضي". قلت: "حمدان! هل يمكن أن نعود إلى بغداد؟ رجاء عد بنا إلى بغداد."

أطفأ المحرك وخرج من السيارة. لحقت به. توقف فقط عندما لامس طرف حذائه الماء. أمسكت بذراعه واحتميت بظهره. لأول مرة ينظر حمدان إلي بكراهية. طويلا وبإمعان. وأخذت انعكاسات النار على وجهه وعينيه تجمّد دمي. صرخت: "قل شيئا!"

مد يدين كليلتين باتجاه الترعة ودمدم: "ألا ترين؟ !"

رأيت. نيران النخيل أضاءت تلك الوجوه. بالكاد لمحتها. رؤوس طافية. وأفخاذ طافية. وجثث طافية. ينساب بها الماء هونا، يجنح بها نحو الضفة، تشتبك بالقصب وتقف، تظهر أخرى، ينساب بها من جديد.

التفت إلى حمدان بتوسل: "حمدان ! هل نحن الذين فعلنا ذلك؟ "

دون أن يرفع عينيه عن الترعة: "أنتم. النظام. ما الفرق؟ "

قلت: "ألا تعود بنا إلى بغداد؟ أتوسل إليك عد بنا إلى بغداد. "

هز رأسه بالموافقة: "اعطيني نصف ساعة لا أكثر. سأموت إن لم أر وجوها حية."

عدنا إلى السيارة. فإلى الطريق العام، حيث اضطررنا للسواقة ببطء، لأن قافلة من عشر شاحنات كانت تتقدمنا. لم يشأ حمدان أن يسبقها تحسبا لسلامتنا. تلكأ وراءها حتى وقفت، فوقف.

نظر إلي بارتباك خفيف. التفت إليه أترقب الكلام الذي سيقوله. تمتم: "آمل أن تعذريني." صمتُ ولكن صمتا متسائلا. قال: "بعد أن رأيت لوعتك وأنت تقلبين الجثث بحثا عن الدكتور صلاح، وتنوحين وتعولين، أدركت كم أنت إنسانة رائعة وصادقة. وأحببت مهمتي معك كرمى لك وليس فقط كرمى للدكتور. أحيانا ينفلت مني قهر وغضب فأكرهك لأنك أمريكية. أنت ما ذنبك؟ "

وضعت يدي على يده الممسكة بمقود السيارة. لم أعرف بماذا أرد. وضع يده الأخرى فوق يدي.

فقط عندما نزلنا من السيارة أحسست بحجم الإعياء الذي أصاب جسدي. لكني حمدت الله لأن مرحلة الأشباح قد فاتت.

تحركت قافلة الشاحنات. وبدا لنا أنها تتجه نحو وسط المدينة. كانت تمشي ببطء غير طبيعي. "انظري!" هتف حمدان فجأة. وأشارت سبابته إلى برميل قمامة نتأت منه قدمان تنتعلان حذاء عسكريا. "عسكري قتله الثائرون ورموه هنا."

قلت وأنا على حافة البكاء: "حمدان أتوسل إليك، خلنا نرجع إلى بغداد. أنا مريضة".

هز رأسه بعناء هادئ: " فقط سأرى بعض الأحياء. "

ومشى نحو الفولكسفاغن. تجرجرت وراءه. ركبنا.

في ساحة البلدة رأينا حشدا كثيفا من الناس. وقلت حمداً لله هـا هـو حمـدان يـرى أحيـاء كثيرين .حـوالي ألـف أو أكـثر، وقفـوا في جـانب. والشاحنات وعساكرها في الجانب الآخر. العساكر يخرجون كيسا محشوا من شاحنة، ينظر إليه أحدهم، ثم ينادي بصوت عال كأنـه يقـرأ كتابـة، ويتأمل الحشد. لا يتقدم أحد، فيعود ويقرأ الكتابة، إلى أن يتقدم اثنان أو ثلاثة. هؤلاء يمسحون أعينهم كأنهم يبكون. يحملون الكيس على أكتافهم ويمضون به خارج الساحة.

لكزت حمدان بضيق:"يوزعون عليهـم أرزاً؟ طعامـاً؟" لم يـرد علـي. واستمرت القراءة، والتسليم، ومغادرة الناس. لكزت حمدان مـن جديـد: "لماذا الناس حزينون هذا الحزن وهم يتسلمون الأرزّ؟ "

أمسكني حمدان بيدي وقادني نحو الفولكسـفاغن. قلـت: "لـن أتحـرك حتى تقول لي ماذا يعطونهم. "

قـال:" موتـى. جثثاً مرقمـة ومختومـة بأسمـاء. يسـلمونها إلى أهلهـا ليدفنوها. "

لم يكن قد بقي لرأسي وقت كي ألتفت إلى الخلف وأتأكد من صدق ما يقول. فلحظة التفاتي أغمي علي. ومثلما أخبرني حمدان فيمـا بعـد، لم أفق إلا في مستشفى في بغـداد، لأرى وجـه القنصـل الأمريكـي، الـذي حضر للاطمئنان علي، يبتسم ويهنئني على سلامتي.

١٠. بلقيـــــــــس

لم يكذبني حكماء مملكتي خبراً. جـاءوا إلي وأعلنـوا بكـل صراحـة أن سد مأرب قد ينهار عما قريب بسبب القوارض. قالوا إن هذه المخلوقـات الكريهة المنفرة قد جعلت تقضـم جسـده منـذ حـين بأسـنانها المدببـة الـتي بالكاد ترى.

هببت وهبت مملكتي معي لإنقاذ السد. جمعنا كل مـا في المملكـة مـن كلاب وقطط وأشرف جدي ذو ريدان على إطلاقها في أحـواش ومـزارع مسورة حول أساسـاته. جلبنـا خـبراء سـدود مـن بـابل وممفيـس. وخـبراء قوارض من دمشق وأوغاريت. جاءني المتطوعون للعمل مـن مكـة ودلمـون ونجد والجبل الأخضر وسائر أنحاء مملكتي.

إلى أن تمت إبادة القوارض. وأعلن حكماء مملكتي أن صرحنـا الجليـل بات في مأمن من عاديات الطبيعة. وصار بوسعي مـن جديـد أن أرتحـل في تلك الأنحاء وأرى الذيـن تشرق عليهـم الشـمس والقمـر مثلنـا. وبنفسـي قدمت لهم الشكر.

لكن سد مأرب انهار بعد مئة عام. كل ذلك الخير ضـاع وتبـدد لأن فأراً واحداً بقي في مكمن حصين فلم تطله جهودنا. وبعد أن انفض النـاس من حول السور وعاد من عاد إلى آرام ومصر وآشور انطلق هو على هـواه وأخذ يقضم السد.

كان جدي ذو ريدان هناك. راقب الانهيار الرهيب الطاحن للجدران الخضراء والاندفاع المدوي لسيول تتلو سيولاً. وصارت عيناه جزءاً مما يرى. خلال دقائق اندثر كل شيء.

غير أنه فاجأنا والمملكة في يوم حدادها السابع بكلام عن رؤيا غريبة وأصر على أن يعلنها أمام الملأ.

قال إن هذه المياه لن تذهب سدى. لقد غارت في التراب والرمل لكنها ستظهر بعد حين. هذه المياه لن يمكن أن تذهب سدى.

نحن شعب صنعته حقائق الحياة القاسية. لذلك طلبنا من جدي أن يفصل كلامه على قد الحقيقة.

قال ذو ريدان إن هذه المياه ستغور في أجواف الصحراء وتتصل بمياه الأعماق. ستلونها العتمة باللون الأسود. وغياب الهواء سيكسبها رائحة كريهة. لكن حصة العقل فيها ستظل كبيرة وسترتسم في كتاب يأذن الله بنزوله في مكة على محمد بن عبد الله ويكون كتاب الإسلام. أما حصة العرق والقلوب والطبيعة فسترتسم في سائل أسود يسمونه البترول يأذن الله في القرن العشرين بصعوده من الأجواف في سائر أنحاء مملكتي. وعندما يصعد سيبني سدوداً كثيرة أعظم من سد مأرب.

لم يستطع كلام جدي أن يعوضنا عن سد مأرب الذي انهار. طمع فينا الأحباش وهاجمونا. وطمع فينا الفرس وهاجمونا. تركنا سبأ إلى مكة، فإلى مدين، فإلى طيبة، فإلى صور حيث أهدى البحارة الفينيقيون جدي منظاراً عجيباً، فإلى الحيرة. وكنا في الحيرة عندما ظهر كتاب الإسلام. وكان جدي قد قاد جيوشنا في ذي قار وأذاق أعداءنا طعم الهزيمة.

مع اعتناقنا الإسلام صرنا جميعاً ملوكاً وملكات.

ثم حدث لمملكة الإسلام ما حدث لسد مأرب. انهارت سدودها واندثرت مياهها. ومن جديد طمع فينا الطامعون .. الصليبيون والمغول والعثمانيون والفرنجة ...

بين تلك القفار أقمنا ردحاً من الزمن. ظل جدي يتعلل بتحقق الجزء الثاني من رؤياه ويضع منظاره على عينيه ليعرف كم بقي على مجيء القرن العشرين وليتفحص الحجاز وحلب والحيرة والجبل الأخضر. "طالما ظهر كتاب الإسلام فلا بد أن يظهر كتاب البترول." أما أنا فأخذني الحزن بين أحضانه وهدهدني حتى غفوت.

نمت حقبة من الزمن. وعندما أفقت لم أجد أحداً يعرف كم من السنين امتلكني ذلك السبات. علمت أن جدي ذا ريدان مات وأورثني المنظار. وقال عمي ذو يزن إن جدي مات بعد زمن من مشاهدته شيئاً في المنظار جعله يتواثب في الهواء ويصيح متخلياً عن كل مهابته. كانت سبأ قد صارت بلدة صغيرة يسكنها ثلاثون ألفاً من الناس. وقام هو يخطب بينهم يبشرى كتاب البترول الذي شاهده في منظاره.

بدأ جدي يموت مذ دعا المنافيط إلى إعادة بناء سد مأرب فلم يلق منهم غير السخرية والإهمال. قالوا له: "نبني سداً ونحن نستطيع أن نشتري محيطات من المياه العذبة الصافية!" وقالوا له: "أنت شائب وخرفان! أية مأرب هذه التي تتكلم عنها؟ لم يعد هناك مأرب ولا مآرب". وقالوا: "أنت ألست تعيش في هذا الزمان؟ هذا هو القرن العشرون! وهذه البلاد اسمها نفيطية ألف، وإلى جوارها نفيطية جيم، وإلى جوارها نفيطية باء ... هناك عشر نفيطيات ... ما شاء الله." وقالوا إنه لكي يصير عدل وعدم اعتداء فقد قسمت مملكتنا إلى هذه النفيطيات.

أخبروه أنه لكي يتنقل داخل النفيطية التي يعيش فيها عليه أن يحمل ورقة اسمها بطاقة الهوية، ولكي يتنقل خارج النفيطية التي يعيش فيها عليه أن يحمل جواز سفر. فالنفيطيات دول مستقلة ذات سيادة ولا يمكن لمواطنيها أن يتنقلوا بدون تصاريح على الورق.

هز جدي رأسه برفض مطلق: هو يحمل ورقة تخوله حق الانتقال بين أرجاء مملكته بينما هو يحمل تفويضا بذلك من التاريخ وكتاب الله ! هذه التصاريح قطعت أوصال مملكته فهل يحملها ليمشي بها فوق أشلاء

الوطن؟ سيظل يتحرك في تلك الفضاءات بدون تصاريح وبدون أوراق وبدون حكومات.

لم يكن جدي يعرف أنه وهو الرجل الحر سيكون له أحفاد أرقّاء. وحتى لو عرف فإنه ما كان ليقبل بشروط التجنيس والتأسيس التي عرضوها عليه لكي يغدو "مواطنا" وذلك لأنه أحمق وقصير النظر وضحل الثقافة وإلا لصار مواطنا من الدرجة الأولى ومعه جواز سفر يعبر به أوطانا أخرى كثيرة في شتى أنحاء العالم.

جدي ذلك البدوي الهائم في ملكوته المترامي الأطراف لم يشعر يوما بحاجته إلى شاهد إثبات أنه من هنا. لا أقول إنه عشق الحرية لأن العشق يكون لشيء خارج كيانك .. وإنما تنفسها ودارت مع دمه. والذي تنقل بين مأرب وبغداد وبادية الشام وقصور الأنباط المهجورة عند طرف البحر الأحمر .. لن يقبل أن يكون دكنجيا ولن يغادر بحور الرمال اللغزاء إلى بحر الماء الشبيه بالسجن.

الحرية هي التي أملت على جدي مهنته. الحرية هي التي أملت عليه أن يختار جنسية الصحراء وسد مأرب. ويوم كانت الصحراء بلا أسماء كان جدي ملكا عليها وخليفة.

بسبب ذلك الموقف المتعنت وجدتني عندما أفقت إنسانة عادية حكم عليها جدها أن تعيش بدون تلك التصاريح ... أن تنتمي إلى سواد من الناس صار اسمهم "بدون": بدون هوية مدنية وبدون جواز سفر وبدون أية حقوق مدنية من النوع الذي تمتلكه أقلية من سكان نفيطية – هؤلاء الذين هزوا رأسهم بالقبول يوم هز جدي رأسه بالرفض. صرت كتلة بشرية في وطن لم يعد يعترف بي.

نحن الآن "بدون" .. يعني ليس لنا انتماء الحجر والرمل والأشنات والعرفج لهذه الديرة مع أننا كلنا ولدنا هنا .. لنا وطن لسنا مواطنين فيه.

واأسفاه: اتسعت النعمة فضاقت الأرض بأصحابها.

لكن الحقيقة التي أذهلتني تماماً .. حيرتني ودوختني هي أني وجدتني طفلة في العاشرة من عمرها! أعيش في بيت ليس بيتي القديم ذا الطوابق السبعة بل هو غرف متلاصقة تحيط بها أرض صغيرة معزولة بجدار عال! ويسمح لي بالخروج فقط من البيت إلى أرض الديار الصغيرة! وأذهب صباحا إلى المدرسة وأعود ظهراً إلى المدرسة. وهناك كانوا يعلمونني أن هذه الرقعة الصغيرة الضيقة التي ليست شيئا بالقياس إلى مملكتي هي وطني الذي لا وطن غيره ولا وطن مثله.

صرخت صرخة وجع وفجيعة: "أريد مملكتي! من أنا في هذه الديار؟ هذه ليست سبأي!" فأسرع أخي إلى وصفعني صفعتين صخريتين. نشبت في عيني بروق وانشهبت من رأسي رؤية وصور. نظرت حولي كأنني أفقت من سباتي للمرة الثانية. وفعلا كانت هناك أمي وأخواي وابن عمي سيف. ورأيت أمي تبتسم ... وسمعتها تغمغم: "الحمد لله! الجني طلع منها." واكتملت ابتسامتها إذ همهمتُ نصف باكية وضربت قدمي بالأرض احتجاجاً: "لن أذهب إلى المدرسة بدون شريطة أربط بها شعري! كل رفيقاتي عندهن شريطات يربطن بها شعرهن!" وانسحبت من بينهم ورجلاي تخبطان الأرض إصراراً على الشريطة. دخلت إلى غرفتي وجلست بين كتبي وقراطيسي.

بقيت في العاشرة من عمري إلى أن كان يوم ووضعت المنظار على عيني. وبغير إبطاء جعلت حاشيتي تفسح مكاناً إلى جانبي للملوك الذين جاءوا يسلمون علي ويقدمون ولاءاتهم. أزحت المنظار فرأيت عبر نافذتي أفواجا من البدون تسرح حول صحراء سبأ وتسوق قطعانها. وضعت المنظار ثانية فرأيت شعابا خضراء وقصراً أخضر وللتو ظهرت شهرزاد وسلمت علي. أزحته بهلع ونظرت إلى الديار لأتأكد من أني لم أجن فرأيت قافلة من الجمال يقودها ابن عمي سيف. قلت لنفسي هذا هو الحقيقي وخبأت المنظار.

سأقفز الآن قفزة كبيرة في السرد إلى تلك الطبقات الرسوبية في طفلة عرفت نفسها وهي في العاشرة .

الخروج من سبأ خروج من حالة العلّة إلى حالة البرء .. الضحك وكتابة الشعر . في سبأ أنا صندوق .. صدري ورأسي صندوق مقمط ببطانية القبيلة التي تحمي الرضيع الذي في داخله . . وبقماطات وأشغال إبرة لا عد لها. عندما أركب الباص إلى المدينة تنفلت الأقمطة. أحس بها تتسلل مني كشظايا خفية وتترك انتباها في عقلي وجسدي. شوارب إخوتي تغيب. لسان أمي القارص يهمد وراء شفتين مزمومتين. أعين الجيران تغمض أجفانها.

عالم الباص الجواني الصغير هو على طرف النقيض من عالم سبأ الفلكي اللامتناهي. بعضنا كأنهن يكبسن على زر كهرباء: بب! عتم!! بب! ضوء!! ما إن يلجن الممر بين المقاعد حتى يختصرن العالم البراني برمته ويلقين بعباآتهن وحجاباتهن على المقاعد. ومنا من تتريث قليلا قبل أن تخلع العباءة، ثم تنهمك في استخدام مكياجها المخبوء في شنطتها. وأخرى تعيد تسريح شعرها لتصير مثل ممثلة شهيرة. ومنهن من تبدل تنورتها المنسدلة حتى كاحليها بأخرى "منسدلة" حتى ركبتيها. وقد صنعنا لها بواسطة عباآتنا ستارة محكمة تفصلها عن سائق الباص الهندي الذي كان مجبورا على عدم الالتفات. كان وجوده مثل وجود جمرة بين أعشاب برية يابسة. وكان احتراق العشب يبدأ بخلع التنانير .

لا شيء يخلع لب المرأة مثل رؤية فخذيها عاريين. وكنا نفرح فرحا مثيرا من وراء ظهر السائق الباكستاني .. حرفيا من وراء ظهره .. نمارس شغلات الجن والشياطين هذه وهو لا يرى شيئا على الإطلاق وجاهل تماما بالسعادة والحرية والانطفار التي كنا نعبها عبا.

ومع ذلك كنا نلتفت إليه بلا انقطاع: بعد كل لحمسة على الفخذ العاري، أو قرصة للحم البكر، أو زعقة فرح ثاقبة، أو صهلة شبق نجلاء .. لنعود إلى اللحمسة والعصر والقرص .. وعارية الفخذين تتأيا وتتأوّى

وتتأوّد بيننا وبين أصابعنا وراء ستارتنا .. ونلتفت إليه لا خوفا فقط وإنما استمتاعا بخرقنا لتلك المخافة فالسائق الآسيوي ساعتها كان ذكور القبيلة .

أحسسنا جميعا أن عصر النفط قد حط رحاله في سبأ. وبعفوية مطلقة صممنا على أن نكون بناته.

طوال تلك السنين لم تنجح البنات مرة واحدة في جعلي أخلع التنورة رغم استمتاعهن بغوايتي وتشبيبهن بجمالي وجمال فخذي الطويلين. لم يعرفن أن سبب امتناعي العنيد هو حسي المفرط بقيمتي .. رغبتي الرامحة في أن أكون مختلفة .

كنت بذلك أتدرأ بحشمتي وتقواي من أية ظنون سيئة يواجهني بها أهلي. (أية ظنون؟ لماذا الظنون؟ هكذا. لم أعرف. ظنون وحسب. ما دمت أنا أنثى فهناك ظنون .. وهي ليست من صنعي. عرفت فقط أنني مثل إياغو عندما صرخ في مسرحية عطيل: أنا لست ما أنا.) وكنت في حالة رعب دائم من أن يكتشف أهلي أن أنا ليست أنا فينزلوا بي عقابهم الرهيب: ليس العقاب البدني الذي ما كنت لأعبأ به وإنما عقاب سحبي من المدرسة أو الجامعة وحتى (سحبي) من مجتمع العاقلين.

وكنت أيضاً أنفرد بمنظار جدي ذي ريدان وأضعه على عيني فأكلم تارة ذلك الذي آثر الموت على هويات النفط وتارة أكلم شهرزاد وزليخة وحتشبسوت وزنوبيا وسميراميس وشجرة الدر وكل جاراتي. لكنني ذلك يوم أنزلت المنظار عن عيني وبقي فيهما ذو ريدان. أغمضتهما وفتحتهما وبقي ذو ريدان داخلهما. نظرت إلى نفسي وإذا بي امرأة باسقة القوام وارفة الشعر والملابس وحولي ملوك وأمراء. خرجت من المكان الضيق إلى آخر فسيح يتسع لضيوفي فاعترضني رجلان وامرأة وأوقفوني. قال كبيرهم إنني عدت إلى تلك الحالة الغريبة والجن سكنني من جديد. مد يده إلى شعري ولفه حول ذراعه وشده تلك الشدة ففتحت فمي وصرخت ألماً. ولحظة صرخت بصق في فمي وانقشع من عيني ذو ريدان وعدت طفلة في

الحادية عشرة. أفلت أخي الأكبر شعري وقال لأمي بثقة: "لن يعود إليها ذلك الإبليس بإذن الله".

مر علي زمن لا أدري مقداره. من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت. ومن البيت إلى البيت. وأخواي يبيعان أشياء غريبة غامضة يأتي بها ابن عمي في أوقات غريبة غامضة. وابن عمي يجيء من دروب الرمال حاملاً كراتين وصناديق في الليالي الظلماء ليختفي بعدها عبر دروب الرمال. كان يجب ألا أعرف شيئاً لكي لا أقول شيئاً. فالتهريب هو منفذ العيش الوحيد الذي بدونه يموت البدون. بوسع ابن عمي وأخويّ أن يصيروا جنوداً أو شرطة لو شاءوا. غير أن حرية جدي السارية في عروقهم تأبى على الانضباط والطاعة.

كان الحوش العالم الأعظم لحريتي. وأيضاً جنتي الصغيرة. كل ما بوسع الصحراء أن تنبته من العرفج والهالوك والأثل والبمبر والفل والدفلى ... جئت به وزرعته في تلك التربة التي ليست رملاً ولا تراباً ... التي سميناها ' البادية' منذ عهد بعيد ثم أخذنا منها اسمنا.

" البدو" تعني أني سأتزوج ابن عمي سيف بن ذي يزن. تعني أن لي أن أنجب له أولاداً يشابهون أباهم فيصيرون مهربين. وأن أسدل على وجهي ورأسي نقاباً فيه فجوتان لمقلتي. وأن أسربل جسمي بسربال أسود يغطي الكاحلين لكي لا يشتهيني الرجال. وأن أمتنع عن رؤية الغرباء الذين هم أبناء ديرتي.

انتبه أخي الأكبر إلى جسدي. حتى بشفتيه المفتوحتين نظر إليه .. فصرت جليداً وصخرة. مد يده نحوي فجفلت ظناً مني أنه سيضربني ولكنه وضعها على ظهري وقادني كالماشية (بقي كتفاي مرفوعين) إلى حيث جلست أمي (أنا يتيمة بالولادة). قال: " أعتقد بلقيس حان لها أن تزوج"، قال لأمي. وبعد أسبوع لملموا حاجياتي في صندوق مصفح وجعلوني زوجة لابن عمي، الذي ظهرُ بيتهم ملاصق لظهرْ بيتنا.

أبرز شيء في ابن عمي كان وعيه الكاسح المسنون بأنه بدون. وكيف لابن عمي أن ينجو من قدر جد جده الذي كان جد جدي أيضا؟ عندما انتسب إلى الصحراء وكان في الخامسة عشرة لم يفعل أكثر من أن أخرج إلى العراء حقيقة كانت منطوية داخل روحه. من الصحراء أخذ جواز سفره وهويته وصار مهربا.

لم يكن دمه من النوع الذي يسيل وإنما يتدفق. ولأن هذا الدم أصيب بسوسة النفط ضاقت به سبأ وأفقها الأبلق وأرضها العجراء. وقد عنى النفط مزيدا من الفرص ومزيدا من المساحات يضمها إلى امبراطوريته ومزيدا من المهربات: الويسكي وعشيرته، الدخان وأشقاؤه، الحشيش وأولاد عمه، السلاح وقبيلته... لكنه لم يعن المدرسة وجواز السفر الورقي والراتب الشهري وبيتا مما تنشئه الحكومة لذوي الدخل المحدود.

أنا ايضا كنت مهربة. لكن ممنوعاتي التي حاولت تهريبها كانت غير ممنوعاته و لم تستطع الاثنتان أن تلتقيا قط. كنت أحاول أن أهرّب حجابي وأنوثتي ورخاوة بدني (عبوديتي وخوفي وضعفي) خارج عباءتي .. وأهرّب إليّ الحرية والحركة والقوة. إياكم أن تظنوا أني مقاتلة أو ثائرة أو متمردة مثل هدى شعراوي أو سيمون دو بوفوار .. أبدا. أنا امرأة لا تستطيع أن تأخذ شيئا بالقوة ولا تريد أن تنال شيئا بالحيلة .. وتشمئز من المخالفات المستترة وتحتقر نفسها إذا توسلت. وإذا كان "المؤلف" قد اختارني ليقدمني إليكم كشخصية استثنائية فسيدفع ثمن اختياره في نهاية هذا الفصل. فالملكات هن دائماً البساطة والعفوية. فقط آمنت أن عصرا جديدا قد دخل بلادي وأطلقت أشرعة روحي لاستقباله: ما دام بابا نفط قد جاء بالسيارات والطائرات والراديو والتلفزيون والمكيفات والساتالايت والمدارس والجامعة والحاسوب والفاكس والبيجر ... فهو لا بد جالب لي الحرية .. والحركة والقوة... ذلك كان عرشي الضليل.

عندما طلب مني تقديم بكارتي لابن عمي تركته يقشّرني حتى العراء وتركته يمددني على السرير كما تفعل كل امرأة في بلادي وتركت له

جسدي ليأتيه أنى شاء. جسدي لم يكن مشكلتي. وبعد عام ولدت قصيدة وسميتها "زواج": اغتسل / فشرّني / رش في عيني ملحاً / و/ بدأ // قرأ تعويذة في كل ركن / ارتدى شعري / أحكم عقده // خلاياه للحظة تنصت / لرعشة تتصاعد // تلد حلمتاي سحابات / زعفران يتساقط من إبطي // وهو يزرع حقولاً من الرؤوس الطرية / في مائي / كنت أبكي.

انتزعني الزواج من عصر النفط عامين. لم يكن ابن عمي راضياً عن نحافتي (رآني أشبه بمعزاة بيضاء وهو يحب النعاج) لكنه استمتع بي استماعا شرها ومنهكا. وفي اليوم التالي كان يتذمر من نحافتي ويهيئ نفسه لشهرين أو ثلاثة من الغياب والتهريب. وخلال السنتين حملت وولدت ابنتي الأولى التي لكونها أنثى شجعت أباها على تمديد غيابه شهرا أو شهرين آخرين. غاب عني عالم النفط وغابت المدينة والجامعة التي حلمت بها. لم يبق سوى آلام صور كنت أراها في الجريدة للمتخرجات السافرات .. اللابسات تنانير فوق الركبة في حضرة الخليفة .. ولمديرات المدارس الطليقات الشعور العاريات الزنود الواضعات ركبة فوق ركبة بحيث تنحسر التنانير عن رخامهن الرخو.

قد تقولون: أهذه هي الحرية؟ إبراز الأفخاذ؟ وأنا أقول: هذه قشرة ولكن عندما يمكن للمرأة أن تلبس فتكشف عن جسدها دون أن تصير فريسة أو زانية ودون أن تعتبر شيطانا يهدد سلامة عقل الرجال .. فهذا يعني أنها وصلت مرتبة الإنسانية .. وأن جسدها لم يعد حاضنة تفرخ صواريخ الغواية وغيلان الإثارة وتطلقها على رجال أبرياء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ويعجزون عن لجم حيوانيتهم المقدسة ولا يفكرون في تهذيبها .. فيجبرون المرأة على الانحشار داخل ثياب القبح والاختناق والتقزم لكي تظل وحوشهم راقدة.

كعادة أخي في توليف العنف مع الحنكة نصح ابن عمي أن يسمح لي بالعودة إلى المدرسة درءا لغواية الشيطان .. خاصة وأن الشيطان متخصص في غواية النسوان المتبطلات.

لقد عرف أخي أن ما يقاومه في شخصي نزوعات حمى نفطية تجتاح البلد وتلتهب في الأدمغة مثلما التهب النفط في المحركات. هذا البدوي نصف الأمي عرف أن المنع مضاد للحياة .. وعرف أنه يخوض معركة قيم خاسرة لكنه صمم على أن يخسرها بطريقته: إذا لم يكن من الحرية بد فلتمض باتجاه مدارس الحكومة لا باتجاه مدرسة الشيطان. زوجته التي قتلها بحوالي عشر طعنات من خنجره علمته أن أية جلابية من تلك الجلابيب السوداء يمكن أن تخبيء داخلها عشيقا .. إذا أرادت المرأة أن تخبئه.

ابتسامة عمي المريحة وهو يقود بنا سيارته أنستني أن أسأله السؤال الكبير: إلى أين نحن ذاهبون؟ دخلنا بلادا جديدة من صنع العصر الجديد .. شوارعها مضاءة بالكامل .. وأضواء ملونة سريعة تسير بتوتر على حافات اللافتات وتخطف بصري.

بدلاً من العودة إلى سبأ رجوت عمي ذا يزن أن يمضي بنا إلى قلب المدينة. لم يكن عمي كريماً إلا أنه شاء أن يدللني، خاصة وأن البنزين رخيص. تقدم بنا في شارع نافوط نفيطان. وبعد حوالي مئتي متر بدأت أرى أبنية غريبة وأغرب ما فيها أنها بدت لي مألوفة! قلت لعمي: "على مهلك يا عمي أرجوك!" فأجاب بحنان متحير: "أمهل من هكذا مستحيل. تضربني السيارات من الخلف. هنا الكل مستعجل."

كانت البنايات شيئاً آخر غير أبنية مدينة نفيطية: انتصابات كالرماح كل واحدة منها مؤلفة من سبعة طوابق وفي جدرانها حجارة زاهية وملونة مبثوثة بين صفوف الحجارة المطلية بالكلس. ولها شبابيك طولانية مرصعة بالزجاج المعشق. أقسمت لنفسي أني رأيتها من قبل وأني أعرفها طابقاً طابقاً وأعرف اختصاصات كل طابق في الحياة العائلية.

هتفت منبهرة: "عمي! هذه هي سبأ! هذه وليس سبأ التي نعيش فيها! أنا أعرف هذه البيوت .! أعرفها ! "

وكانت السيارة قد توغلت بنا داخل تلك المنازل. صار رأسي يدور مثل الخذروف لكي ينظر إليها.

قال عمي بنصف انتباه: "كيف تعرفينها وأنت لأول مرة ترينها؟! هذه تفيطية يا بنتي. ليست سبأ." هتفت وصوتي يغص بالدموع: "أليس هذا هو السوق؟" قال: "بلى". قلت: "هنا يشتري الناس ويبيعون من كل صنف ولون حتى إذا حان وقت الصلاة تركوا المال والذهب والمتاع على الأرصفة وفي الدكاكين المفتوحة وركضوا إلى المعبد يصلون! ما؟"

صمت عمي قليلاً ثم قال: "إلى المسجد يا بنتي لا المعبد. لكن هذا كان أيام زمان. أيام البلد كان اسمها سبأ. قبل البترول."

قلت: "ويبيعون بالدين لمدة عام أو عامين أو عشرة أعوام أحياناً فلا يأخذون مستنداً سوى كلمة الشرف! ما؟"

أطلق عمي تنهيدة تصبر وتحمل وقال: "كانوا يا بنتي، كانوا! الآن بعد ظهور البترول الدفع كاش."

ولكني كنت أراهم. فيما عمي يتكلم كنت أراهم: داخل دكاكينهم ذات الإفريز العالي عن الطريق والأرضية المنخفضة عنها، يبيعون ويشترون بموجب كلمة الشرف. ورحت أزغرد وأنا أصف لعمي البيوت والدكاكين وملابس الناس وعماماتهم، وهو مصر على أن ذلك كله كان في كاظمة أيام زمان.

وما كان منه إلا أن استعاذ بالله من شيطان ذلك المنظار الذي استوطنني وأدار السيارة عائداً بنا إلى (سبأ) وهو يشتم التلفزيون ومنظار جدي اللذين بلبلا عقلي وخرّطاه.

ذاكرتي الرطبة تتكور الآن ثم تنفلش وتتفرج عن مشهد آخر.

فما إن بدأت أدوخ لأول مرة وتجيش أمعائي حتى سارع سيف وأمي إلى رفع منسوب العناية بي بمعدل عشرة أضعاف. وهكذا تعين على عمي مرة أخرى أن يقلّني بسيارته إلى السوق لنشتري الحاجيات اللازمة للوليد المنتظر. وأمكنني كذلك أن أصطحب المنظار معي وأضعه على عيني متى شئت رغم توجسات عمي المكشوفة.

هذه المرة رأيت سيارة عمي مثلما هي: عتيقة ومقعقعة .. وتمشي وكأنها في حالة حرب مع الطريق .. وتعجبت من قدرة عمي على قيادتها دون أن تصطدم بعشرات السيارات دفعة واحدة. لكنها كانت مرسيدس وعمي فخوراً جداً بها. وقد أسندت على بابها يدي الحاملة للخمسين دولاراً فلم أحركها حتى توقفنا في الشارع الرئيسي.

وضعت المنظار لأول مرة في السوق واكتشفت ماذا يعني أن يتمتع الإنسان بنظره كاملاً !! بهرتني لافتات المحلات التي بدت لي واضحة وجميلة .. وإشارات المرور التي أصبحت محددة الألوان بشكل واضح بعد أن كانت ألوانها مجرد هالات باهتة. أما الأشجار فأصبحت خضراء .. خضراء جداً جداً والشوارع كما لو أنها مغسولة .. الدنيا كلها أصبحت في وعيي الصغير وكأنها مغسولة للتو .. السماء صافية .. والطيور ما أجملها وهي تطير بعيداً بعيداً ... والناس الذين يمشون على جانبي الطريق صاروا مغسولين وواضحي الملامح ... ولم أتعجب من قدرة عمي على القيادة دون أن يصطدم بخمس أو ست سيارات دفعة واحدة.

أحسست بموجة عاتبة تندفع من داخلي وتحملني غصباً عني. وسمعتني أقول: "رجاء عمي، خذنا إلى السوق العتيق". لم يكن متحمساً البتة. لكنه كظم غيظه من مزاجي وتقدم بنا نحو السوق.

لم يتغير الأمر عن المرة الماضية. رأيت الدكاكين نفسها والبيع نفسه. غير أني صمت فلم أنبس بكلمة أمامه. إلى أن رأيت أولئك الأطفال. كانوا يمشون في سلسلة واحداً بعد الآخر ورؤوسهم تحمل السلال. السلال التي كانوا يملأونها باللؤلؤ والعقيق والمرجان وكل ما اقتلعوه من مهاد البحر الأحمر ويقدمونها إلي وأنا متربعة على عرشي في قلب مدينة سبأ. لم يكن أحد ليتعرض لهم. وسمعت عمي يقول: "من هذا الطريق كان الأولاد قبل البترول يعبرون حاملين صناديق الذهب والألماس واللؤلؤ من الميناء إلى السوق فلا أحد يعتدي عليهم."

خيل إلي أن عمي يرى ما أرى. لكن نظرة واحدة إلى وجهه جعلتني أفهم أنه يتكلم عن زمن مضى. أما أنا فهتفت: "رجاء عمي. أريد أنزل هنا".

ركن عمي السيارة بين شجرتين في طرف الحديقة. قبل أن نزل منها قال: "انتبهي لكندرتك من الغبار والرمل". نزلت وكدت أشهق. هذه الحشائش الطازجة. هذه المروج والبساتين والحدائق والأشجار الخضراء الوارفة. مشيت ومشى الأولاد ورائي ورؤوسهم الصغيرة تحمل السلال الكبيرة ووجوههم تنضح بالسعادة لأنني أمشي أمامهم. وصلت إلى الدرجات السبع العريضات وعندما وضعت قدمي على أولاها عرفت طريقي تماماً. بعدها ارتقيت الدرجات الأقل عرضاً وأخذت هتافات شعبي تشق عنان السماء وأخذوا يحيونني وحكماؤهم يقولون لي: ﴿الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾. قلت: ﴿يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾. وقالوا إننا سنصدر اللبان والحجارة الكريمة والذهب إلى مصر والشام ونزود الفينيقيين بالسلع الغالية.

كانت نشوة ما بعدها نشوة. أثبت منظاري جيداً على أذني وأنفي لئلا يغيب شعبي عن عيني. ووافقتهم على اقتراحاتهم.

قال عمي: "استعجلي يا بلقيس. صارت صلاة الظهر". قلت: "عمي ألا تسمعهم يهتفون ﴿والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾ وأنا أجيبهم ﴿يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون﴾! ألم تسمعهم؟"

نبر عمي بضيق صابر: "ماذا جرى لعقلك يا بلقيس! هذا هو صوت المقرىء يأتينا بالمكروفون من الجامع. ! هذه سورة النمل من المصحف الشريف، ليست كلام الناس ! "

دخلت السيارة وأنا أبكي. بدا لي فجأة وكأن عمي وضع منظاري على عينيه، إذ راح يصف عهداً شبيهاً بأيام يبأ ولكنه ليس سبأ. "رحمة الله عليك يا المنذر بن ماء السماء. يوم ولدت يا ابنتي يا بلقيس، جمع شعب

هذه البلاد وقال لهم: أيها الناس، تريدون دستوراً؟ سيكون لنا دستور. تريدون مجلساً نيابيا؟ سيكون لنا مجلس نيابي. وديمقراطية، وحرية، في الصحافة وغيرها. رحمة الله عليك أيها المنذر بن ماء السماء. وبعده جاء النعمان، وكان استمراراً لأخيه. بحبوحة في العيش، بيوت للناس، ومداروس للتلاميذ، ومستشفيات للمرضى، وشغل لكل واحد. المنذر والنعمان. رحمة الله عليهما. وبعدئذ ... لا أعرف ماذا حدث. زادت أسعار البترول! نقصت أسعار الناس!"

تأملت عمي مصعوقة من هذا الفيض المباغت في عقله ولغته. لم أكن أريد أن أصدق أ كلامه صحيح، وأننا الآت جرفتنا الأقدار بعيداً عن المنذر والنعمان. وعدت أبكي.

راحت الرؤى وبقيت ذكراها. كنت مضعضعة الجسم ملتاثة الخاطر. أي سبأ هي التي يعيدني عمي إليها الآن؟ وماذا حدث حتى هويت عن عرشي وصرت بدون؟

في الليل أمست متعتي مراقبة القمر. مرة بالمنظار حيث يكون عبارة عن دائرة مرسومة التخوم وجميلة رغم بعض الخدوش الصغيرة على وجهه. ومرة أخرى بدون المنظار حيث يتحول القمر إلى هالة كبيرة فاتحة اللون ولكنها غير محددة الأطراف والألوان ... مجرد هالة ضبابية منداحة في فضاء رمادي غائم وبعيد.

مثلما كانت المدرسة والجامعة الشراع الذي حملني إلى جبل الحرية كان المنظار الإحداثيات الصحيحة التي بواسطتها شاهدت عهدي القديم. ولم أعد أستغني عنه أبدا! كانت خيطي الأبيض الذي رأيته إيذانا بأن أبدأ عند الفجر رؤية حقيقية.

في إحدى "زيارات" ابن عمي - وغالبا في رمضان حيث يمتنع عن التهريب - أدركت أن الله منحني بنفسه عافية العقل عبر منظار جدي. كان (عواد) ما يزال في بطني، لكن حبا مليئا بالهم نشأ بينه وبين أبيه: لم

تعد الصحراء مفتوحة مثل أيام زمان والدولة باتت تختنق المهربين، وهو يعرف أن المستقبل سيكون أسوأ وأخطر.

اغتنمت الفرصة لأشرح لابن عمي كيف أرى الحياة عبر إحداثياتي: البرلمان الذي ستتعزز سلطته إلى أن يفرض علاقات القانون بدلا من علاقات العوائل والعشائر، وجيل من الدكاترة على رأسهم الدكتور ربيع أحمد سيفرضون على الدولة تجنيس البدون وإعطاءهم مواطنية كاملة وحقوق انتخاب.

"قبل ثلاثة آلاف سنة كنت أحكم بالديمقراطية والعدل بين الناس. وأنا لن أهدأ ولن أرتاح حتى أسترد مملكتي. لن يقبل أحد أن تصير بلقيس من البدون. بابا نفط سيكون أبا لخمسين مليونا من الأولاد وليس فقط لنا نحن البدون. لا تقلق."

نظر ابن عمي إلي وكأنه للمرة الأولى يرى في جمجمتي مخا ينتج أفكارا. تفرس فيّ قليلا وهز رأسه بالنفي: "إذا كانت هذه أفكارك فأنت محتاجة إلى نظارات وليس إلى هذا المنظار الذي يمكن أن يفرط عقلك."

كان سبب الحصار المضروب عليه أن بعض كبار الدولة يريدون احتكار التهريب لأنفسهم وليس أنهم يريدون فرض سلطة القانون. أنا وربيع أحمدي هذا وكل الدكاترة مخابيل.. يهددون الدولة بالبدون ليثبوا إلى مناصب الدولة فقط لا غير. يريدون أن يقاسموا العائلات مليارات دولارات باباي النفط هذا. لا الدولة ولا الدكاترة سيقبلون يوما أن تصير مواطنين.

"أنا أقدر أني أعمل مهرب دولة! بحماية رجل دولة فوق فوق ويكون دخلي أضعاف أضعاف وحياتي آمنة من الخطر. ولست محتاجا إلى ربيع أحمدك هذه ليركب موجتي."

هتفت منطربة: "وماذا تنتظر؟!"

فرد بفتور: "هاتي لي شوية لحمة ورز وبصلة كبيرة. خبئي منظار جدنا عند أمك."

هتفت: "اسمعني شوية. بعد حين يصير عندنا ولدان. والله لأقتل نفسي إذا لم يحصلا على دكتوراه وجواز سفر وبطاقة مدنية مثل ربيع أحمد. إما اقبل الشغل مع الدولة أو اتركني أنا أدخل الجامعة وبعدها أشتغل وأعلم الأولاد."

مرة ثانية نظر إلي مستغربا أن يكون لي مخ ينتج أفكاراً ومتساهلاً في كون هذه الأفكار مهزوزة. قال: "أهل هذه الديرة لن يفرطوا في أولادي. أنت سمعت حكايات أبي وجدي عن أهلنا. هو وغيره كان يدفع أموالا لأشخاص لم يرهم في حياته.. واحد انكسرت تجارته.. واحد غرق مركبه.. واحد لم يوفق في صيد اللؤلؤ. لم يتخل أهلنا يوما عن مساعدة محتاج. لذلك هاتي هذا المنظار سأتركه عند أمك."

قلت: "خلص والله العظيم خلص. سأخبئه في قاع صندوقي ولن أستعمله".

فصلني ابن عمي عن إحداثياتي. مع ذلك أريد أن أكتب عن رؤيا. عن بلاد ملكت جناني برملها ونباتاتها القليلة الضئيلة وبيوتها الطينية. هذه الصحراء هي الوكن الذي أحب. وأشجار السدر والأثل والصفصاف والسمر هي الأشجار التي أحب. وشوك العرفج هو الإكليل الذي أحب أضعه على رأسي. وهذا البحر هو البحر الذي أحب. وهذا النخيل. وهذه الديرة. هنا حيث اغتسلت أمي بماء الورد والتفت الرمال بعباءة من قصب ثم أسدلتها على جسد أبي. أنني أفك جدائلي في ماء هذا البحر وأجعل جسدي امتدادا لخلايا الصحراء. ويشهق قلبي مهتديا بنجمتين. هذا هو وطني... منذ سد مأرب إلى عصر النفط...

وأريد أن أكتب عن أناس عاشوا حياتهم بين ستة وثلاثين سوقا للتجارة. لم تكن لديهم قيود ولا دفاتر حسابات. ذاكرتهم فقط هي التي نشطت كالحاسوب: ذاكرتهم الأخلاقية. هل كان أحد ينسى أنه مديون لصاحب ذاك الدكان؟ أبدا. مستحيل. كان يشتري ويمضي وبعد عام يدفع. وكان إذا نودي للصلاة ترك كل ما يملك على قارعة الطريق. أو في

الدكان أو الرفوف أو على الرصيف. ومضى إلى الجامع. ولم يكن أحد ليشكو من سرقة أو نهب أو اعتداء. لم تكن هناك شرطة. إلى أن ظهر النفط والغربة.

في ذلك العام أصدر الخليفة مرسوما خليفيا بحل البرلمان. انحل عقلي وبدني.

وإذن متى سأسترد مملكتي؟ وماذا أفعل في هذا الأبد من "البدونية"؟ لماذا؟ وأين سأجد مهجعا لروحي ومرتعا لقصائدي؟ وكيف سأستطيع الثبات على الحب فلا أتحول إلى الكراهية؟ من سيخلصني من المأزق الذي اختاره لي جدي؟

تمعنت في صورة الخليفة وخاصة في عينه الزجاجية. كوفيته البيضاء التي أراها منذ الطفولة غمامة تمطر فرحا وأبوة .. ثم العقال الأسود المستقر حول يافوخه .. بتوقيع واحد من الخليفة تقهقرت عيناي وصرت محتاجة مرة أخرى إلى المنظار. عاد إلي التضارب بين البصر والبصيرة.

سأقفز الآن قفزة كبيرة في السرد إلى زمن دخولي الجامعة.

أدرت ظهري لكل شيء ومددت خطواتي نحو الجامعة: العربية التي هي تخصصي الرئيسي والانكليزية تخصصي المساند. عام دراسي كامل جعلني أعب عباب الدراسة والعلم وأنقش الكتب على لحم عقلي وذاكرتي. فتحت مطاراتي لطائرات جميلة سعيدة تفرغ في مخي (الذي ازدراه ابن عمي) حمولتها من امرىء القيس وأبي نواس والمتنبي والمعري والجرجاني (المعري بصورة خاصة ورسالة "النكران" التي خاتل بها العقول الزجاجية) وشيكسبير وديكنز وإبسن وهمنغواي وإليوت وأسماء كثيرة كثيرة.

في تلك السنة انتميت مرة وإلى الأبد إلى قبيلة أخرى غير قبيلة ريدان التي فضلها جدي على العالمين. وقبيلتي هذه لم تتحرك أفقيا مثل جدي

وابن عمي بل شاقوليا، مثل حفارة النفط. الدكتور عربي كان من نبهني هذه المرة.

خلال عام كنت أعتبره الجَنبات الأخرى من الوادي التي تردد صدى عقلي ورؤاي. وقد أطلعته على صور كثيرة غير تلك التي تلتقطها الكلمات والكاميرات. وبأسلوبه الاعتباطي المألوف قال بالانكليزية: "عزيزتي، كان عربيا من قال: إن الحرية تؤخذ ولا تعطى. أنتم البدون عددكم حوالي نصف مليون. لكن الجيش والشرطة .. أداتي القمع في البلد .. منكم!"

بيد أنه بدلا من أن يعطيني نسخة من حقوق الانسان أو مبادىء الثورة الفرنسية .. أعطاني عددا من مجلة (بلييوي). قلت له ما هذا فأجاب: "منبع الأخلاق والقيم". "هذه مجلة جنسية"، قلت له بعد أن عاينتها بنظرة خاطفة ثم سحبت يدي عن غلافها كأنه ظهر أفعى.

كل الحق على زميلتي قطر الندى طبعا. لقد علمت علم اليقين أن لا نصيب لها بعلامة نجاح عند الدكتور مختار فحولت جسدها الفارع إلى جزرة مبشورة لماعة ولوحت بها لعينيه المزغللتين ولعابه الزارب. سمحت له بأن يضمها في مكتبه ويلثم خدها ويمسح بيده على ظهرها وخصرها ومؤخرتها (وليس على شعرها لأنها محجبة بحجاب أبيض) وحلفت له يمينا ويدها مبسوطة على مصحف يحتفظ به في مكتبه لمراجعات الطلاب أنها فور عودتها من مرافقة أمها إلى العمرة ستوافيه في شقته في الساعة الفلانية من اليوم الفلاني. وهكذا نجحت بتقدير جيد جدا في مقرر كان ينبغي أن ترسب فيه بتقدير جيد جدا. ومنذ ذلك الحين لم ير الدكتور وجهها. وفي العام التالي "تدبرت" مقرراتها الأخرى دون أن تضطر للتسجيل في أحد صفوفه.

صممت على ألا أكون مجرد تكميل عدد أو مساحة في كيان من الاسمنت والتكنولوجيا والبترودولار والوجوه الصقيلة. كان عمري قد بلغ اثنين وعشرين عاما وأنا لا أرى تجليات بابا نفط إلا في القصور والفيلات والنخيل الأمريكي والسيارات وحفلات الترف الهارونية. وعلمت أن المهم

بالنسبة لهؤلاء هو إقامة الهياكل العظيمة الفارهة وإهدار بابا نفط عليها بينما لا يخطر لهم أن قصائدي هيكل أملأ وأعظم لأنها مفعمة بأشواق البشر.

لذلك أعلنت عليهم الحرب. قلت لنفسي إما أنا وإما هم. وكان بين قرائي د. ربيع أحمد. دعاني إلى مكتبه في القسم وهناك أصلح من وضع كوفيته وعقاله على رأسه وقال إن في صميم قصائدي إنسانة متمردة وثائرة وإنه لسعيد جدا أن مجتمعا أنشأه النفط قد بدأ أخيرا ينتج الثقافة .. والجمال والحرية .. رغم تمرغه في الاستهلاكية والبشاعة والبطر. وقال إن وضع البلد لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية بلا برلمان ولا حكم دستوري حقيقي. وقال إن قيمنا الأخلاقية منخورة تماما بالعلاقات العشائرية ودولة العائلات. وقال إن مشكلة البدون ستحل حتما لأنها وصمة عار في جبين إنسانيتنا: "قبل أن يظهر البترول كنا كلنا شعباً طيباً واحداً. بعد عشر سنوات من ظهوره صرنا عشرة شعوب متناحرة. هذا اللامعقول لن يستمر".

وقال إنه في الشهور الثلاثة الأخيرة أقنع سبع طالبات محجبات بنزع الحجاب والمجيء إلى الجامعة سافرات. الجامعة فقط؟ الجامعة مبدئيا وبعدها يفرجها ربك. وماذا يحدث أعني ما الجدوى من نزع الحجاب؟ ولو ! الجدوى: توحيد الشكل والمضمون ! لا يمكن أن نعيش مضمون الحرية ونحن محتفظون بأشكال العبودية .

ومد أصابعه مرة أخرى إلى كوفيته وعقاله. لقد لخبطتهما هزات رأسه المنفعلة المتكررة، فسوى وضعهما جيدا حول يافوخه. ثم أخذت كاميرا لسانه تلتقط لي الصور بعد الصور حتى رأيت نفسي أجلس على المقعد الأيمن من بساط الريح الذي يقوده من ماركة كابريس كلاسيك ونحن في طريقنا إلى جريدة (النداء) لكي يفرض على رئيس تحريرها مكافأة بمئة دولار لكل قصيدة تنشرها "الشاعرة التقدمية بلقيس."

أردت أن أؤمن بالدكتور ربيع. وآمنت به. كل من تعشق اللغة العربية لا بد وأن تؤمن بالدكتور ربيع. كل شيء كان في متناول لسانه وطائرا على بساط الريح ذاك. وكنت أريد جواز سفر وبطاقة مدنية في

مملكتي الحديثة فجعلني أقرأ حصولي عليهما في سفر "البرلمان العائد بكتائب تدك جدران الخلافة. "

عشنا جميا توقعات صاخبة مجيدة أواخر الثمانينات. وحلت المضافات محلة قبة البرلمان المعزول فانفطرت البلاد ما بين الشعب والدولة. وكان في ذلك الحين أن قدمني د. ربيع إلى السيدة البهية أم حاتم: وقفت أمامها وأنا أرتجف من قماءتي وقلبي .. وفي الوقت نفسه أسدل على ارتجافي حجاب ابتسامة متعبدة. كانت جليلة.. باسقة.. كلها أغصان.. مليئة الأعطاف.. شاحبة الوجه شاردة العينين نحيلة الشفتين والعنق .. مهيمنة، على الأقل بكتلة جسمها التي لا شك أنها تعبر عن كتلة عقلها. كأنها هي الملكة وليس أنا. لم أجرؤ على وضع منظاري لأتأكد. فقد استلبتني. خفت إذا وضعته بحضورها أن أظل أراني جرادة في الصحراء. وبصوتها الهادىء المسحوب تساءلت لماذا لا أعمل محررة في (النداء) بدل أن أكون مستكتبة .

رفع د. ربيع أصابعه العشرة تعبيرا عن عجزه في هذا المضمار. وانطلقت من صدري ضحكة بكماء فتحشرجت في حنجرتي. وفهمت السيدة البهية أنني من فصيلة فقاريات البدون.

فركت السيدة البهية خاتم شبيك لبيك وإذا بي: محررة في الجريدة .. وتأتيني سيارتها إلىداري في التاسعة صباحا وإلى الجريدة في الثانية ظهرا .. ويأتيني بعد سبعة أيام جواز سفر على المادة 17 من الدستور. حقا كانت هي الملكة وليس أنا، وسبأ عاصمتها لا عاصمتي .

أياما وأسابيع والفرح الداحم بكنوز ماما أم حاتم يحوم مرتعدا حول قلبي فلا يتعدى تخومه. لم أسأل عن جواز سفر أم حاتم وهل هو مثل جواز سفري. كفاني أن تكون عندي أية وثيقة تنسبني إلى بلادي. أخيرا: هناك اعتراف ما بي إسألت فقط: هل سيسجنني ابن عمي عندما يعود ويعلم أنني "أشتغل" (وهي ممارسة تقل قليلا فقط عن المومَسة)؟ سألت وحسب: أبهذه السهولة حصلت على شارات مدنية؟

قبل أن يتاح لعربي أن يسخر من جواز سفر يملكه من لا يملك حقوقاً في الوطن والدولة والبرلمان وقيادة السيارة أو حتى فتح حساب في البنك أو حتى دخول المستشفى ..قبل ذلك أطبق علينا من الجهات الأربع جيش الحجاج بن يوسف (أكتب اسمه هكذا بإيعاز من "المؤلف" الذي يسعى من ورائنا نحن المؤلفين الفعليين إلى لعبة كبيرة معقدة يظن أنها سترتبط الحاضر بالماضي دون أن يقول لنا شيئا عن المستقبل. أنا شخصيا معجبة بالحجاج وأعتقد أنه كان شخصية فذة. وأحب فيه كل ما يكرهه المؤلف: أنه منذ القدم يضرب بسيفه الرؤوس العفنة والرؤوس الحامية والرؤوس المقلوبة، وأنه ضرب أسوار الكعبة بالمنجنيق فهدمها فضرب بذلك مثلا على أن المقدسات الدينية أشياء مثل غيرها ومجرد لعبة للمدنسات السياسية. ولست أدري لماذا تسكت الكتب والجرائد عن هذه المآثر فلا تعطيها حقها من التحليل والدلالة. [هل سيشطب "المؤلف" جملتيّ الأخيرتين؟] وأعتقد أن مجرد تشبيه "اللي ما يتسماش" به ظلم كبير له على الأقل لأن الحجاج أرسى دعائم دولة وشرّع القوانين، بينما هؤلاء المشبهون به فككوا الدولة باستبدادهم ووحشيتهم وشخوا على القانون. وفوق هذا فالحجاج شخصية وجودية وإشكالية وكان هم عقله الأكبر هو أن يسخر بالعقول الببغائية التي تستسلم لقال سيدنا فلان وقال سيدنا علان .. وأنه لا يوازيه في سخريته الجبارة من تسليط الدين على العقل والحياة غير المعري في (رسالة الغفران).

سأقفز الآن قفزة كبيرة في السرد إلى زمن الحداد والفاجعة .. زمن المرارات التي انفطرت. عن بلادي التي داست عليها سنابك الجنود وهي قلب ينبض فغدت برادة ألم. لست أدري كيف سيمكنني التعبير عن حالة امرأة فقدت بلادها. ناهيك بحالة شعب فقد بلاده. تحت الجلد يدب إحساس مهين وفظ بوجودهم الغريب مثل وجود الدود في اللحم، وأنت تحس به سابحا في دمك. لا الصباح يظل صباحا ولا الأعشاب البرية. والبرسيم الأصفر تشتعل فيه النيران. كل الأمكنة تغص بالعجز والحواجز.

الموكب اليومي لحياتك يتفكك. تفيق من نومك فتتذكرهم وتغيم الذاكرة. تخرج من بيتك فتراهم ويسودّ النهار. إنهم هناك .. أمامك .. هم وأسلحتهم ودباباتهم التي لا تقبل المناقشة. أعينهم تقول لك: نحن أخذنا منك بلادك، أخذنا أرضها وسقفها. وتكتشف أن السوق والباص والجامعة والشوارع .. لم تعد عباءة لك. لقد صارت كمائن. وطنك كله صار كمائن. وهؤلاء وحدهم يقررون لك كيف ومتى وأين تنتقل. أنت مطالب بالتبرع بوطنك لهم كي تتحقق آمالك الجميلة في وطن شاسع مشترك .. ويجب أن تفقد يسر حياتك ليعم الخير والعدل والحرية على بني عرب ويتحرر ثالث الحرمين الشريفين.

كل مسلمات حياتي غدت رهائن. قصائدي. عقلي. علي أن أفكر لا كما أريد أنا بل كما يريدون هم. وصورتي تختفي لتحل صورهم. وخصلة الشعر المتمردة تنصاع للحجاب خشية سبطانات ذكورتهم. أحذيتهم تحشرني في أوكارمنفى غريب كان البارحة بلادي وهو الآن يتدلى على جسر معلق.

سأضرب صفحا عن السلب والنهب والتهريب والتخريب واقتلاع شارات المرور .. وعن انقطاع الزاد والماء والكهرباء ... هذه ليست شيئا إزاء المرارات التي انفطرت وإذا بها ملوثة بقطران النفط وزفته وحممه. عصر النفط خرج من سماء النبوة التي منحتني صوري ومنظار جدي ومطارات شعري ودخل صحراء الغربة والغدر. دخل عصر البربرية والافتراس والدناءة. لطالما حسبت أنه مثلما تكرر المصافي تلك المادة المنفرة وتحيلها إلى خير للبشرية، ستقوم حياة جديدة وتصفو نفوسنا نحن أبناء البوادي والسهول من طبائع الغزو والافتراس.

بدلا من هذا رأيت وجه أمي المختوم بشمع الطفولة يخسر الطفولة وينحلّ في الشمع، والغروب يتشقق فيلوث بدمائه عباءتي، وأولادي يغتسلون بدمعي ويسألون: أين سبأ؟ أين الوطن؟

رأيت نساءً استضافتهن بلادي، اللواتي يتكلمن لغة القرآن مثلي ويتقاسمن خبز بلاد واحدة.. يقفن أمام أبوابنا ونوافذنا، أصابعهن على خصورهن الوسيعة وألسنتهن أبواق تفح في وجوهنا وعيوننا أننا سنذوق المذل الذي ذاقوه: أهنّاهم وسيهينوننا، جعلناهم خدما وأجراء وسيجعلوننا، عيّشناهم غرباء منبوذين وسيعيّشوننا .. سيبطرون ويتجبرون ويزرعون الحسرة في قلوبنا والحقد والوجع فالآن جاء دورهم ليدوسوا على قلوبنا !

وقد داسوا. فجأة وإذا اختيارهم للعيش في بلادي كل هذه السنين، والبحبوحة التي ينعمون بها بفضله، جريمة ارتكبناها نحن ويجب أن ندفع ثمنها: احتياجا للخبز، ارتداء للأسمال، تنظيفا للمراحيض، تشطيفا لبراز الأولاد، غسلا للأقدام، جليا للطناجر، صبغا للأظافر، تلقيا للبصاق، انحناء للرفس ....

ماذا لو لم يكن نسغ هذه الصحراء نفطا؟ هل كانت إنسانيتنا نحن الأشقّاء المتناهشين ستصاب بهذا الوباء من الحقد والضغينة؟ هل كانت وجوهنا ستسفر عن هذا السواد؟

لم أستطع أن أراهنّ. حدقت إليهن بعيوني وبمنظاري فلم أستطع أن أراهنّ. رأيت سديما أسود. جفلت. قلت: خذوا النفط كله واعطوني ابتسامة واحدة. لننس أن لدينا نفطاً ونتذكر أننا أبناء لآدم.

تشقق اللحم وتشقق سقف بلادي. الجاهلية العربية شربت حتى الارتواء من آبار الجاهلية النفطية. كل شيء كان بلا رؤيا، بلا حلم، بلا تراب، بلا جدائل. والدود قضم الشفاه التي يبست والوجوه التي اسودت والأعين التي انطفأت والأصائل التي أظلمت.

رأيت رجالا يقفون في نقاط التفتيش مع المحتلين الغاصبين. علقوا البواريد على أكتافهم وجعلوا يرشدون الغزاة إلى النساء والرجال الذين يقاومون الاحتلال. نزعوا البواريد عن أكتافهم فقط ليهجموا مع الغاصبين ويطأوا أجسادنا ويطأوها. ذلك السعار اكتمل بانفجارات الاغتصاب ...

نجي يا مؤلف هذه الرواية من حديث الاغتصاب ... في المشافي والمستوصفات أولا .. ثم في كل مكان آخر ...بلادي وطئتها أظلاف الوحوش ..... نجي من هذا الانحطاط الذي أوصلهم إليه بابا نفط ....

جدي ذو ريدان وابن عمي سيف بن ذي يزن: أخيرا انهارت امبراطوريتهما. هذه الفيافي كانت ملعبا أغبر ولكن حبيبا لهما والآن انتزع ملكيتها الموت والطاغوت. ثم جاء الأمريكيون ورفاقهم لينقذونا من الموت بالموت. ولقد رحبت بموتهم. أوه نعم رحبت. أنا التي لم أقف يوما بوجه عدوان صارت خصلات شعري مشانق وأزهقت بها مئة ألف روح ! أردت الغزاة كلهم والمتعاونين معهم أن يموتوا.

أي عصر هو عصرك أيها النفط؟ كان جدي ذو ريدان نبيا يوم رفض هويتك .

لم يستطع أحد أن يمنع صرخة الوجع. عاد ابن عمي وقبع في البيت كأسد فقد لبدتيه وزئيره. وبعد اسبوع استرد صوته: "من أين معنا كل هذا المال؟" (لاحظوا كلمة: معنا!) وكنت قد دخلت في حمأة الموت فلم أعد أعبأ بردة فعله. قلت: "كنت أعمل في الجريدة براتب شهري. "

بعد أسبوع آخر من غياب صوته قال ثانية: "روحي إلى الشيخة شيخة في الشامية وقولي لها نريد بواريد وقنابل وشوية ألغام ومتفجرات لنعرف شغلنا مع هؤلاء الجقلان. "

أبحت لنفسي لأول مرة في حياتنا أن أنظر إليه باستنكار فتفرس بي كأن لبدتيه عادتا إليه بحجم مضاعف. قلت: "لن أروح"، فصمت منتظرا أن أقول لماذا. صحت: "هم يترفهون ويبطرون في قصور الغرب وشاليهاته وفنادقه، وأنت تموت لأجلهم! لن أروح! "

" ابن عم الشيخة كان أول شهيد. رحمة الله عليه. ستروحين أو أنت طالق. روحي إلى الشيخة. نحن الآن ندافع عن البلد ."

لكنني وقبل أن أمضي إلى الشيخة سللت منظاري وأسبلته على عيني. ويا للعجب فقد رأيت الشيخة ! تلألأت أمام عيني مثل سد مأرب .. مثل

قمر مأرب. وأيقنت أن ابن عمي على حق. وقلت لنفسي قد لا أكون مضطرة بعد الآن إلى هذا المنظار فحلم جدي مرسوم على وجه الشيخة وعداً عندما تتحرر بلادي سنصير كلنا مواطنين بفضل البرلمان .

الآن أعرف أنهم جعلوا من المقاومة أسطورة. وأنا ساهمت في الجريدة بخلقها. كل بلاد الله عرفت المقاومة. وهي ليست شيئا جديدا في أي تاريخ. لكنها أمست عندنا أسطورة لأنها لم تكن منتظرة. لم تكن منتظرة على الإطلاق في أرض غادرها ثلث سكانها قبل الاحتلال وثلثهم بعده. هؤلاء اللاأشباء الذين لم يحجزوا سويتات في فنادق محررينا الأمريكان والأوروبيين أثبتوا ببساطة أنهم أبطال حقيقيون لا ينقصهم سوى الاعتراف .

أول تجليات الأسطورة صنعه أطفالي. منذ أن عاد والدهم من الصحراء حتى يوم التحرير لم ينقطعوا يوما عن التسلل إلى مخابيء أنشأوها في حوش البيت، ليكتب كل منهم على دفتر خبّأه هناك: عاش بابا الخليفة .

ثانيها كان زيارة الشيخة إلى بيتنا. نعم. فجأة وإذا الشيخة شيخة والبدون بلقيس تتعانقان. قبلتني وهي تلهث وتقول: "ليتني كنت حلوة مثلك". ثم صنعت معي الشاي وأصرت على تناوله مع الأولاد. رأيتها أختا حقيقية. لم تكن تمثل. لا شك أن أباها أحسن تربيتها. يا للطبع الرضيّ والنفس الزكية ! ثم انضم إلينا أبو فهد بشعره المنفوش وقلمه الذي لا يفارق جيبه. ثم غادرنا بعد حديث هامس قصير معها.

تخبأت الشيخة عندنا ثلاثة أيام. وكان اسمها يومئذ (خاتون). ثم اختفت. وبعدها ظهر ابن عمي وسألني إن كنت أكرمت الشيخة فقلت إن الانسان لا يستطيع إلا أن يكرمها. وكان معه خلائق كثيرة. عاملوني كسيدة. تأسيس وبيسري وتجنيس وبدون. كلهم. ودمدم ابن عمي في أذني مغتبطا:" شفت؟ المصيبة خلتنا نصير شعبا واحدا ! "

قلت بشرود: "غاب بابا نفط فظهرت إنسانيتنا البيضاء. يا للعجب!"

كلفوني بمهمات تموينية ثم اختفوا قبل أن أستيقظ لصلاة الفجر.

وعلمت أن الشيخة عملت لنفسها سبع بطاقات مدنية خلال سبعة أشهر الاحتلال، كل واحدة باسم وبصورة مختلفين .. وأنها زارت العشش برفقة ابن عمي، وتناولت الطعام مع ساكني البيوت الوضيعة .. وأن أبا فهد صنع أيضا ما شاء من البطاقات، له ولابن عمي، ولجميع المقاتلين، ليضللوا الغزاة عن الأسماء الحقيقية، وجعل من تلك البيوت "رئاسة أركان" موقتة للمقاومة، دون أن يفارقه قلمه لحظة واحدة.

وثابر أطفالي على التسلل خلسة كل يوم ليكتب كل منهم بمفرده: عاش بابا الخليفة .

بالنسبة لي كانت الأسطورة الحقيقية أن صورة العروة الوثقى التي رسمها ربيع أحمد تجسدت ! ولكن في غياب الخليفة والبرلمان والدولة كلها .. وربيع أحمد نفسه طبعا، الذي كان يطلق وابلا من لغته على المنابر الأجنبية .. تجسدت في اللحم والدم والبارود والخبز والسراديب والإغاثات والمساجد والبطانيات وأكياس الرز .. ومليون مكان وزمان وشيء .

وتجسدت في لحم ابن عمي وفقراته التي تناثرت .. ودماغه الذي اختلط بفروة رأسه وتصمغ على الحائط.

لا أريد أن أكتب عن هذا العذاب. لا أريد أن أكتب عن هذا الموت. رجاء. لن أصف كيف حوصر ابن عمي وأخي في أحد البيوت القايمة وقذفوا بمدفع دبابة. دبابة. وثلاث مجنزرات. وخمسون مدججا بالسلاح. للتخلص من بدويين فقط يدافعان عن بلادهما. لكن القصف تم بالدبابة. قذيفة محت الحائط من الوجود وأخذت معها ابن عمي. الصقت بقاياه على الحائط الخلفي. رأينا تلك البقايا المتضائلة وقلنا إنها بقاياه وبكيناها. أما أخي الذي مر الموت من أمام أنفه وشفتيه فظل بلا حواس مدة ستة أشهر وبلا عقل سنة كاملة. لا اريد أن أكتب عن هذا. ولا أن أتذكر. لا أريد أن أصدق. لا أريد هذه الصور ولا هذه المناظر ولا هؤلاء اليتامى الأربعة الذين تركهم لي ونسيهم الخليفة وتخلى عنهم ربيع أحمد.

لا أريد. سأتوقف وأضرب هذا القلم بذلك الحائط. انتهى.

رجاني "المؤلف" أن أتجرع غصاتي وأصل بهذه السطور إلى نهايتها. كم هو مضن أن تكتب لأنك تريد الوصول إلى غرض مبيت. لأن كل شيء مات بموت ابن عمي. رباه ! لم أكن لأعرف أني أحببته كل هذا الحب. إنه لا يمحي ولا يندحر. أربعة أخماس عمره قضاها وهو يخلّف آثاره على الرمال .. خارج البلد الذي قضى لأجله .. خارج حياتي وحياة أطفاله. وفي النهاية ترك لنا امبراطوريته ورحل. لم يبق غير نثائر شعره ودماغه المصمغة على الحائط .. هناك حيث يأتي ضيوف البلاد ليشاهدوا مثالا على مقاومتنا ! لم يبق حتى صورة.

ولكن بقيت امبراطوريته .. عروته الوثقى.

لا عيناي ولا منظاري استطاعت أن ترى هذا الرجل الذي كان حراً حتى الموت. سيفاً حقيقياً.

عندما أطفأنا الحرائق أخيراً وأبعدنا تلك السماء اللاعنة، عدنا إلى طور حياتنا الأول: البطر والانفلاش. فكأن رعب الغزو لم يحدث. ولقد غدا أضخم بكثير مما كانه قبل الغزو: فنحن لدينا الآن حائط مبكى: الغزو ! المعاناة ! التشرد ! الغدر ! وكل مقومات عاشوراء.

ما تزال القبيلة سيدة العقل والعمل .. سيدة كل الأدمغة المفكرة ..والخطابات "المسؤولة" تحت خيمة البرلمان، والصفحات المترعة في الجرائد. سيدة القصور الضخمة والسيارات الضخمة واللغة الضخمة والعلاقات الضخمة .... وخلال أربع سنوات لم يبق شيء ضخم لم ينشغلوا به.

بقيت فقط مشكلة جدي. وقد وجدوا أنها ضئيلة وقابلة للاضمحلال مع الزمن. وفعلا كانوا على حق: نصف هذه القومية التي هي نحن البدون ترك البلاد وهام على وجهه في بلاد الله، والذين بقوا تحولوا

إلى مئة وعشرين ألف "ملف" تنتظر مصائرها. وبعد أن فحصت الدولة ثمانية وخمسين ألف ملف منها، أعطت الجنسية لسبعمئة وتسعين شخصا.

تصوروا لو أن البدون صاروا مواطنين! ولو أن النساء صرن مواطنات! أي خلل رهيب وفوضى مدمرة كانا سيحلان بالتركيبة السكانية! سيكون ذلك بالتأكيد أفدح من غزو الحجاج بن يوسف. تصوروا بلدا تضاعف مرتين عدد مواطنيها المتمتعين بحقوق الإنسان ! مرة بالبدون ومرة بالنساء! هؤلاء يمكن أن ينتخبوا ويصيروا وزراء ويصيروا نوابا! تصوروا أن المرأة صار بوسعها أن تقول للرجل: "بيني وبينك البرلمان!" بدل أن تقول: "سمعاً وطاعة"! تصوروا أنه صار يتعين على بني تقدم وبني والإسلاماه وبني خليفة أن يقبلوا أنهم صاروا ربع السكان فقط وكانوا من قبل أربعة أرباعهم وأن يتعاملوا معهم على قدم المساواة أن يتخلوا عن ثلاثة أرباع دنياهم وثلاثة أرباع نفطهم لأناس فضيلتهم الوحيدة هي أنهم ولدوا في هذه البلاد ! إن أزنخ ما أطلقته الثورة الفرنسية من شعارات هو فعلا حقوق الإنسان هذه.

البدون والنساء كانوا سيشكلون أغلبية .. يملكون الأرصدة والبرلمان مثل التأسيس: ويصطافون في لندن ولاس فيغاس وسويسرة ..يملكون حق الحب والحرية والسعادة والعمل .. وكل ما يطيح بحقوق الرجال ذوي الدم الأزرق على البدون والنساء.

عرفت ماذا يريدون فكنت ما يريدون وفعلت ما يريدون. وعندما أقرأ قصائدي أتعمد اختيار أسلسها وأكثرها موسيقية وطنينا كي أطرب لتصفيق السامعين ومديح الناقدين: إنني فعلا بنت بلد وحداثتي الشعرية نخلة شمخت في الرمال. إنني أكتب شعري عن زمن مضى عندما كنت ملكة ولم يكن في هذه الديار ذئب واحد ولا محتاج واحد. عندما كان الناس يتبارون في المروءة والإيثار. كان الجميع سواسية أمام الله فصاروا متمايزين عند الخلفاء.

خفلة الحرية كانت تلبسني فقط عندما أدخل بيتا غادره إلى الأبد الإنسان الوحيد الذي لم أسترضه غضبا عني: ابن عمي: الذي رفض أن يبيع فانهارت امبراطوريته.

كل ما عداه يجعلني ابنة حلم قضى. كل ما عداه قوارض تغرز أسنانها الصغيرة المسنونة في لحمي ولحم أولادي وتنهشه تنفة بعد نتفة. سيف بن ذي يزن: هو وحده بحياته وموته يجعلني أتسلل بين الحنين والرؤيا إلى غرفته فأتناول منظار جدنا وأسبله على عيني. أستعيد الحلم الذي قضى. أبكي وأنوح على بلادي وعلى وعلى أولادي. وأسترد إنسانيتي. أنسى سد النفط الذي سينهار مثلما انهار سد مأرب. فقط هذا المنظار.

لقد أوحشتني أيام الغزو. يومها غاب ليل النفط فحضرت شمس الإنسانية. أنا مشتاقة إليها. إلى إنسانيتنا الكامنة التي علت وضاعت يومها. رأيت كم كان المقاومون أطفالا ومحبين وشهمين وشجعانا وإيثاريين .. رأيتهم قانعين بكسرة الخبز التي تصلهم عبر شبكات المقاومة. فتحوا صدورهم للموت كأنهم يفتحون لأنفسهم أبواب الجنة وفتحوا قلوبهم للحب. ذكروني بعصر ابن الخطاب وبجنود خالد وأبي عبيدة. كانوا بشرا وحسب. بشرا.

وأما الآن فأنا أرى الهياكل الباذخة وأخاف. أهلي مهددون. النفط يهدد حبهم للحياة. إنهم لا يصدقون هذه الهياكل ولا ما يجمعونه فيها. من عالم الطفولة والأسواق الآمنة بقي لهم الخوف والضعف. يعرفون أن سمو روحهم وأمانتهم وحبهم للغريب غادرتهم يوم جاءهم النفط. ديمقراطيتهم قناع أبيض هش أقاموه بوجه الوحشية الأسود. ديموقراطيتهم التي يتعربشون عليها هي أن أحدا منهم ليس قويا بما يكفي للاستبداد بالآخرين وليس ضعيفا بما يكفي ليستبد به الآخرون. لذلك صارت الوقاية من الخوف بالنسبة لهم هي: إلى أية درجة يمكنهم أن يتحشوا في الثراء وخلال كم من الأيام .. عبر كم من البيوع والصفقات.

لقد حررتهم الحرب ولكن مم؟

١١ . أفـقـــــــــــزاد

دخلت الغلاف الجوي لكوكب البشر في مجرة درب التبانة. أحسست بكيمياء مختلفة تسري وتضطرب في أمواجي الكونية. ثم ألفيتني أتهادى في ذلك الفضاء وقد اكتسبت شيئا من عضوية الأرض.

لم يصعب علي تحمل الغازات والطقس كله. والجسيمات والأصوات والروائح. لا شك أن عضوية البشر الناقصة قادرة على تفاعلات جميلة. لقد لمست ذلك من قبل، عند أبي الفتح.

لم أعرف أي شكل أرضي أختار لأمواجي. جعلت نفسي طائراً، لكنني خفت من الصقور التي يطلقها بعض البشر في إحدى رياضاتهم المعوجة. شاهدت حشداً من العظايا والسلاحف، فامتلأت بالتوقعات الجميلة. قلت: هكذا ألتصق بالأرض. وجعلت أمواجي عظاءة. لكنني خفت أن تدوسني الأرجل، وانتابني إحساسان بشريان قاسيان هما الدونية والقذارة.

رأيت أن خير ما أفعله هو أن أرتسم في هيئة إنسانة. إذ من سيجرؤ هكذا على النيل مني في هذاالكوكب الذي خصصه الله للبشر؟ ولم أكن قادرة على تجسيد الخطوط والتقاطيع والأعضاء، فاندرجت في شكل مبهم بلا ملامح متحددة.

شممت رائحة النفط في نبع الصحارى. قلت: الحمد لله أن هذا الغثيان غير موجود في مجرة أندروميدا. وقلت: إذن ههنا خليفة أبي الفتح الذي جعله يتزكى ويعود. هبطت على مهل. ثم طرت أفقيا.

رأيت أنتينات تلفزيون على أعمدة من الآبنوس، بين خيام من الحرير والدمقس منصوبة قرب قطيع من الجمال وبعض الكلاب.

سمعت أنغاما حزينة. امتدت مع نبرات بشرية من جهاز ستيريو خارق الترددات.

اقتربت. رأيت أعرابياً متمدداً على الرمل يعتصر أرزاً مطبوخاً بأصابعه وراحة يده، ثم يقذفه داخل فمه، ثم يلحس أصابعه وما بينها، ثم يعود فيعتصر أرزاً. إلى جانبه امرأة ترضع وليداً. كانا غارقين في الملابس.

لم أفهم خلطة الأشياء هذه.

داخل أفق أبلق، فوق أرض تركض، رأيت قامة جسيمة تهرول على عربة مدولبة، وعينها تستجير من الهجير. العين الأخرى كانت بلقاء يابسة.

سمعته يهمهم: "تلقفوها يا بني عمي فواللات والعزى ما من جنة ولا نار". ثم سمعته ينشد:" لعبت هاشم بالملك فلا/ رسل جاءت ولا وحي نزل."

رآني فشهقت عينه وحنجرته. طفح الخوف المسترسب على وجهه. لكن الفضول جعله يحملق في "كتلتي". أما أنا فأشرفت عليه من علو قامتين.

استطاع أن يتنفس أخيرا. همهم: "هذا مستحيل! الملائكة كلهم ذكور!" وسقط رأسه على صدره، وغمغم غير بعيد عن البكاء: "أنت تهزأ بي يا رب؟ ملاك أنثى!" ثم أنعم النظر إلي ودمدم: "وبلا ثياب! وتفاصيل جسمها مفقودة!"

قلت: "من أنت أيها الإنسان؟" فرد علي بلا اكتراث: " أنا الخليفة."

قلت بلهفة: "أنت عمر بن الخطاب؟" نظر إلي وأصابعه معقودة بين ركبتيه. قلت: " أو لعلك علي بن أبي طالب."

دحرج عربته المدولبة نحوي. تدليت من أفقي الأعلى حتى صرت قاب مترين أو أدنى. قال: "لا هذا ولا ذاك. أنا الخليفة ."

قلت بامتعاض: " أليس لك اسم؟ "

فزفخر مثل من ناء بحمل ثقيل: "لي ألف اسم واسم. منذ القرن السابع وهم يسمونني".

قلت بنوع من الدعابة: "أنت الذي حكت شهرزاد حكاياتها عنه لشهريار؟ "

أدار رأسه جانبا بابتسامة نافدة الصبر: "شهريار يعمل في خدمتي. رئيس جهاز المخابرات والمطوعين عندي".

هتفت بفرح بشري: "رباه! إذن شقيقتي شهرزاد عندكم ! "

رغم أن له عينا واحدة فقد جعلني الخوف الذي انبلج منها أضطرب. قلت: "ماذا دهاك؟ "

قال: "إذن أنت لست ملاكة. أنت جنية، وتآخيت مع أنسية. جئت تعيدين العبد مسعود للحياة كرمى لها؟ "

قلت: "لا أفهم الكلام الذي تقوله. لكن سبب مجيئي هو أني اكتسبت من زوجي السابق بعض صفات البشر. الحنين مثلاً والولاء. والإيثار. لكن أهم شيء اكتسبته هو الذاكرة. نحن في أندروميدا ليس عندنا ماض ولا مستقبل. عندنا أبدية مستمرة. وأبو الفتح جعلني أكتسب بعض صفاتكم ...."

صاح: "أبو الفتح ! تعنين فتحائيل نفسه؟ رئيس جهاز العقول عندي. "

كتمت غبطتي لوصولي إلى أبي الفتح وأعلنت دهشتي من كلام الخليفة: "ما هذا؟ جهاز مطوعين ! وجهاز عقول ! وكلهم يشتغلون عندك؟ "

علوت في الجو بلا إبطاء واتجهت إلى حيث يمكنني لقاء شهرزاد و أبي الفتح .

صاح الخليفة: "انتظري ! ما دمت لست ملاكاً، إذا لم أدلّك أين يوجد فتحائيل أو شهرزاد، لن تجديهما . "

ناديت بلهفة: "سأجدهما. بمجرد التقاطي لذبذبات صوتيهما، أعرف مكانيهما وألتقيهما. "

فطاردني في الفضاء صوته المتوعد الساخط: "لا تظني أنك قادرة على الإفلات من أجهزتي ! شهريار والتكنولوجيا أقوى منك. كل مخلوق على وجه الصحراء يخضع ...."

اقتربت من المدينة. راودني الإحساس البشري بالخوف. لم يكن هذه المرة عذبا بل كان كدراً. لم أخف من تهديد الخليفة. كرهت فقط أن تبدأ زيارتي لكوكب الأرض بسوء تفاهم. لذلك عدت إليه.

شهقته بالفرح جعلتني أفرح بدوري لكوني اتخذت قراراً فيه إنسانية.

" تعالي أريك الغار الذي أتعبد فيه"! هتف، والفرح الطفولي يترقرق في وجهه .

ترددت. لكن خاصية البشر في المجاملة غلبتني (كم هو قوي تأثيرك علي ياأبا الفتح!): بعد كل شيء هذا هو الخليفة، وهو سعيد بعلاقة خاصة أقامهابينه وبين الله. ونحن في أندروميدا، لكل منا علاقة خاصة با لله. مشينا معا. وبعد منعطفين وربوة، شاهدت طائرة شبه دائرية تعلوها مروحة، ثم دربا قادنا إلى الغار .

كان الغار مضاء بكهرباء خافية في زوايا منتشرة بدقة بديعة. وفي انفساحاته توزعت الرياش والطنافس بطريقة لا أستطيع وصفها. ومن بين حبات رماله البيضاء النظيفة انسربت الموسيقا الخافتة، وامتزجت بروائح الند والصندل. وقفنا عند منخفض دائري يتوسط مدى من النجوم المتناهية، وتصدر عن نقاط صغيرة فيه لمعانات خاطفة ولكن هادئة.

قال الخليفة بشغف وقور: "كم إن هذا المكان يصلح للحب !"

لم أفهم مراميه، و لم أكترث. قلت: "ما هذه اللمعانات؟" فأجاب: "هذه أزرار، اضغطي على أي منها يأتيك المشروب الروحي الذي تحته."

قلت: "أنتم تقدمون لأرواحكم مشروبات؟ كم إن هذا رائع!" فاضطرب قليلا ثم ابتسم، وخفق في عينه المينة شيء من الحياة. "يجب أن أقول لك"، هتف وعينه هذه تزداد حياة، "إنني في الغار أصل إلى حالة من الوجد والروحانية تستطيع فيها حتى عيني العوراء رؤية الله."

قلت ببساطة: "هذا شيء جميل."

قال: " أنا أتبع نصوص محمد بالحرف، رغم إيماني أنه لو عاد إلينا الآن لالتمس من الله تعديلا لها. وكان الله سيوافقه على هذا التعديل، مثلما وافقه على تخفيض الصلوات من أربعين يوميا إلى خمس."

قلت بحيادية: "نحن في أندروميدا، لا مشاكل لدينا ولا خلافات. لذلك، لا ديانات ولا أنبياء. نؤمن بالله وكفى. من غير طقوس وفرائض"

قال الخليفة بدعابة مفاجئة: "وليس عندكم طقوس للحب أيضا؟"

نظرت إليه دون أن أفهم. قال: "لا ترهبك كتلة جسمي الضخمة. أطبائي الأمريكيون مطمئنون تماما إلى صحتي."

قلت وقد فهمت: "لن يكون هذا حبا. ليس في نفسي أي خلجة تجاهك."

قال بموضوعية: " أتمنى أن أنام مع جنية. في حياتي لم أنم مع جنية. طيب. تعالي أريك مملكتي."

قبل أن يدحرج عربته المدولبة، تفرس بي طويلا. أخيرا تمتم: "كلماتك الغافلة عن الخلجات لخصت مأساة حياتي في هذه الديار. أجمل نساءالعالم ملك يدي. وأنتقل من واحدة إلى أخرى كما أنتقل من جثة إلى جثة."

دخلنا الحوامة، كما سمى الطائرة الصغيرة، وانطلقنا فوق الصحراء. كانت بطيئة بطئاً مضجراً. لم أفهم شروح الخليفة عن الأشياء التي جعلني

أراها. مجمع قصور سماه (الإصطبل الأول)، يضم أربعة قصور لزوجاته الحاليات، واثنين وثلاثين لخليلاته، وسبعة وثلاثين للأمراء الحميمين من أسرته وأبنائه. مكان آخر سماه ' الإصطبل الثاني ' ؛ وحكى لي عن ستة وخمسين حصانا جاءت بالطائرة من سائر أنحاء الكوكب الأرضي، تقضم القش الواصل من إيران بالطائرة، والشوفان القادم من باكستان بالطائرة، وتلقى الرعاية من أربعة عشر سائساً قدموا من بلاد الباتان، وعلى رأسهم سير هيو بدستيد فكس القادم من إنكلترة بالطائرة.

قلت للخليفة: "واضح أنك تحب ركوب الخيل."

فهز رأسه بمغفرة: "إطلاقا. وكما ترين، وزني 120 كيلو ولا يقدر حصان أن يحملني."

نظرت إليه مستفسرة، فقال: "ولو ! خيولنا تراث ! ألم تسمعوا في أندروميدا بالجواد العربي؟"

لم يثرني شيء من ذلك. رأيت عوالم الخليفة الخاصة كسائحة غير قابلة للانبهار: قصوره، يخوته، طائراته، متارفه، مع محتوياتها من النساء والمشروبات 'الروحية' والندامى والأثاث الفاخر والزخارف البديعة ... رأيت يختا طوله مئة وسبعون مترا، فيه قاعة تتسع لمئة مدعو، ومسجد وبار، ومقصورات لا يخترقها الرصاص، ورشاشات مضادة للطائرات، ووحدة عناية مركزة، وحجرات تكفي لستين ضيفاً وضيفة ... رأيت طائرة فيها عرش دوار يبقى متجها نحو الكعبة في مكة بصرف النظر عن اتجاه الطائرة نفسها ... رأيت سيارة طولها ثلاثون متراً، فيها حجرات نوم، طوت بنا الفيافي والقفار أثناء توزيع الخليفة أكياس المال على رعيته ... ("ماذا أفعل؟" قال لي، "يجب أن أقاوم الضجر.") رأيت قصراً قال إنه مطابق للبيت الأبيض الأمريكي، وآخر للكرملين، وثالثاً مثل الإليزيه الفرنسي، ورابعاً مثل بكنغهام ...

ساءلت نفسي: أهذه هي اهتمامات الخليفة !

قال: "لي قصور مثل هذه في سائر أنحاء المعمورة. أغالب بها الضجر. إلا في الصين. هؤلاء الشيوعيون الكفرة لم يسمحوا لي ببناء قصر في بلادهم. مع أنهم كانوا سيستفيدون كثيرا." والتفت نحوي بحنان وضعف بشري حلو: "كنت أتمنى لو أعيش في سان فرنسيسكو أو هونولولو. لكن ماذا أفعل؟ ضريبة كتاب النفط هي أننا يجب أن نعيش في الصحراء. اليس عندكم ضجر في أندروميدا؟ "

بدأت أهتم عندما جعلني نفيطان (هذا هو آخر أسمائه) أرى مشاهد مختلفة. قال إن مملكته هي أكثر بلدان الكرة الأرضية أخلاقاً وتمسكاً بتعاليم الدين الحنيف. ثم أعلن أنه سيترك الحديث للحدث، ولن يتفوه بكلمة أخرى. فقط قادني إلى غرفة غريبة في أعالي الإصطبل الأول، مطلة على (ميدان العدالة)، الذي يتوسط مجمع القصور وجامع العزيزية. كان الناس يخرجون من المسجد ويتقاطرون نحو الساحة بلا عجلة من أمرهم. كلهم بلباس الخليفة، وبهدوئه ايضا، وبمعرفته أن شيئاً هاماً سيحدث بعد حين. وهذا ما منحني حساً لطيفاً بالعدل. فرغم أن الملابس ابتداع بشري سخيف ومضحك، وخاصة عندما لا يتطلب الطقس ارتداءها، فقد اشارت إلى المساواة بين الخليفة ورعاياه.

دخلت الميدان سيارة من رصاص. على سطحها بوق يصيح ويعلن عن موت مرتقب. انفتح بابها واتقذف منه المحكوم معصوب العينين. يداه وراء ظهره. عملاقان أسودان يحشرانه بينهما. أركعاه في منتصف الميدان. تقدم منه عملاق أسود ثالث، منتضياً سيفاً مطعماً بالجواهر والذهب والتصاوير الفنية. رفع العملاق السيف وهوى به خطفا على عنق المحكوم الممدود. تعالى هدير من هتاف الجماهير الوادعة: "ألله أكبر!" سقط الرأس على الرمال. شخبت نوافير الدم من العنق المقطوع.

أشحت بوجهي. أنا لا أعرف الموت ولا هذه الطقوس. فقط أحسست بالغثيان.

عندما صار بوسعي النظر ثانية، رأيت في ميدان العدالة أيادي مقطوعة، تتدلى من عارضة معدنية طويلة (قال الخليفة إنها أيادي السارقين) ؛ ورأيت رجالاً يجلدون بسياط كالأفاعي السوداء (قال نفيطان إنهم زناة) ؛ ورأيت امرأتين ملقاتين في حفرتين ورجالاً يرجمونهما بالحجارة (قال إنهما زانيتان).

أردت أن أنزع عني هيئتي البشرية المستعارة، وأعود إلى كميتي الموجية. لم تتحمل عضويتي ذلك الغثيان. لكن دهريار (هذا هو آخر ألقابه - وأولها، كما قال لي) رجاني ألا أفعل ذلك: "كيف أكلمك دون أن أراك!" قلت: "حسنا. لكن ابعدني عن مناظر عدالتكم. إنها عدالة بشعة. لماذا يضطر الناس إلى السرقة والزنا عندكم؟ ألا يشبعون حباً وأكلاً؟"

تأملني باهتمام. وغمغم: "لأول مرة أسمع هذا الوصف. عدالة بشعة!" وأضاف كأنه لا يخاطبني وحدي:"فعلاً. إن الله جميل ويحب الجمال ! ولكن ماذا أفعل؟ لدي جيش من المتدينين يرفضون انتعال حذاء لأن محمداً لم ينتعل حذاء."

قلت: "طالما قبل الله رجاء النبي تخفيض الصلوات من أربعين إلى خمس، فما المانع من القياس على ذلك وتغيير طريقة تحقيق العدالة؟ يجب أن تكون شجاعاً وتعمل على تغيير الطريقة. "

ابتسم بمرح وأصدر نفخة من أنفه: "لا عجب أنك رجعت إلى فتحائيل. فتحائيل يقول إن عمر بن الخطاب كان سيوقف قطع اليد لو أنه يعيش في القرن العشرين. لكن آه يا عزيزتي. "

بفورة حماس مفاجئة صحت: "أنا أقدر أن أسأل لكم محمداً كي يلغي هذه البشاعة. بل هذه العبودية. خلال شهر أستطيع أن أعرف أين هو في الكون وأقابله. "

انتفض الخليفة ودحرج عربته المدولبة نحوي بارتعاب. أمسك راحتي متضرعا : "أنا في عرضك. أنت هكذا تدمرين مملكتي. تخربين العالم

الإسلامي كلـه. تنقلين الإسـلام إلى القـرن العشـرين ! نحن دفعنـا مليـارات البترودولار لنبقيه في القرن الثامن ! "

قلت بلا اكتراث: "أنا أريد الخير لكم. أبو الفتح يقول أنتـم متخلفـون عن سائر أمم الكوكب الأرضي".

هتف الخليفة بمودة متوجعة : "أفقزاد يا عزيزتي ! نحن سعداءفي تخلفنـا. نحن نعشق تخلفنا. نحن آمنـون في تخلفنـا. تريدين تفتيـح أعـين رعيـتي على العدالة الجميلة؟ لن يبقى شـيء مـن الإسـلام الـذي أحكمهـم بـه. يجب أن يفهموا أن الإسلام يعني قطع الأيدي وقطع الأعناق"

هززت كتفي بلامبالاة: "أنتم وشأنكم. وداعا. "

دحرج عربته ورائـي قبـل أن أخـرج مـن القصـر السـابع في الإصطبـل الأول. توقفت. سألني: "إلى أين؟ " استغربت حشريته لكنني أجبـت: "للقـاء أختي شهرزاد". رفع أصابعه يستمهلني: "رجاء ! لا تعيـدي لهـا مسـعودها". لم أفهم. انتظرت شرحا.

قال دهريار: "أنت شفت بعينيك كيف نرجم الزانيات. أختـك نـامت مع رجل ليس زوجها. هي زانية. ولولا خوفنا من الجن الذين تسيطر عليهـم لرجمناها حتى الموت. اكتفينا لذلك بقتل عشيقها مسعود. وفعلنا الشيء ذاته مع بلقيس وشجرة الدر وزنوبيا وسميراميس وهدى شعراوي ... وكلهن ... هكذا استتب الأمن الأخلاقي والجنسي في ديار الخلافة. رجاء ! بدون الأمن الجنسي تنهار أخلاقنا. لا تلخبطي أخلاقنا. "

قلت بلا مودة: "أنا غير مهتمة بكم إلى هذه الدرجة. مـا دمتـم تقتلـون الحب بالحجارة".

انطلقت في الفضاء. سمعت صوت شهرزاد، فتبعتـه. وبسـبب انفعـالي انتفـض شـكلي البشـري وزال عـني. أحسسـت بالراحـة. رفرفـت أمواجـي وترقرقت. صرت أقدر على تلقي المشاعر الجميلة.

دخلت عبر الزجاج المعشق. قاعة فسيحة تتدلى من سمائها ثريات خرافية، وفي أرجائها تنتشر الأرائك والطنافس الملبسة بالبروكار والدمقس. نساء متمددات بملابس خارقة الألوان والألق: ملابس حرير وساتان وأورغندي وكشمير ... بعضها انفرش كالغيم حول أردافهن وبطونهن، أو تغطى بالكشاكش والعملة الذهبية القديمة، أو لمع بما دخله من خيوط كريمة صقيلة.

نساء صغيرات دخلن بأطباق وخرجن بأطباق. وأخريات وزعن الأطباق على النساء الجالسات. وأخريات خرجن وجئن بأقداح فيها سوائل ملونة. هذه هي آفة حياة البشر التي عرفتها من أبي الفتح: الأكل. لولاها لازدهرت تلك الحياة بالفن والحرية، بدلا من الشقاء والعنف.

لكن النساء كن عازفات عن الأكل. رأيت صدورهن تنتفض، وأفواههن تطلق فقاقيع. سمعت موسيقا تصاحبها أصوات بشرية. في زوايا شبه خافية من الفسطاط، قبعت نساء داكنات يقرعن برفق أنيس طبولا ودفوفا. وفي ركنين مماثلين جلست حاملات القصب ونفخن فصدرت نغمات حميمة متقطعة.

كانت الوجوه خالية من الموسيقا. وجوه عليها ألوان ولمعان هي الأخرى. وأعين داخل أطر متطاولة من الكحل. رانت في داخلها مسحة من الوجوم وغيوم من الضجر. لم أفهم لماذا الملابس بهذا البهاء والأوجه بهذا الكمد. كلما نهضت امرأة وقصدت أريكة أخرى للحديث مع مجموعة أخرى، رأيت قواما وحركة لملكة جمال، ورأيت أعيناً وحزناً لملكة الموت.

أحسست بأرواح بيض ورأيت وجوهاً سوداء.

لم ينكمش هذا الخماد حتى عندما نهضت صبية فارعة القوام وأخذت تنساب على إيقاعات الدفوف والطبول، وترنّحُ ردفيها ونهديها وخصرها.

أثارني ما سمعت أكثر مما رأيت. حديث عن زوج يمارس الجنس من الخلف؛ وآخر يمارسه دون أن يكترث بنزع ملابس الطرفين: "يا الله! تفريغ حمولة وانتهى الأمر!"؛ زوجة امتلأ جلدها بكدمات زرقاء؛ زوجة تمضي ساعات ضحاها وعصرها، وسائقها يجوب بها الشوارع بحثا عن فحل جذاب؛ زوجة تحلف على المصحف أنها لم تر جسد زوجها ولا زوجها رأى جسدها بعد ثماني سنوات زوجية وخمسة أطفال؛ زوجة ثانية لرجل في عمر أبيها، أم لأربعة أولاد، يرعبها أنها بلغت الثامنة عشرة من العمر؛ وأخرى مذعورة من خمس بنات أنجبتهن بلا أخ وتدعو الله أن ينام معها أبو الفتح الإسكندري لتحمل بصبي؛ وزوجة تتمنى قطع قضيب زوجها بمدية مثلما فعلت تلك الأمريكية التي برّأتها المحكمة؛ ثم حديث مشترك خلاصته أن الزمن الأقصى للممارسة الجنسية الزوجية ثلاث دقائق، والزمن الأقصى للممارسة مع العشيقة ثلاث ساعات.

من ركن سحّت عليه أضواء ليلكية، سمعت الإعلان الساخر الحزين لامرأة تتكلم عبر الهاتف: "كله انتظار. ننتظر أن يزوجونا. ننتظر أن يلد لنا صبي. ننتظر أن ينام معنا الرجل. ننتظر الفستان. والسفر. وأن تصير الزوجة الثانية أو الثالثة. ننتظر الشيخوخة. وطبعاً ننتظر الموت."

امرأة في ثلاثيناتها أخذت تقلد صوت رجل وترسم على وجهها خطورة حدثه: "فرضا اضطررت لاستبدال إطار سيارة. هل ستفعلين ذلك بنفسك؟ ستضطرين إلى نزع الحجاب ومخالفة الشريعة! هل تريدين مخالفة الشريعة؟ وفي مخالفات المرور: كيف ستتكلمين مع الشرطي، والكلام مع أجنبي مخالف للشريعة! هل تريدين مخالفة الشريعة؟ ترين بوضوح أنه لا يمكن للمرأة أن تقود بنفسها سيارة!"

دخلت وصيفة تحمل موقدا نحاسيا ارتفاعه نصف متر، تطفح منه رائحة البخور المحترق. اقترب الموقد من سيدة بدا أنها أميرة، مسترخية وسط نصف دائرة من السيدات المعجبات المسترخيات. مدت الأميرة راحة يدها وموّحت الغيمة البخورية نحو وجهها ثلاث مرات بطيئات. ثم رفعت

شعرها الطويل الأيسر وفردته فوق الغيوم. كذلك فعلت بالأيمن. وتخلل البخور الشعر الفاحم كله.

فجأة انتصبت النساء واقفات. اختفت النساء الصغيرات.

من أحد أبواب الفسطاط دخلت شهرزاد وحولها كوكبة من النساء. شقيقتي. مزيج من الفيروز والعقيق والكهرمان والزئبق بلحم بشري. الآن وقد امتلكت ذاكرة آدمية استطعت أن أتذكر ألف حادثة وحادثة عن طفولتنا الكونية.

استعدت هيئتي الأدمية، واقتربت من شهرزاد وكواكبها. رأتني على بعد أمتار. خلال ثانيتين تبادلنا عشرات القبل والمعانقات، ولم يلحظنا أحد. انفرجت أساريرها. توقفت وتوقف الموكب.

انتبهت إلى أن ظهوري بلا ملابس أربك الجميع، وأسخط البعض، وشوش المشهد بأكمله.

قالت شهرزاد: "هذه أختي أنفزاد. جاءت من مجرة أندروميدا لتزورني. اتخذت هيئة البشر حتى تروها. هي في الأصل مجرد أمواج نيوترونية وفوتونية. خلال ثانية واحدة تستطيع أن تكون في زحل".

ضجت من حولي شهقات النساء المتطاولة واندغمت في هتاف ترحيبي. وجدتني أتبلل بعطر شبه محسوس، هو المشاعر التي جعلت هؤلاء يخترعون كلمة: إنسانية.

التفتت شهرزاد إلي وراحت تذكر الأسماء. أسماء وأسماء. أميرات وزوجات أمراء. شيخات وزوجات شيوخ. بنات عائلات وبنات مليارديرات. أقبلن إلي بتطلع أنيس. تحاشرن وتدافرن، ونسين ضرورات الرفعة والمقام. وإذ وصلن إلي انفعلت وجوههن بالارتباك والحياء. ثم تمالكن أنفسهن وخاطبنني رغم عريي.

يجب أن أعترف أنني ارتبكت وتحيرت. من أين نبعت تلك البراءة كلها والبساطة والعفوية، وفاضت رغم الضجر والملابس؟ لم أدر أن البشر

يمتلكون بالأصل هذه الينابيع. و لم يخطر لي أنها موجودة في هؤلاء النساء اللواتي كن قبل قليل ينضحن كآبة ومقتا وخيبة. تحولن من كتل عطالة وإحباط إلى تيارات من الدهشة والأنس. ما أجمل لهفتهن. ما أجمل عطشهن.

تكلمن كلهن تقريبا في وقت واحد. تكلمت كل واحدة كأن الأخريات جميعهن ينصتن لها. بدا الكلام متناثرا وضائعا. وتناثر معه مشهد الجلال والوقار الذي كان ينث من المكان لحظة دخولي. لكن الجمال شعشع في الوجوه والأبدان واللغة. لم أعبأ لغياب منطق الإنصات ومنطق التسلسل.

طلبن مني أن أحملهن بقوة أمواجي إلى لندن. ووسط سيول من الأمنيات والمشاهد، تبين أن من عادة لندن أن تكون مكتظة بأزواجهن وإخوتهن وأبنائهن، ولن يجدن فيها أماكن للنزول. اقترحن باريس، ثم ألغينها للسبب نفسه. ثم سويسرة، ثم روما، ثم لوس آنجيلوس، ثم فلوريدا، وبولدر ... وكلها ألغيت للسبب نفسه. أخيرا انبثق اسم مدريد. بالطبع: إحداهن تذكرت همنغواي ورواية له، فهتفت لمصارعي الثيران. هتفن كلهن لمصارعي الثيران. وللثيران. وتكلمن عن مصارعين ينزلون إلى حلبات الفنادق والبيوت المستأجرة ليصارعوا "الثورات" الشرقيات الطافحات.

اصطفقت الأصوات والقلوب. رفعت شهرزاد يديها في الهواء وصاحت: "يا الله ! قوموا معها! أفقزاد ستحمل خمسمئة واحدة منكن!"

لكن المشروع أحبط لأن مشكلة واحدة استحال حلها: كيف سأحمل لهن حقائب الملابس وهي لا تتأثر بقوة أمواجي.

اكفهر وجه شهرزاد. وحل الخوف في عينيها البديعتين محل الحرية. لمحتُ أضواء حمراء تومض وتنطفىء على خطوط التقاء الجدران بالسقف، فتوحي بخطر مداهم.

زوبع صوتها: "ادخلوا الحجرات، رجاء! ادخلوا الحجرات! شهريار قادم!"

اختفت النساء البهيات، النساء الأميرات الحالمات السعيدات. اختفين في ثقوب سوداء سمتها شهرزاد حجرات، وانغلقت تماما فكأنها بلا أبواب.

تلك الوحشة. الفراغ العاصر والصمت.

انشق المكان عن حشد هائل من الرجال. كان يحيطون بالخليفة، وهو يتقدم على عربته المدولبة. كلهم يلبسون مثل ملابسه العجيبة البيضاء. دخلوا من باب مديد، زجاجي حديدي. واحد منهم فقط كان يتنكب بارودة: ذلك هو شهريار ما بعد زمان ألف ليلة وليلة: غليظ الحاجبين، متقوس الشاربين، على وجهه الصلد بهجة صاخبة وراحة بال هنية، ومن خطواته طفرت ثقة رجل يعرف أنه دائما على حق. بسرعة، التقطت أمواجي صورة مادة غير بشرية في وجهه وعنقه ويديه. شيء من الرصاص أو القصدير تمدمد كالأسلاك النحيلة المضفرة في لحمه، تخللتها أخاديد انطفأ فيها هباب من نوع لاصق.

هدأ دخولهم العاصف. فهمت أن السبب هو قوامي العاري. نظرت إلى الخليفة مبتسمة ورفرفت له بأصابعي. لم يرني. اقترب شهريار مثل ديك رومي، وجعل يبرم حولي. تناول من حزامه سوطاً جلدياً مضفراً بأسلاك، وهوى به علي. ولأن السوط لم يصطدم بشيء، تخلخل توازن شهريار وضحك الآخرون. التفت شهريار إلى شهرزاد وصرخ: "هذه إحدى جنيّاتك، ما؟ أحضرتها لتهرب بمشاعل. "

تقدم الخليفة من شهرزاد دون اكتراث بما حدث. قال: "هاتي لنا مشاعل".

انبثقت صبية فارعة سمراء من أحد الأبواب. انسابت نحوهم بهدوء. تلفت الرجال إليها. أحدهم انتضى مسدسا. نظرة الخليفة أوقفت إطلاق النار. قالت الفتاة: "أريد محكمة ومحامين، وأنا مستعدة". أحاطت بها دائرة من الرجال.

قال ذو المسدس: "اسمعوني ! أنا كبير آل نفيطان. وكلمتي هي الكلمة. ـ أنا بنفسي سأنفذ عقوبة الإعدام بهذه الزانية، وفي ميدان العدالة بالذات. "

قالت مشاعل بلا خوف وبلا حماس: "أريد محكمة. وأريد شهودا. وأريد محامين إنكليز. "

قال دهريار: "كلمتك على الراس والعين يا عمي. اسمح لنا بس، نشوف كيفية التنفيذ. أنت لا تريد فضيحة الخلافة والعائلة في العالم. "

قالت مشاعل: "ليس لديكم أربعة شهود ذكور على أني زنيت. أنتم تخالفون الشرع. "

انهال من دعي 'عمي' على حنكها بقبضة المسدس، فسقطت. صاح الرجال: "الله أكبر!" ووجد ذو المسدس نفسه مدفوعا بهمة أعلى، فأطلق رصاصة في أنف الفتاة.

صرخت مشاعل ألماً. وشهرزاد أيضاً. رمق نفيطان شهريار بنظرة. رمق شهريار خادمات القصر بنظرة. أسرعت الخادمات الآسيويات وغبن بشهرزاد في طرف الفسطاط.

زمجر العم: "ابعدوا عني! خلوني أنفذ فيها حكم الله! "

كانت قبضة مشاعل تغرف فجوة أنفها حيث مرقت الرصاصة، والدم ينز من بين أصابعها. هتفت بعناء وإصرار: " أريد شهوداً. ومحكمة. "

انطلقت رصاصة ثانية واخترقت زندها. امتدت يدها الأخرى إلى ثقب الرصاصة الجديدة.

انتصب العم أمامها كديّان يتمهل في إنزال قصاصه. أطلق رصاصة ثالثة على ركبتها اليسرى. تطاير نسيج ركبتها هنا وهناك. نظرتُ إليه مستغربة تلكؤه: لماذا يتأنىء في قتلها؟

بعد أن صرخت مشاعل صرخة ثاقبة، تطوحت على ظهرها.

انحسر الثوب عن فخذيها بالكامل. يا لذاك الجمال !جعل الدم ينبجس من بين أصابعها ويسيل على فخذها. ثلاثة مسيلات. كان ذوو الملابس البيضاء متهدلي الأشداق جامدي الأعين. أعينهم مسمرة على الفخذين

الملفوفين اللذين انحسر عنهما الثوب. هذا أو ذاك جرض بريقه، وعاد فأرخى حنكه.

رفع العم مسدسه نحو مشاعل. طأطأ أمام ركبتيها. مد مسدسه بين الفخذين وأطلق النار. سرت همهمات ذوي الملابس البيضاء: "الله أكبر!" انتفض حلق مشاعل بصرخة متحشرجة مروعة. انتفض حوضها. غطت راحتاها فرجها وشدتا عليه. تكورت وانقلبت على بطنها.

تقدمت مسيلات دمها فوق المرمر الصقيل. عبرت صور وجوههم المنعكسة عليه.

انتصب العم بكامل مهابته. أعاد المسدس إلى حزامه. استدار ومشى وهو لا يرى أحداً. ثم بدا وكأنه تذكر شيئاً. عاد أدراجه إلى مشاعل. أطلق رصاصة أخيرة في عينيها. ومشى، فلحق به الخليفة والآخرون.

بقيت وحدي في المدى الذي جعلته الوحشة والدم لانهائياً. استعدت بدني البشري.

ظهرت شهرزاد. على جسدها سربال أسود. شعرها الفاحم مثل مذنّب ململوم، يعلو عنقها الناصع النحيل ووجهها الأبيض. تغلغلت نظرتها في المكان. استقرت على جسد مشاعل ولم تفاجأ.

دخلت النساء السود إلى زواياهن القصية. جلسن. أخذت أصابعهن تنقر على الدفوف والطبول الصغيرة. برفق كئيب. جاءت عازفات القصب. تماوج نواح القصب مع نبرات الدفوف.

دخلت الأميرات. كل امرأة نظرت إلى مشاعل نظرت إلي أيضا. أعينهن لم تطلب هذه المرة السفر إلى لندن أو باريس. لم تطلب السفر. لم تطلب.

حملت الجثة وخرجت بها. لم أدر أين أذهب. حملتها فوق الصحراء السوداء وفوق المدن الغريقة. طوّفت فوق الرمال والقصور والغابات

ومشاعل منشآت النفط. وصلت إلى البحر العربي. رأيته خير مكان أوسد فيه هذا الكيان الجميل.

حتى ذلك الحين لم أكن قد سمعت صوت أبي الفتح. حدست أنه سيكون في مكان قريب من مكان الخليفة. أصابني خوف قبيح: ماذا فعلت به حياته مع هؤلاء الذين يقتلون الحب بالحجارة والمسدسات؟ اقشعر بدني من صور مشاعل. وأعادتني اللهفة إلى شهرزاد.

التقيتها خارج قصرها. سألتها عن أبي الفتح فسألتني: "جئتِ إليه؟" كان سؤالها استهجاناً واجماً. تذكرت شعور الغيرة عند البشر فقلت: "وإليك أنت . علمت أنهم قتلوا مسعود. "

أرسلت عينيها نحو الأفق البعيد.

قلت: "قتلوه بسبب كتبه أم لأنكما حبيبان؟ "

قالت: "لا فرق. الحب والفن شيء واحد. "

قلت: "وأبو الفتح فنان. لكن أراك مستاءة منه. "

أمسكت مشاعرها بمشاعري. قالت: " تعالي أريك أبو الفتح. "

عبرنا إلى مجموعة صغيرة من القصور تمتد حوالي مئتي متر بمئتي متر. كانت كتيمة كالصمم بسبب سماكة إسمنتها. ارتدت شهرزاد طاقية الإخفاء، ودخلنا من باب فولاذي انفتح ليخرج منه أحد الرجال.

أحسستني بشرية تماماً. اضطربت واضطرمت بما راح يمرج ويهرج داخلي. فأبو الفتح لم يكن مبدعا في العقل وإنما في الحب أيضا.

دخلنا غرفة شبيهة بكرة سماوية. غرفة نومه. أول حركة أحسسنا بها كانت لامرأة تسبل على قوامها سربالاً. بلحظة واحدة اختفى جمالها داخل الملابس السوداء القبيحة. تمطت مطولاً وقد انحشر رأسها بين زنديها. نشوة عارمة فاضت من وجهها وإغماضتها وإبطيها. وببطء امرأة لم تعد تتلهف على شيء، رمت عباءة سوداء على سربالها وتوجهت نحو الباب. سعيدة.

رأيت شهرزاد في حالة من الغضب المستطير. أوشكت المرأة أن تصطدم بها. ثم دلفنا نحو السرير السماوي. رأينا أبا الفتح عارياً.

رأيته بعيني وبأمواجي. ثم لم أعد أراه. اضطربت وتشوشت. حلت بي فوضى وتغيمات. وقفنا كل منا عند جانب من السرير. أخذ أبو الفتح يئن ويتأوه. لهفتي وجزعي جعلاني أتجسد في بشريتي أمامه. جلست على طرف السرير.

هتفت شهرزاد مشمئزة : " أفقزاد ! "

التفت إليها بابتسامة: "أنت تغارين. لكن الغيرة ليست جزءاً من طبيعتي".

فنبرت: "والكرامة؟ أليست جزءاً من طبيعتك؟ "

بالابتسامة نفسها أجبت : " نحن يا أختي لسنا مأسورين باللغة مثلكم. نحن لا نعرف الوحدانية إلا في عبادة الله. "

كان أبو الفتح ما يزال يتأوه. نظرت إلى جسده البشري واندهشت. أثناء زواجنا، كان لجسده عبق ورونق وصلابة نضرة. أما الآن فالذي رأيته في وجه دهريار راح يخاتل عيني في جسد أبي الفتح.

كان منظرا حزينا. لم يكن ثمة داع للغيرة أو الكرامة. مجرد شعور خفي بالخسران، والشفقة ايضا. فهذا القصدير لم يكن في عضويته من قبل. القصدير: أخس المعادن. أأكون قمت بهذه الرحلة عبثا؟

أخيرا رآني. نظر إلي بعياء لا حد له. هز رأسه في نصف إغماضة، ثم رفع يده وهوى بها أمام وجهي: "رجاء! تعالي بكرة. لم يعد لي حيل." وسقط على صدره، ثم جعل يشخر شخيراً خفيفاً.

التفتّ إلى شهرزاد. ابتسمت هي بنفور وازدراء. التفتُّ إلى أبي الفتح: "نحن لن نمارس الحب يا أبو الفتح. ولكن كرمى لله ! ألم تعرفني؟ ألم يقل لك قلبك من أنا؟ ولا عيناك؟ "

رفع وجهه وتأملني. لمع في عينيه فضول قديم، سرعان ما انطفأ بجهله الراهن. قال وكأنه ينظر إلى رسم كاريكاتيري: "ما هذا؟ امرأة غير مفسرة النهدين! بلا حلمتين! ولا سرة! ولا شيء! ما هذا؟ "

جثم على ركبتيه، وقد هب فيه اهتمام خلاق. ولمعت عيناه بلمعتهما القديمة المتشهية. مد سبابته اليمنى ولامس بها وسط صدري البشري: "هنا منحدر ما بين النهدين!" فانفطر وسط نهدي وتشكل النهدان. "وهذه حلمة. حلمة"، قال ورأس سبابته يدور على رأس نهديّ، فتتكونت لي حلمتان. "وهذه سرة"، فتشكلت نجمة منشرخة وسط بطني...

كنت ارتساماً فصرت شكلاً: عيناي، أذناي، منخراي، شفتاي، ما بين فخذي ... وكنت سعيدة ومنتشية. هب النسيم علي فارتعشت وخفقت خلايا بشرتي. كنت مثل سديم شائش انفطر فصار نظاماً شمسياً.

سحبت شهرزاد طاقية الإخفاء عن رأسها متأثرة بالجمال السعيد. وقالت بحنق المضطرة إلى تخفيف إدانتها: "عندك هذه المقدرة، وتعمل في خدمة نفيطان؟ "

نظر أبو الفتح إلى ساعته مرتعداً: " يا إلهي ! تأخرت عن الشغل ! "

قلت له: "حملني إليك شوق وولاء وذكريات. وحلم كبير حلمت أنت به في أندروميدا. "

كان قد هبط عن السرير وأخذ يضع ملابسه على عوراته. غمغمت: "كنت تقول لي: أريد أن أسترد إنسانيتي بكتاب النفط. هل استرددتها؟"

تلفت حوله باحثا عن شيء ما. غمغم شارد الذهن: "كتاب النفط؟" ثم مشى إلى حيث وجد قميصا فلبسه. ابتسم لي ابتسامة رخوة: "لا شك أنك الملاك الأنثى الذي هبط على دهربار وهو يتعبد في غار بترولاء". ونظر إلى الساعة فدمدم بسخط رخو أيضاً: "أف ! تأخرت كثيرا عن الشغل. "

قلت: "يبدو أنه شغل خطير. "

قال وهو يلبس جرابه فحذاءه: "حقير، وأنت الصادقة. أنت لا تعرفين الوضع الثقافي في ديارنا. سكان المدن ينتجون الثقافة والمسلسلات، ونحن ننتج البترودلار. لذلك نبري أقلامهم بحسب مبادئنا."

قلت: "هذا بديع! يعني تطلبون إنتاجا ثقافيا يحيي عصر النبوة، مثلا. مثل عمر وعلي وخالد وعائشة!"

خرج من فمه زفير ساخر: "أي عمر وأي علي! تضعين شخصيات مقدسة في المسلسلات؟ أنت جننت!"

قالت شهرزاد: "هذا هو أبو فتحك يا عزيزتي. شرطي نفيطان على المبدعين والناطقين بالحقيقة."

صاح أبو الفتح: "كل هذا لأنا منعنا مسلسلك المأخوذ عن حكاياتك الفاسقة".

قالت: "هذا وحده كاف لدمغك بالعار أيها البائع المتجول."

صاح: "أنتما تضيعان وقتي. قد يخطىء هؤلاء البلهاء في جهاز العقول، أو جهاز الأخلاق، أو جهاز المشاعر، وينسون أنفسهم في مشهد مناقشة في الدين والسياسة أو قبلة غرامية أو علاقة حب غير شرعية..."

هتفت: "أبو الفتح! هل يمكن أن تكون أية علاقة حب غير شرعية؟"

نظر إلي والدهشة تصعقه: "أنت يستحيل أن تكوني ملاكاً! أنت إبليس علماني!" واتجه بما أمكنه من السرعة إلى الباب.

خلا المكان من أبي الفتح وخلا رأسي من الحلم. رأيتني ثكلى مثل شهرزاد. ماذا حدث له حتى تبلد ونسي؟

خرجنا ومشينا في الحديقة. أحسست بارتجاج غير مألوف في بدني. قالت شهرزاد: "سببه امتلاء نهديك وردفيك". قلت: "إذن أعود إلى حالتي الهلامية الأولى. أصلا أنا لا أظن أني سأبقى بين البشر". لكنها كانت آسفة: "حرام. تمحين كل هذا الجمال!" قلت: "أنا لا قبل لي بتحمل وزن في جسمي. سأصير أجوع وأحتاج للملبس والمسكن مثلكم."

توقفنا بين أشجار باهرة الجمال. قالت شهرزاد: "خليك على بشريتك، الآن. سآتيك من عند أبو الفتح بنهدية وبنطال قصير ." وأشارت إلى الأماكن التي تتغطى بهما.

بقيت وحدي في الحديقة. كان علي أن أتخذ قراراً. لقد أضاع أبو الفتح ذكرياتنا. لكن لمسته أبدعت لي تكويناً جميلاً. فهل هناك أمل في أن أعيش معه حياة جميلة، هنا في هذه الصحراء؟

لبست النهدية والبنطال القصير. تمتمت : " للملابس عندكم وظيفة جمالية؟ "

أجابت شهرزاد : " قمعية. وأحياناً شبقية. "

مشينا معاً في شبه صمت. مشينا حتى دخلنا السوق. غير أن مشوارنا لم يدم طويلاً. فالناس الذين أرادت شهرزاد أن نمشي بينهم، صعقهم منظري. وجرفتهم أمواج ورمضاء، احتجاج ووحشية. امرأة بلا ملابس، تتجول في سوق للمسلمين.

ارتفعت القبضات والهراوات والعصي والمسدسات والخناجر والسيوف، وهجمت علينا. لبست شهرزاد طاقية الإخفاء وابتعدت. أما أنا فرميتهم بوابل من أمواجي. ولأن أنظمة عقولهم تخلخلت، أخذوا يقتلون بعضهم بعضا وهم يظنون أنهم يقتلونني. بغمضة عين تحول السوق إلى مسلخ. وتساقطت الجثث والحطامات.

هبطت حيث سمعت صوت الخليفة. رأيته ينتقل بكرسيه المدولب بين عشرين من أقماره. سمعت أبا الفتح في آخر وصفه لجسدي بعد أن لمسه تلك اللمسة. رأيت ابتسامة الخليفة النشوى، وقلت الآن سيسألونني ألف سؤال عن مشاعري وأحاسيسي. وصرخ شهربار بوجه أبي الفتح: "وإذن فأنت يا حضرة الساحر تسببت في مقتل اثنين وتسعين ابن آدم في سوق الملابس!" والتفت إلى الخليفة فشرح له باقتضاب حالة الجنون التي أصابت الناس "بسبب فيروس علماني دخل دماغ أفقزاد المباركة ... اصابها بجنون التعري

... جعلها تمشي عارية ... فهجم الغيارى على دينهم يريدون قتلها ... اثنان وتسعون ضحية يا مولاي ! "

رآني الخليفة فلم يعد يكترث بصراخ شهريار. دحرج نحوي كرسيه المدولب وتبعته الحاشية. وعند مسافة مريحة توقف وراح يتفرس بي. تمتم: "الآن صرت فعلاً امرأة للمضاجعة!" راحوا هم يتفرسون بي. نسوا أنهم أي شيء. كنت المرأة الفضائية التي تجسدت أمامهم، وإذا بها امرأة صبواتهم السرية.

عندها فقط فهمت كلمات أبي الفتح عن قريش الذين اعتنقوا الإسلام، وظلوا يعشقون اللات والعزى، الذين جعلوا الإسلام لغة الظهور وعشق اللات والعزى لغة الخفاء.

قال دهريار لأبي الفتح: "إكراما للمساتك المبدعة يا أحطل، قررنا منحك مئتيَ برميل نفط يوميا ومدى الحياة. "

وأنشد أبو الفتح: "إذا ما صديقي علّني ثم علني / ثلاثة أقداح لهن عرير // أبات أجر الطرف تيها كأنني / عليك أمير المؤمنين أمير. "

قال أمير المؤمنين: "جنية السماء الساحرة هذه، صارت امرأة حقيقية. صار بإمكاننا كلنا أن نفاخذها. "

غمغم أبو الفتح للخليفة: "هذه جنية يا أبا العباس؟ ألم تقل إنها ملاك مؤنث هبط علينا؟ "

شهشه الخليفة: "أيها الغبي ! ألم تعرفها بعد؟ هذه مطلقتك، أفقزاد. "

نظر أبو الفتح إلي فاغر الفم. لم يستطع أن يتحرك. وارتبك الحاضرون.

غفلت عن ذهول أبي الفتح وانصعاقه إذ رأيت في عينيه ووجهه وعنقه أسلاكاً مضفورة مع لحمه، وأخاديد فيها هباب من القصدير. رأيتها تمتص أنسجته اللحمية، وتكتسب لوناً يتأسْوَدُ كأن الغلبة صارت لها على عضويته الآدمية.

تفقدت نفسي وأنا أعاين تحوله، فلم ألمس نثرة هنا ولا نثرة هناك من الولاء والحنين اللذين حملاني إلى نفيطية. أما الذاكرة فبدت مثل متحف للشمع.

قال شهريار: "ماذا نفعل الآن يا مولاي؟ "

فأجاب الخليفة: "بخصوص ماذا؟ "

"بخصوص فضيحة الملاك المؤنث في السوق. وكالات أنباء العالم ستتناقلها بلمح البصر. "

تفحص الخليفة وجهه كمن يقلب كتاباً للاحتمالات، ثم اقترب مني. قال: "أنت ضيفة ديار الخلافة. وسيسعدنا أن نقدمك إلى سكان الكرة الأرضية. سنعقد لك مؤتمراً إعلامياً عالمياً، وتتحدثين فيه لبني البشر. "

لم أدر بماذا أجيب. قلت: "هل سيملؤني المؤتمر فرحاً وحباً، ويجعلني أحس بجمال حياتكم؟ "

هتف ثلاثون صوتاً حولي: "بالتأكيد! وخاصة جمال حياتنا."

قلت: "أنا موافقة. "

ازدحمت الأيام الثلاثة السابقة للمؤتمر بظاهرة لا أعرف كيف أقدمها لقرائي الأرضيين. لقد حرصت على عضويتي البشرية كرمى للفن الذي أودعه أبو الفتح فيها وللجمال الذي راق لعيني شهرزاد. وبصمت وحبور، تعزز حرصي كلما دخلت عالم النساء وجلست معهن. هناك أحسستني ملكة مثل أختي شهرزاد.

لكن عالم الرجال كان شيئاً آخر. ثلاثة أيام وهم يشعرونني أن علي أن أتخلى عن نفسي وأقدمها لهم -- أعني عن عضويتي الجديدة. وقد فهمت أن 'استعمالهم' الوحيد لها سيكون على أسرّة غرف النوم. وبالطبع كانت لديهم وفرة من تلك الغرف. وأنا أكره غرف النوم. الحب يتم في الفضاء وليس في أماكن مغلقة سوداء.

ليس الخليفة فقط. كلهم. وقد أدرك أنه لن يستطيع كبحهم عني، فأفلتهم وابتعد.

جاءني (العم) وهو يرتدي بنطلون جينز ويلوح مسدسه حول سبابته. ويلوح ابتسامته حول أسنانه: "أنا عمري سبعون. لكني أعجبك. أطبائي الأمريكيون لا يتركون خلية واحدة مني تشيخ". حملته على ظفر قدمي وعلوت به حتى طبقة الأوزون، فخرجت عيناه ولسانه من أماكنها. قلت: "أين هي رجولتك؟ أريدك أن تنام معي هنا في هذا المكان". ثم أعدته إلى الأرض قرفاً منه.

أمير آخر دعاني إلى برج فيه مطعم دوار لكي نجلس (جلسة فلكية). "أنا عليل"، جمجم وهو يرمق الأفق البعيد بنظرة معاناة دفينة. والتفت إلي: "هل تصدقين أني وأنا في الثلاثين، أمارس الجنس يومياً، ولا أحس به؟ نساء الكرة الأرضية، بلا طعم ولا نكهة. وأنا أريد الحب، لا الجنس." وصمت، فهز رأسه حسرة وعتباً على الحياة التي لم تنصفه واللغة التي خذلته. قلت: "أنت عليل، وتريدني أنا أن أشفيك؟" فهز رأساً منطرباً سبع هزات متتالية. قلت: "ماذا سأنال منك بالمقابل؟" فوجئ. لم يكن ينتظر أني سأريد شيئاً. فارقته المعاناة والعتب والحس بأن الحياة مأساة. رمقني بنظرة تاجر لا يملك ما يقايض به بضاعة أحب استعمالها.

لم يكن الآخرون مثله. الآخرون جاءوني بشهية جنسية متورمة. استدرجوني بالقصص عن خوارقهم الجنسية ... عدد النساء وعدد المرات في اليوم الواحد. ومن عجب أن جوابهم عن سؤالي: ماذا سأنال منك بالمقابل، كان واحداً من اثنين: فإما دهشة مصعوقة من أن لي مطالب أو أني طرف في معادلة، وإما: "ولو! أنا سأجعل صياحك بالنشوة يملأ حوض البحر الأبيض المتوسط".

حتى سئمت ذلك الجمال وذلك الفن. في آخر المطاف قلت لأحدهم: "أنت تحمل شهادة دكتوراه في الفيزياء، ألا تسألني سؤالاً واحداً، ألا تتحاور معي، عن بحرتي، عن عضويتي الفلكية، عن نوع الحياة التي

تفقدت نفسي وأنا أعاين تحوله، فلم ألمس نثرة هنا ولا نثرة هنـاك مـن الولاء والحنين اللذين حملاني إلى نقيطية. أما الذاكرة فبدت مثل متحف للشمع.

قال شهريار: "ماذا نفعل الآن يا مولاي؟ "

فأجاب الخليفة: "بخصوص ماذا؟ "

"بخصوص فضيحة الملاك المؤنث في السوق. وكالات أنبـاء العـالم ستتناقلها بلمح البصر. "

تفحص الخليفة وجهه كمن يقلب كتاباً للاحتمالات، ثم اقترب مـني. قال: "أنـت ضيفـة ديـار الخلافـة. وسيسـعدنا أن نقدمـك إلى سـكان الكرة الأرضية. سنعقد لك مؤتمراً إعلامياً عالمياً، وتتحدثين فيه لبني البشر. "

لم أدر بماذا أجيب. قلت: "هل سيملؤني المؤتمر فرحـاً وحبـاً، ويجعلني أحس بجمال حياتكم؟ "

هتف ثلاثون صوتاً حولي: "بالتأكيد ! وخاصة جمال حياتنا."

قلت: "أنا موافقة. "

ازدحمت الأيام الثلاثة السابقة للمؤتمر بظاهرة لا أعـرف كيـف أقدمها لقرائي الأرضيين. لقد حرصت على عضويتي البشـرية كرمـى للفـن الـذي أودعه أبو الفتح فيها وللجمال الذي راق لعيني شهرزاد. وبصمـت وحبـور، تعزز حرصي كلما دخلت عـالم النسـاء وجلسـت معهـن. هنـاك أحسسـني ملكة مثل أختي شهرزاد.

لكن عالم الرجال كان شيئاً آخر. ثلاثة أيام وهم يشعرونني أن علي أن أتخلى عن نفسي وأقدمها لهم -- أعني عن عضويتي الجديدة. وقـد فهمت أن استعمالهم الوحيد لها سيكون على أسرّة غرف النوم. وبالطبع كانت لديهم وفرة من تلك الغرف. وأنا أكره غرف النوم. الحب يتم في الفضاء وليـس في أماكن مغلقة سوداء.

ليس الخليفة فقط. كلهم. وقد أدرك أنه لن يستطيع كبحهم عني، فأفلتهم وابتعد.

جاءني (العم) وهو يرتدي بنطلون جينز ويلوح مسدسه حول سبابته. ويلوح ابتسامته حول أسنانه: "أنا عمري سبعون. لكني أعجبك. أطبائي الأمريكيون لا يتركون خلية واحدة مني تشيخ". حملته على ظفر قدمي وعلوت به حتى طبقة الأوزون، فخرجت عيناه ولسانه من أماكنها. قلت: "أين هي رجولتك؟ أريدك أن تنام معي هنا في هذا المكان". ثم أعدته إلى الأرض قرفاً منه.

أمير آخر دعاني إلى برج فيه مطعم دوار لكي نجلس (جلسة فلكية). "أنا عليل"، جمجم وهو يرمق الأفق البعيد بنظرة معاناة دفينة. والتفت إلي: "هل تصدقين أني وأنا في الثلاثين، أمارس الجنس يومياً، ولا أحس به؟ نساء الكرة الأرضية ، بلا طعم ولا نكهة. وأنا أريد الحب، لا الجنس." وصمت، فهز رأسه حسرة وعتباً على الحياة التي لم تنصفه واللغة التي خذلته. قلت: "أنت عليل، وتريدني أنا أن أشفيك؟" فهز رأساً متطرباً سبع هزات متتالية. قلت: "ماذا سأنال منك بالمقابل؟" فوجئ. لم يكن ينتظر أني سأريد شيئاً. فارقته المعاناة والعتب والحس بأن الحياة مأساة. رمقني بنظرة تاجر لا يملك ما يقايض به بضاعة أحب استعمالها.

لم يكن الآخرون مثله. الآخرون جاءوني بنهمية جنسية متورمة. استدرجوني بالقصص عن خوارقهم الجنسية ... عدد النساء وعدد المرات في اليوم الواحد. ومن عجب أن جوابهم عن سؤالي: ماذا سأنال منك بالمقابل، كان واحداً من اثنين: فإما دهشة مصعوقة من أن لي مطالب أو أني طرف في معادلة، وإما: "ولو! أنا سأجعل صياحك بالنشوة يملأ حوض البحر الأبيض المتوسط".

حتى سئمت ذلك الجمال وذلك الفن. في آخر المطاف قلت لأحدهم: "أنت تحمل شهادة دكتوراه في الفيزياء، ألا تسألني سؤالاً واحداً، ألا تحاور معي، عن تجرتي، عن عضويتي الفلكية، عن نوع الحياة التي

أعيشها، نوع العقل الذي أرى به العالم، نوع المجتمع الذي جئت منه وقيمه ...؟ "

رد علي ممتعضا: "ولماذا نضيع وقتنا؟كلنا سنموت، وتقوم قيامتنا، ونذهب إما إلى الجنة وإما إلى النار ! ماذا ستفيدنا الفيزياء؟"

فاجأني الخليفة يوم المؤتمر بطلب غريب: "ملأت لك هذه القاعة لتختاري ملابس من كريستيان ديور وإيف سان لوران وترابـاتوني وفلنتينو وأكيهيكو. "

قلت: "أنا لا أتأثر بالطقس. النهدية والشورت يكفيانني. "

قال مبتسماً: "كرمى لنا. لا يمكن بدون ملابس. نحن صنعنا لغة كاملة من الملابس وأسبلناها على عقولنا. "

وافقت بلا اكتراث. أطلق الخليفة تنهيدةارتياح: "وطبعاً ستلبسين حجاباً. "

أطلق حلقي وابلا من الضحك: "سأبدو مهرّجة!" وأضفت: "أنت نفسك قلت لو حضر النبي إلى القرن العشرين لسأل الله تعالى إلغاء الحجاب. "

فابتسم بمكر أنيس: "لكنه لم يحضر، عليه الصلاة والسلام. "

قلت: "اغتنم فرصة ظهوري، وقل للناس إن المرأة بوسعها أن تحافظ على عفافها في هذا العصر دون حاجة للحجاب. مكارم الأخلاق لا علاقة لها بالشكليات. أنتم تهمكم روح الإسلام أم حرفيته؟"

غمغم الخليفة بصبر: "يا عزيزتي أفقزاد، كم مرة أقول لك؟ روح النص لا تهم أحداً؛ المهم حرفيته. "

وافقت بلا اكتراث.

لكني لحظة جلست في الفسطاط الشاسع الذي نصبه الخليفة للمؤتمر الإعلامي، فارقني دفعة واحدة الفرح والحرية اللذان وعدوني بهما. الكاميرات، التكنولوجيا، صفوف الجمهور، سواطع الكهرباء، الحرس،

المطوعون، مجهرات الصوت، وقوس وضعوه على رأسي وانتهى بكتلتين تسدان أذني للترجمة ... كيف لي أن أكون حرة وسعيدة؟

أدركت أن السيد الحقيقي لذلك المكان هو شهريار ورجاله. والسيد الحقيقي للعقول التي ستتحاور معي هو أبو الفتح وجهازه. والسيد الحقيقي لكل السادة الحقيقيين هو دهريار نفيطان.

كان الخليفة يخطب في الناس: "... كمثال فقط، أهديت لرئيس أمريكي سابق محفظة من الذهب المجدول مرصعة بثمانين ماسة، وإبريقا مرصعا بثماني وخمسين جوهرة، وساعة مرصعة بست عشرة جوهرة داخل بيضة مصنوعة من الألماس. هذا هو كرمنا العربي. وقد تلقيت مقابل ذلك من الرئيس وزوجته، نسخة من كتاب (طيور أمريكا). "

ضج الفسطاط بالهتاف والتصفيق تثميناً للكرم العربي.

عاد الخليفة يخطب: "نحن أكثر أمم الأرض تقدماً وتطوراً. نحن قمة المجتمعات البشرية أخلاقاً، والحمد لله. وهذا هو تقدمنا، إن شاء الله. لسنا أكثرهم تكنولوجياً، ولا أكثرهم إنتاجاً اقتصادياً، ولا إنتاجاً صناعياً .. ولا .. ولا ..لكننا إن شاء الله أكثرهم إنتاجاً أخلاقياً. نحن أكبر المصدرين في العالم للأخلاق والإيمان والعقيدة الإسلامية. وعندنا فائض ميزانية أخلاقية لا تستطيع الحواسيب أن تحسبه. وكل عام نبذل مليار دولار لتصدير أخلاقنا الإسلامية إلى أصقاع الكوكب الأرضي ... "

ضج الفسطاط بالهتاف والتصفيق تثميناً لتصدير الأخلاق الإسلامية.

" مخابر .. جامعات .. بحوث .. على عيني. لها فائدتها بإذن الله. لكن ما قيمتها في مجتمع بلا أخلاق؟ ما، قيمتها، في، مجتمع، بلا، أخلاق !؟! ننشيء مصانع ونجعل أبناءنا يتعلمون التكنولوجيا وندفع الدولارات ... لأجل ماذا؟ لأجل أن نصنع أشياء نستطيع مذ منّ الله تعالى علينا بالبترول أن نشتريها فورا، وبلا تعب، وبلا تضييع وقت، وبثمن أرخص من ثمن التعلم ! فلماذا نضيع على التعليم وقتا نستطيع أن نقضيه في التعبد لله سبحانه وتعالى؟ "

ضج الفسطاط بالهتاف والتصفيق.

" إخواني. يجب أن ننصرف إلى السعادة .. بإذن الله. وتربية الأطفال على مبادىء الإسلام. وليس على العلوم الدنيوية الفانية والعلمانية الكافرة. ولهذا، لدينا بفضل الله أعلى معدل تنمية أخلاقية في العالم. ولدينا أرقام وإحصاءات بهذا الخصوص. وهذا هو النصر العظيم. هذا هو الوعد الحق. هذه هي الحضارة. هم يرسلون الناس إلى الأفلاك، ونحن نتلقى الناس من الأفلاك !"

ضج الفسطاط بالهتاف والتصفيق. تفحص الخليفة الوجوه المسمارية.

" اليوم أيها الأخوة، وبفضل مكرمة من الله، نستضيف من هي أهم من الإحصاءات والبيانات. من هي أعظم الأدلة. وأقدس الأدلة. وأفحم الأدلة. على ما منّ الله به علينا من أخلاق إسلامية. نحن في هذه الديار المؤمنة، نستضيف مخلوقة شاءت العناية الإلهة أن تزورنا نحن، من بين سائر البشر على سطح هذا الكوكب، نحن وحدنا كرّمنا الله بالرسل والأنبياء ... وتوكيداً لمنزلتنا نحن العرب عنده، جل جلاله، ومنزلة ديار الخلافة، فالأخت أفقزاد، التي هي روح كلها، ليس فيها مادة أبداً، بإذن الله، إلا الشكل .. لا تتكلم من لغات الأرض إلا اللغة العربية ! لا الإنكليزية ولا الصينية. فقط العربية. مما يخرس ألسنة المشككين والمطففين ويثبت أن العربية هي لغة أهل الجنة ... تفضلوا واسألوها مباشرة، وستصلكم الترجمة فور أن تنطق الأخت أفقزاد بالجواب ."

كان السؤال الأول متعلقاً بي أنا، بعضويتي. وقد جاءني مترجماً إلى العربية. قلت لهم إني كمية موجية، لست شكلاً أو جسماً. نحن نتشكل بحسب حالات الفرح أو الحب أو الصدق أو الإنجاز التي نعيشها. نتشكل ونعود فنتشكل. لسنا مثلكم محكومين بشكل واحد. ولا شكلنا محكوم بحاجات عضوية. نحن حلقات من موج نوراني تسبح باسم خالقها. كما قال القرآن: يسبح لله من في السماوات والأرض. نحن آفاق موجية متداخلة. تداخل أفق مع أفق يصنع زاداً، لها وللكائنات الحية. عندما

نمارس الحب نتغذى. وعندما نفرح. وعندما ننجز شيئاً. وعندما نقول الحقيقة. لا مشاكل لدينا في الغذاء والملبس والمسكن. "

سرت همهمة ولغط وحركة. ثم سمعت سؤالاً بوضوح: "إذا كنتم في غير حاجة للملبس والمآكل والمسكن، فهذا يعني أن الله فضلكم أنتم على العالمين، وليس نحن المسلمين. "

قلت: "مسألة تفضيل مخلوق على مخلوق ليست من ناموس الخليقة. الخليقة في هذه الأفلاك كلها متساوية. لأنها تعيش بالحب والحرية. "

من جديد: همهمة ولغط وحركة. ثم سؤال: "لم تأتكم رسل ولا كتب. من يهديكم إلى تقوى الله وعبادته؟ "

أحسست بضيق حزين: واضح أن أبا الفتح، منذ عودته لاستعادة عصر النبوة، لم يكتب عن أندروميدا مقامة واحدة.

قلت: "نحن مؤمنون بالخلقة. نسبح لله لحظة ولادتنا. والخير والشر ليسا من عالمنا. نحن لا نختصم على شيء. لذلك لسنا محتاجين للأديان. ولا حتى للنظم الأخلاقية. ليس لدينا شيء نسميه 'خيراً' أو 'حلالاً'، ولا شيء نسميه (شراً) أو (حراماً). عالمنا فيه ثلاثة مكونات: الحرية، الجمال، الحب، وهذه تعطينا السعادة. "

صاح صوت ساخر: "يعني أنتم، على ما تقولين، تعيشون بلا أخلاق !"

قلت: "تماماً. لسنا بحاجة لها. "

قبل أن أسمع السؤال التالي، علت أصوات حادة في ركن من الفسطاط. نقاش نشب فجأة بين اثنين يحاولان أن يتصورا عالماً بلا خير أو شر أو أخلاق، وبلا حلال أو حرام، وثلاثة أرغت عقولهم وأزبدت ضد تصور أخرق مستحيل كهذا.

انتهى المشهد بسلام. اعتقل المطوعون ذوي العقول المزبدة ونسلوهم من القاعة. استمرت الأسئلة كأن الاعتقال كان واحداً من أفعال الخير في برنامج المؤتمر.

أثار السؤال التالي سخطا أكبر في نفسي على أبي الفتح، وقد ترجم إلي من التركية: هل كان غياب مفاهيم الحلال والحرام عن عقلي هو السبب في أنني خرجت شبه عارية في سوق الملابس، بتحد سافر لشرع الله؟

بعد صمت قصير، تأملت فيه الوجوه المصمغة، قلت: " نحن لا نستمد الطهارة من الملابس، نستمدها من وجداننا. وأنتم لو تأخذون بتفكير فيلسوفكم الكبير ابن رشد لحققتم أمنية الخليفة في الانتقال بالمسلمين إلى القرن العشرين. "

صارت الهمهمة هجهجة. وتوقفت الأسئلة. فهمت أن إقحامي للخليفة في جوابي قد خلق خوفاً غير محدود من طرح أسئلة أخرى. واحد فقط نهض حاملا روحه على لسانه - وحاملا احترامي أيضا - وصاح: "النظرة الفلكية التي تنادين بها تعارض إيماننا بأن الله خلق العالم بالكامل في ستة أيام، وخلق الكائنات والكون مكتملين خلال هذه الأيام الستة التي كل منها بألف شهر ! "

أحسست بالارتياح لأن هذا المتسائل الشجاع أتاح لي فرصة. أردت أن أقول كلاماً لم أستطع قوله للخليفة، ورأيت أن الأوان قد آن لإعلانه: " عظم الناس في هذه الديار يملكون العالم ببضعة أزرار تلفزيونية يكبسون عليها. يعني، عالم المعرفة في متناول الجميع. أستغرب كيف لا تعرفون أن خلق العالم لم يكتمل حتى الآن. بدأ الخلق قبل سبعة عشر مليار سنة، ولم يكتمل حتى الآن. هذا ما يقوله علماء أرضكم. المجرات ما تزال تتكون، والشموس، والإنسان أيضا. "

صمت قليلاً. تفحصت الوجوه الربداء الكظيمة، وعدت إلى القول: "على أي تلفزيون تتفرجون؟ مكوك فضاء من كوكبكم، يبث الآن، في

هذه اللحظة، صوراً عن نجمة تتكون. ألم تتفرجوا على الصور الجميلة الرائعة للنجمة التي تتكون الآن؟ السديم والهيولى يغادران العدم ويدخلان الوجود! في هذه اللحظة! ومثل هذه النجمة ملايين النجوم التي تخلق! كيف تقول إن الكون تم خلقه؟ ... "

ما حدث بعدئذ هو أن القاعة غرقت في ظلام دامس رهيب. داهمني الخوف البشري الذي من النوع البشع. خرجت من بشرية أبي الفتح وملابس الخليفة. أطلقت أمواجي في الفضاء. وفي غرفة جلوس شهرزاد اتخذت شكلاً بشرياً آخر وجلست.

كانت تتفرج في التلفزيون على مؤتمري الإعلامي. التفتت إلي. لم أر في حياتي قط وجهاً أضوأ ولا عينين أسعد وأجمل وأحب. "شفيت غليل مسعود"، قالت، وبكت فرحاً وحزناً.

أخذ التلفزيون يبث قراءة من القرآن الكريم بصوت أبي يوسف. ثم انقلبت الخلفية وراءه فبدت القاعة الخائرة. وجوه اسودّت بالخوف وفارقها ضياؤها.

ثم "صدق الله العلي العظيم".

الصمت والكاميرا الجوالة. حشد من الرؤوس المسمارية، همد في سكون مطلق. وجه الخليفة المرصوص الحنكين، وعينه اليقظة الساهية. وجوه الأمراء والأعيان المتهدلة. ثم جثتي التي أبدعها أبو الفتح.

تحرك رأس دهريار إلى اليسار. اقترب منه رأس شهريار مطأطئاً. قال فم الخليفة : " أنت تعرف، أفقزاد لم تمت طبعاً. " قال دهريار : " لم تمت يا مولاي. " قال الخليفة : " أريدها لدينا بأي ثمن. بأي شكل. هذه مسؤوليتك. قد تكون الآن عند شهرزاد ." قال شهريار : " تماماً يا مولاي. "قال الخليفة : " وأنا سأشتري من الأمريكيين سفينة فضائية تعيدها إلى مجرتها. بسرعة. فوراً". "فوراً يا مولاي . "

ثم وجه أبي الفتح وعيناه المغرورقتان بالدموع. اضطربت أمواجي وتدافعت: يبكي علي ! ووجوه الآخرين الملتفتة، كما خيل إلي، نحو دموع أبي الفتح الصامتة. ويد أبي الفتح تمتد بطيئة مرتجفة من وجهي حتى أوشكت أن تلمسه. كان يبكي علي.

هتفت بأختي: "شهرزاد ! إذا لمسني بتلك الإصبع ! وأعطى جثتي حياة ! سأبقى بشرية إلى الأبد !"

أشعلت شهرزاد سيجارة. وعبر دخانها هتفت : " لن يلمسك . "

توقفت الكاميرا على اليد المتوقفة. ملمترات قليلة بين أصابعه ووجهي. ثم عيناه تتحولان إلى عين دهريار. تتلقيان إنذاراً محجباً.

التفت أبو الفتح إلى الرؤوس المسماوية. المنتظرة الحائرة. لم أعد أرى يده ولا وجه جثتي.

ملأ وجه أبي يوسف الشاشة. وجه دامس تنتشر منه شعرات ملتوية بيضاء، بينها فراغات تكشف عن آثار جدري قديمة. أمامه ثلاثة ميكروفونات:

"بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على سيد المرسلين. أيها الأخوة المؤمنون ... بمزيد من التسليم بقضاء الله وقدره، تنعي إليكم ضيفة مولانا الخليفة، الأخت الفاضلة، والروح السماوية المؤمنة، أفقزاد، التي جاءتنا من الأفق الأعلى في السماء الرابعة، واعتنقت الإسلام، واتخذت هيئة البشر. أيها الأخوة، يأبى إبليس وشياطينه إلا أن يصبوا حمم حقدهم على ديننا الحنيف ليمنعوا انتشاره بين الأفلاك السماوية. لقد سلطوا على هذه الروح المؤمنة، الروح الطاهرة، النقية، فيروساً علمانياً أصابها بالجنون في المرة الأولى، وبالموت في المرة الثانية، لكي يحولوا دون انتشار الإسلام في السماء الرابعة. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. إنا لله وإنا إليه راجعون."

ثم صوت أحد المذيعين يعلن باسم الخليفة حداداً عاماً على المدة ثلاثة أيام.

فتلاوات مستمرة من آي الذكر الحكيم.

كان شيء يعرفه البشر جيداً يتفشى في مسافاتي: الحزن. لطالما تساءلت: لماذا يحزن البشر؟ وعرفت الآن أنهم يحزنون لانسداد الدروب بين بعضهم بعضاً أو داخل أرواحهم. رميت الحزن بوابل من أمواجي، فلم أعرقل خطاه قيد أنملة. تقدم واستوطنني.

قالت شهرزاد: "ما بك يا أخي؟ "

قلت: "أنت رأيته بعينيك. أبو الفتح. كيف نسي أني لا أموت؟ لو فقط لمستني يده".

غمغمت هي بشرود كظيم: "هذه اليد هي التي قتلت مسعود. "

سألت: "كيف قتلوه؟ "

قالت إن أبا الفتح هو الذي بيّن لنفيطان أن رواية مسعود عن الحرب لم تكن عن الحرب في الحقيقة. و لم تصف بطولات جيوش الخلافة في تحرير نفيطية وتدمير ديرة الحجاج بين يوسف. و لم تدافع عن الشرعية الدولية. و لم تظهر الخطوات الحضارية التي تمت بموجب كتاب النفط. كانت ضد الإسلام. وضد الخلافة. وضد الحرب. وتحتشد فيها المشاهد الجنسية والعبارات الإلحادية.

قالت شهرزاد: "اعتبرت الرواية أن ظهور النفط في ديار الخلافة حدث تاريخي هائل، يشبه ظهور الرسالات الدينية الكبرى، أو اكتشاف أمريكا، أو اختراع الأبجدية، أو الثورة الفرنسية. لكن الذي حدث هو أن ديار النفط ازدادت انحطاطا، ووحشية مقنعة، وجشعا، وفحشا. "

وكان أن جمع أبو يوسف (علماء) الخلافة وأصدروا فتوى بردة مسعود وهدر دمه. لذلك (اضطر) الخليفة إلى قتله .

أبو يوسف. لم أكتب عنه شيئا في هذا المسرود. كنت قد استمعت إليه يوما وهو يخاطب عشرات الملايين من المسلمين ويقول لهم أن الإسلام قد حرم الموسيقا، والاستماع إليها. قال إن الموسيقا تلهي سامعها عن التفكير

والتأمل في الله. وقال إن صوت المرأة في التمثيليات حرام. لأن عذوبته وحنوّه ورخامته وغنجه تحث المؤمن على تصورات خلاعية.

عندما تعبق الكلمات في خاطره يغيب عقله. حضور الكلمات يغنيه عن حضور الأشياء. بل ويلغيها من وعيه. يمضغ اللغة مضغاً ويعلكها علكاً. يقول الفكرة الواحدة بعشر عبارات ويستمتع بها واحدة واحدة. (غنية في أسلوبها! مفيدة في نسيجها! رائعة في تصميمها! ملهمة في مؤداها! ربانية في خلقها! ...) كأنه يتناول عشر لقمات من أكلة شهية. وهو لا يخاطب العقول بل الآذان، ليس التفكير وإنما التنغيم.

سألته امرأة ذات مرة وهو على شاشة التلفزيون: هل حرام عليها وهي في رمضان أن تذوق طبختها لتتأكد من نجاحها؟ فقال إن أمر الله في ذلك معروف ولا نقاش فيه وهو أنه حرام. ولكن إذا كان الزوج مدققاً ونقاداً فلا بأس من التساهل في أمر الله وتذوق الطبخة لتفادي غضب الزوج وسخطه ... تصوروا ! كأن الأمر الإلهي يعاد النظر فيه ليلائم زوجاً عصبي المزاج !

كم هي تعيسة ومستعبدة حياة فيها أسئلة من هذا النوع. وعلى ما يبدو فإن عشرات الآلاف من أمثال أبي يوسف قد تولوا خلال ألف عام مهمة تجميد حيالة الناس وعقولهم في ثلاجة الفتاوى. لقد تجاهلوا وقمعوا زمنية نزول الأحكام , وأفتوا بأبديتها، رغم زوال الأسباب بعد حين. لم يفهموا أن النزول تخصيص بحالة وليس تعميماً على الحياة، وأن الدين منهج وليس نصاً مسمّراً. الحجاب الذي فرض لحماية نساء المؤمنين في المدينة المنورة يوم كن يتعرضن لاعتداء المشركين، بات فرضاً أبدياً رغم زوال أسبابه. على هذا النحو حولوا الإسلام من دين عظيم إلى توابيت.

أبو يوسف، على ما قيل لي، أودع ابنته مستشفى الأمراض العقلية سنة كاملة لأنها لبست بلوزة تكشف عن معصمها .

طبعاً. هذا الرجل هو أجرأ الخلائق على كلام الله، فكيف لا يجرؤ على عقل ابنته؟ عندما يشرح القرآن لجمهور مريديه في المسجد، يقول لهم إن هذا هو ما عناه الله بالضبط في هذه الآية أو تلك، وهذا وليس غيره هو

ما عناه الله! فكأنه مطلع على العقل الإلهي! أو هو خليفة الله الفكري في الأرض. وهكذا يعطل عقول سامعيه ويمنعها من أن تجرؤ يوما فتحاول أن تفهم القرآن بنفسها.

الحزن هو الذي منع شهرزاد من الرد على استفساراتي. ليس لدى شهرزاد أبواب تفتح لليأس. لكنها إذا حزنت هجرت اللغة. لذلك أبت تماماً أن تشاركني حواري الذي عزمت عليه مع أبي الفتح. آثرت أن تلبس طاقية الإخفاء وتستمع. قالت إنها ستعود إلى سرد الحكايات، كتابة هذه المرة. لن تصر على عرض المسلسل التلفزيوني الذي اقتبسته عن حكاياتها القديمة. هذه الحكايات لم تعد تنفع الآن. حكاياتها الجديدة ستقول للعالم ما أراد مسعود أن يقوله عن الإنسانية المهدورة وعن شريعة الغاب، في كتاب النفط.

كان أبو الفتح قد عاد إلى قصوره تحت وطأة حزن شديد. أسرع إليه فريق الأطباء الأمريكي الخاص بالخليفة ليعالجوه. بعد ثماني ساعات من تفحصهم لحزنه اقترحوا نقله بالطائرة فوراً إلى مستشفى قاعدة بحرية في الولايات المتحدة. لقد تأكدوا أن "متلازمة امرىء القيس" التي يعالجونها فيه كل أسبوع، قد تفشت في بدنه تفشيا خطراً. إنها تتأبى على العلاج. قروحه القديمة نشطت، ونشأت فيه قروح جديدة. وأخذ ينز قيحاً وصديداً. سلطوا عليه خراطيم البيبسي، فتحول ذلك الشراب المنعش إلى قيح.

عندما التقيته كان معافى تماماً وعليلاً تماماً. وكان الحزن يقيمه ويقعده في غرفة النوم البهيجة، الفسيحة الأرجاء. رآني فشهق: "رباه! وإذن فأنت لم .... " ثم ضرب كفيه على فخذيه بمرح، وتمتم: "يا للحماقة! كيف ظننت أنك تموتين؟"

هرع إلي ممدود الذراعين. رشقته بوابل من أمواجي فتوقف. سألتني عيناه المخيبتان: لماذا ؛ فقلت : " لا أريد العودة إلى بشرية النفط. "

قال: "جئت من أندروميدا كرمى لي. ألا تنتمين إلينا كرمى لي؟ "

قلت: "أنت لا كرمى لك عندي. "

تفاقم الحزن في عينيه. بدنه المكتظ بالمراهم، تشقق ولفظ قطرات لزجة محرورة. مد يده نحوي كمتضرع يائس: "رجاء! ألمسك لمسة واحدة، أبدعك مرة ثانية، يتلاشى حزني وقروحي. أسترد إنسانيتي. لمسة واحدة أسترد بها إنسانيتي. "

قلت: "أنت لا تقول الحقيقة. الحزن لا يسبب قروحا في البدن. الخيانة تسببها. "

قال: "والحزن يسببها. حكيت لك عن شاعرنا العظيم امرىء القيس. وحده الحزن سبب قروحه. "

قلت: "تلمسني، تبدع لي جسداً بشرياً، فأصير سلعة عند نفيطان وعند قريش كلها. متأسفة. "

انكفأت عيناه الحزينتان عني. تأملت جسده المتقصدر بهلع مشمئز وموجوع. قال: " كيف نسترد حبنا إذا لم يوقف تحولي إلى هذا المعدن الخسيس؟ "

قلت: "آخذك معي إلى أندروميدا. هناك أجعلك أمواجاً مثل أيام زمان".

تناول منشفة سميكة وراح يمسح الصديد عن وجهه وعنقه وصدره. قال: "كنت خائفاً أن تطلبي مني هذا الطلب. لأني لا يمكنني إقناعك بعدم قدرتي على أن ألبيه. "

أمسكت الدهشة بي. والصمت أيضا. ولأن أبا الفتح أدرك وقع كلماته علي، أخذ يفرك المنشفة على جسده بشدة متزايدة. وفجأة صرخ متألماً. سقطت المنشفة، وأمسكت يده بأصابع يده الأخرى.

لهفت نفسي عليه. رأيت قطرات الدم تنبجس من رؤوس أصابعه. قال: "الأسلاك. شددت المنشفة عليها أكثر من اللازم. "

كان دماً صافياً. أحمر كالشفق. بعد دم مشاعل، هاأنذا أرى دم أبي الفتح. كنت أعرف فظاعة منظره أكثر مما أحس بها. فالدم رمز رفيع في الثقافة البشرية. لكن منظره على أصابع أبي الفتح أعطاني حسا بالعافية.

اقتربت. رأيت الهباب المتفحم يذوب في دمه الصافي، والصديد يمتزج فيه.

قلت: "مرة ثانية يا أبو الفتح: لنذهب إلى وطني. أنت ترى بنفسك وبجسدك أن كتاب النفط صار لعنة عليكم أجمعين."

قال: "أنجو بنفسي وأترك أمة محمد بن عبد الله تصير قصديرا؟"

قلت: "ما زلت تلوك هذا الكلام؟ لا أنت ولا محمد قادر أن يرد عنكم هذا القدر."

قال: "لن أكون سعيداً في أندروميدا وأنا أتذكر هذه النكبة."

قلت: "العالم يمضي قدماً نحو الأفضل. أنتم تتفككون. تتقوضون. لكن العالم سيكون أجمل بعدكم."

هز رأسه بقنوط، وبنفاد صبر أيضا: "أعرف، أعرف. ولهذا السبب أنا مصمم على البقاء هنا. يجب ألا يضيع كتاب محمد ولا يضيع كتاب النفط. يجب أن نصنع عالماً جديداً بهما ومنهما ... عالماً من الجمال والحرية ... والسعادة والحب ..."

دون أن نلاحظ انبثقت شهرزاد أمام أعيننا. اقتربت من أبي الفتح. مرفقاها ملتصقان بخاصرتيها. يداها ممدودتان إلى الأمام كأنها تريد أن تطبق بهما على وجه أبي الفتح لحظة وصولها إليه. وأخذ صوتها يئز: "سبعين عاما وأنت تردد هذه اللغة. سبعين عاماً. ماذا كانت النتيجة؟ وقّعت بيديك على قرار منع مسلسلي التلفزيوني المأخوذ من ألف ليلة وليلة. أليست تلك الحكايات عن السعادة والجمال والحب؟ منعت المسلسل بأكمله. صرت كلباً من كلاب دهريار نفيطان التي يطلقها على الجمال والحب والسعادة والحرية. لم تعد قادرا أن تنتشل نفسك من المستوى البهيمي الذي وصلتم إليه. أنت مخلوق من اللغة، ومع ذلك فقدت قدرتك على الطيران. أنتم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا. جعلتم الله عدواً للعقل. جعلتموه ضد بيتهوفن وشوبان. ضد مايكل آنجيلو ورودان. ضد فان غوخ وبيكاسو ..."

صرخة مروعة من أبي الفتح أوقفت تقدم شهرزاد المتوحش ولغتها اللاعنة. رأيته يرتعش ويتشنج، وسمعت حلقه يغرغر ويعرعر. اندفعت إليه، فصرخت هي بي : " قفي ! إياك أن يلمسك ! "

وقفت. لأول مرة في أبدية هذا الكون أحسستني بلا إرادة خاصة بي. قلت لها: "ولكنه أبو الفتح!" فتمتمت بوجوم الكاهنات: "سيصيبك بلعنة النفط ! "

اشتبكت أعيننا في حوار شقي، فيما أبو الفتح يعول ويتلوى. حادث غريب راح يحدث في جسده. لم أعرف ماذا لكنني كنت متأكدة من وجود الخطر. قلت لشهرزاد وقد حزمت أمري: "لن أقبل أن يحدث له مكروه. أنا مسؤولة عنه". والتفت إليه فرأيته منتصب القامة رغم ما يحدث له. رأيته شامخاً ومتأبياً. لم يكن وجهه ينز، سوى أنه لمع بسواد رصاصي.

" عن أية لعنة تتحدثين؟ " هكذا توجه نحو شهرزاد. بدا راسخاً كالطود. "هذه الصحراء تحولت إلى جنة. فعن أية لعنة تتحدثين؟ البدو الذين من قرون وقرون يعيشون في بيوت من شعر الماعز، يعيشون الآن في بروج مشيدة. التعليم متوفر لكل شخص. العلاج متوفر لكل شخص. السفر متوفر لكل شخص. الطعام. السيارة. الحسابات في المصارف. فبأي آلاء ربك تكذبين؟ "

كانت عيناها تطلقان شواظاً. أما هي فكانت هادئة كالجلمود. زمجرت: " والكرامة متوفرة لكل شخص. والحب والحرية .هذه من آلاء ربك ايضاً فلماذا لا تتكلم عنها؟ ثم قل لي: أنتم تسافرون أنتم؟ هل يخرج أحدكم خارج حيوانيته ستمتراً واحداً؟ هؤلاء البدو، الذين تتحدث عن النعيم الذي يعيشون فيه، ما زالوا بدواً. حتى أيام الجاهلية، كانوا أفضل. "

التفت إلي مثل من قرر أن لا يضيع مزيداً من الوقت مع شهرزاد. توسل: "الأطباء الأمريكيون قادمون. لن يهمهم تحول بدني إلى قصدير. سيهمهم فقط أن أظل أتحرك. مثلما يتحرك دهريار وشهريار وأبو يوسف وغيرهم. لا أريد أن أفقد إنسانيتي. خليني ألمسك لمسة واحدة. لمسة واحدة".

"إياك!" هتفت شهرزاد، وقد رأتني أتقدم نحوه. قلت باضطراب: "لمسة واحدة. ستكون خلقاً جديداً لي. وأبو الفتح سيسترد إنسانيته. "

صاحت شهرزاد: "ستكونين أنت من يقتل مسعود هذه المرة. ستردين له إنسانيته على حساب محمد عربي محمدين، وعيسى بن هشام، وبلقيس ملكة سبأ، وملايين الضائعين .. في هذه الصحراء وفي مدن الأسئلة."

قلت باحتدام: "ما علاقة هؤلاء بحاجة أبو الفتح إلي؟ ! "

قالت: "خانهم ! هو ودهريار وشهريار وأبو يوسف، قتلوهم. قتلوا الناس بالدين وبالخليفة وبالخبز والجنس. "

نظر أبو الفتح إليها بتوسل: " أنت تظلمين الخليفة. عبد الملك دهريار نقيطان شخص مستنير. الدين والتدين لا يساويان عنده بصلة. في مجالسنا الخاصة، نحن نشرب الخمر ونخرق جميع المحرمات. لكنه محكوم بالغوغاء التي حوله. مثله مثل هارون الرشيد ومعاوية. سيفقد حريته وعرشه لو أظهر ما يبطن."

هتفت بشهرزاد : " أنا لا دخل لي في مشاكلكم أنتم أهل الأرض. أنا أحب هذا الإنسان وأريد أن أخلصه. هذا هو ما يهمني."

غرغر أبو الفتح: " نعم .. نعم .. "ثم لم يتابع الكلام. تلوى وجعر وترنح. نظر إلي مطأطئاً مغمغماً: " الرحمة! لمسة! لمسة واحدة! وإلا صرت لعبة بيد الأطباء. أتوسل إليك."

أجل. أنا التي لا شأن لي أحسست بالفجيعة. الذي يعيش بين البشر يجب أن يحس بالفجيعة. وأن يواجهها. إنها النبل الذي تطلقه إنسانيتهم الناقصة. ونقصهم هو ينبوع نبلهم.

التفت إلى شهرزاد قبل أن أمشي لتلمسني أصابع أبي الفتح. رأيت عينيها دامعتين إشفاقا عليه. هي أيضا بدأت تخطو نحوه. مدت يدها إلى يدي. تقدمنا نحن الاثنتين. وكانت هي تغمغم : " رغم أنه الذي قتل مسعود. "

وقفت أمام أبي الفتح وأغمضت عينيّ.

لمست أصابعه عيني. ثم شفتيّ. وشعري. لمست نهديّ وبطني. وحوضي. فتحت عينيّ.

رأيت ذهولاً ينهمر من عيني شهرزاد، وذعراً ينفجر في عيني أبي الفتح. كأن فجيعة اكتملت. ثم رأيتني: الهيئة البشرية التي اتخذتها بقيت هيئة ولم تتجسد. لم تتكون لي حلمتان يمكن أن يرضعهما عاشق أو وليد. ولا سرة تذكر بالولادة والشبق. لم يتكون لي شيء.

التفت إلى شهرزاد أستجدي منها نظرة نافية. أردتها أن تؤكد لي أن أصابع أبي الفتح المبدعة لم تمت. لكن عينيها تسمرتا على وجهه المذعر وأصابعه الممدودة.

نظر أبو الفتح إلى أصابعه خائر الفم. قلّبها أمام بؤبؤيه. وحانت منه التفاتة إلى اليمين فتحول الذعر في عينيه إلى سكون، والسكون إلى يأس. هناك وقف فريق الأطباء الأمريكيين بأدب، وكانوا آخر ما شاهده.

تبادلت وشهرزاد نظرة رعب وتكذيب. رأيت عينيها مخضلتين بالدمع. رفعت أصابع يمناها وقلّبتها أمام وجهها. فوجئت بكبائها على أبي الفتح: كم هم غريبون هؤلاء البشر! وفوجئت بخوفها على أصابعها. قلت: "أصابعك ليست من النوع الذي تصيبه لعنة النفط؛ لا تخافي؛ ستكتبين قصصك."

النهاية موقتاً

د. سعد الله آغا القلعة